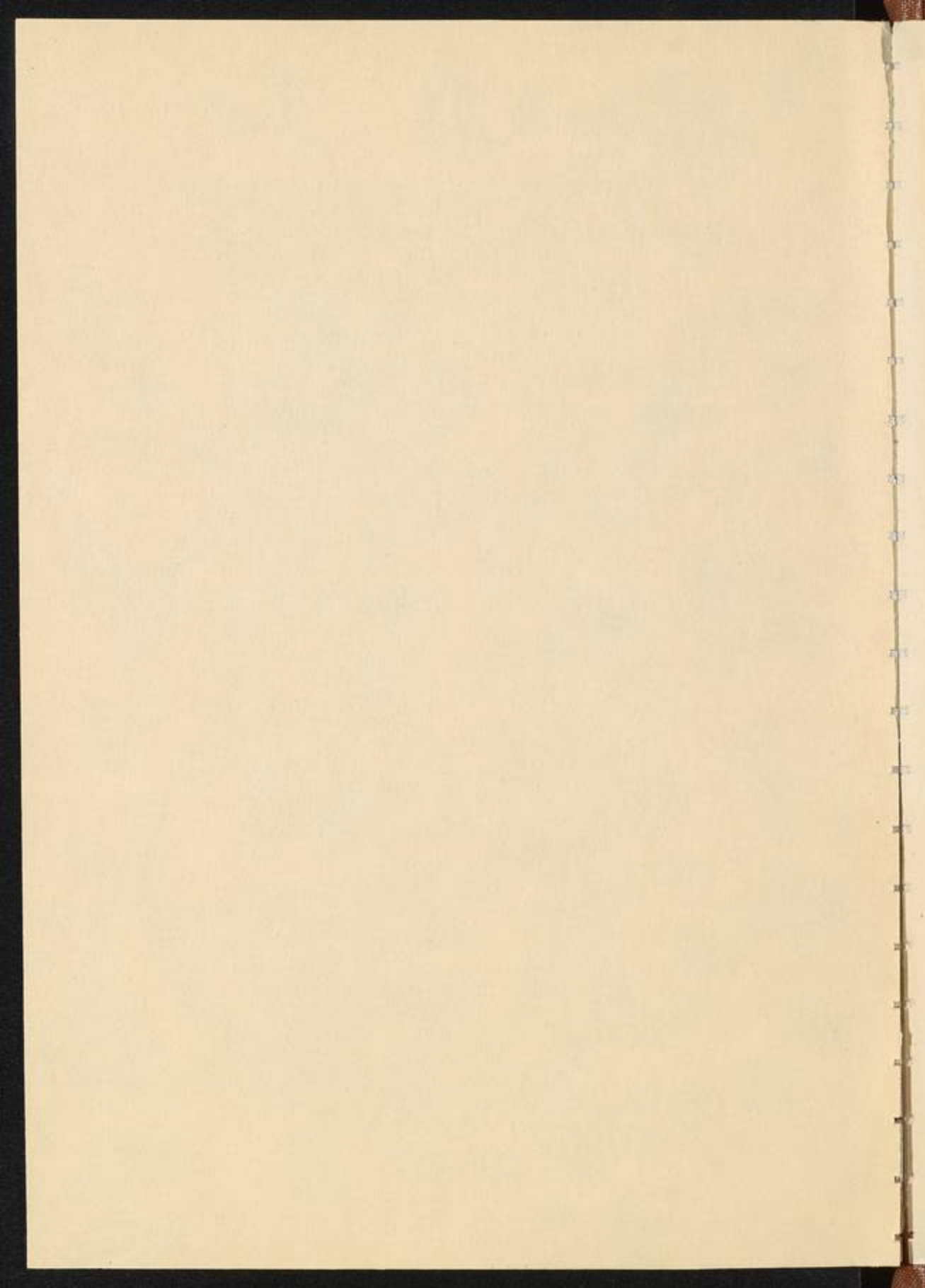
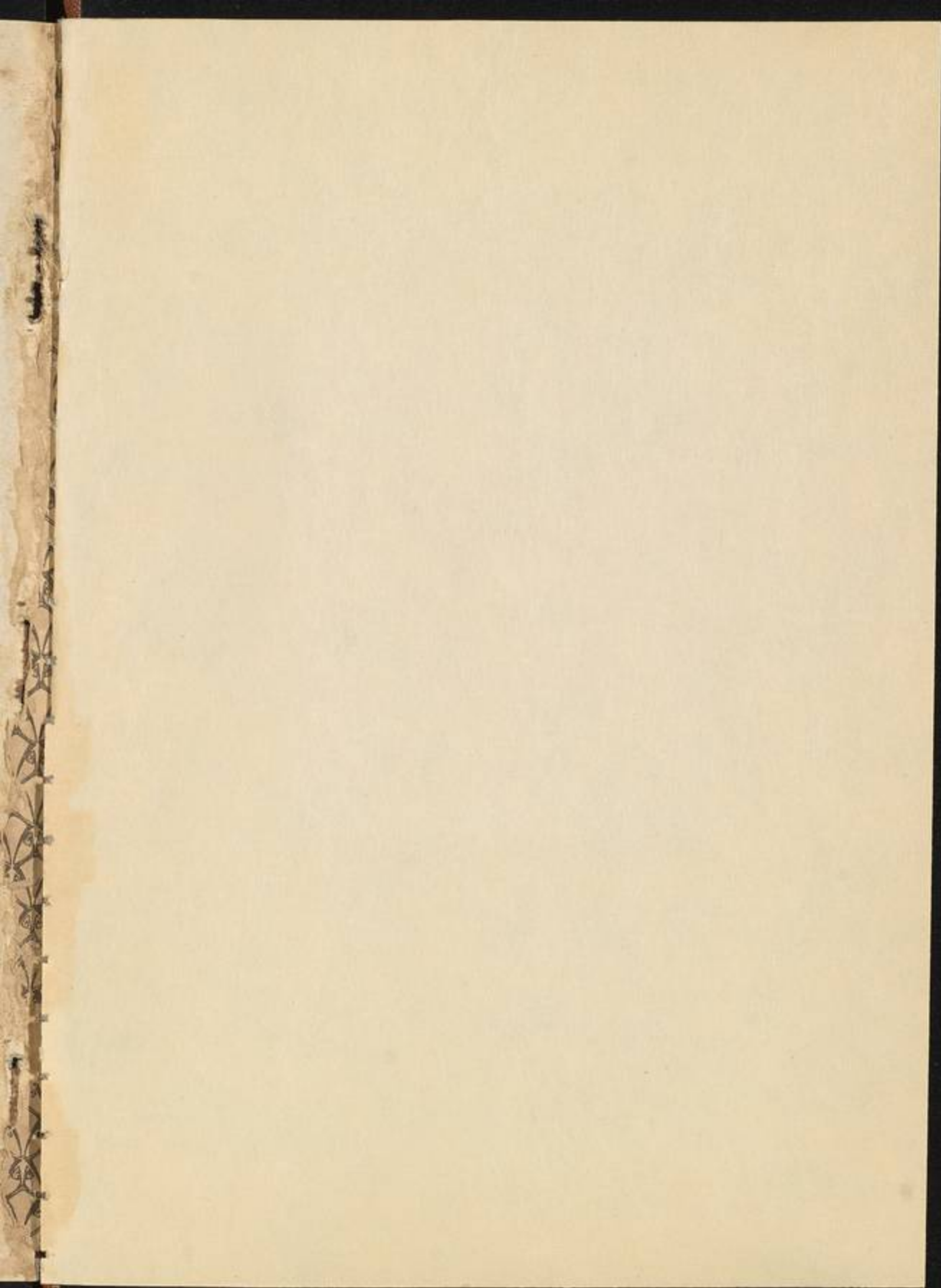




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY







كتاب Dupli calat

الدولة العباسية

قيامها وسقوطها

تأليف

حسين خليلي

أستاذ التاريخ والاقتصاد بدار العلوم العليا
ليسانسيه في الآداب، و (B. A.) في التاريخ والاقتصاد
والعلوم السياسية من جامعة شفيلد بإنجلترا

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب بدار العلوم العليا

الطبعة الاولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يطلب هذا الكتاب من المكتبة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة
أو من « المكتبة المصرية الكبرى » بشارع الفجالة بالقاهرة

المطبعة الحديثة بشارع خيرت بالقاهرة

صنى

٨

نرد الخوارزم

893.79

K5265

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

يتناول منهج التاريخ المقرر دراسته لطلبة السنة الثالثة العالية بدار العلوم تاريخ الدولة العباسية والدويلات التي تفرعت عنها، وقد عهد إلى أن أقوم بتدريس هذه المادة، ورأيت أن أضع مذكرات موجزة فيها تناسب مع وقت هؤلاء الطلاب، وتكون لهم مرجعا يعتمدون عليه وهم يحصلونها، من غير أن يلجأوا إلى المطولات التاريخية التي وضعت قديما وحديثا، والتي سردت حوادث تلك الدولة من بدء قيامها إلى دور انحلالها وسقوطها. ولقد وجدت الحاجة ماسة إلى اخراج هذه المذكرات كتيباً إتماماً للقائده وتعميماً للمنفعة، فاستغنت المولى القدير وتقدمت به إلى جمهور الطلاب ومن يعنون بالتاريخ الاسلامي، راجياً منهم أن يغفروا لي ما عسى أن يكون قد وقع فيها من خطأ أو تقصير مرحباً بكل نقد علمي صحيح

هذا وقد استقيت معلوماتي من المصادر العربية والأجنبية أذكر منها: تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وتاريخ الكامل لابن الأثير، وبلوغ الأرب في أحوال العرب للالوسي، ومقدمة ابن خلدون، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للرحوم الشيخ محمد الحضري بك، وتاريخ الخوارج للرحوم الشيخ محمد شريف، وفجر الاسلام للأستاذ أحمد أمين، وتاريخ

الجمعيات السرية للأستاذ عبدالله عنان، وحماة الاسلام تأليف محمد بك نجيب
وعصر المأمون للدكتور فريد الرفاعي، وتاريخ العرب لسيد أمير علي،
والخلافة للسير ولیم مویر، وتاريخ الادب عند العرب لنكسون
ومحاضرات الادب للأستاذ الشيخ احمد الاسكندري، ونظام الاثنيين
للدكتور طه حسين، وتاريخ الاغريق للرحوم محمود فهمي، وتاريخ
الاغريق تأليف بيوري، إلى غير ذلك من الجرائد اليومية والمجلات
الدورية والمحاضرات العامة

ويرى القارىء في نهاية هذا الموجز وصفا مختصرا لتاريخ عظمة ائتنا
واسبرطة، وانتقال الحضارة الاغريقية وعلومها الى الدولة العباسية وهو
ما نص عليه المنهج المذكور

ولا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم الثناء إلى زميلي الأستاذ
أحمد يوسف نجاتي المدرس بدارالعلوم لمراجعته العبارة العيبة، وإلى
زميلي الأستاذ الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدارالعلوم لتفضله بعمل
الخرائط التاريخية، وإلى باقي حضرات الزملاء الذين تفضلوا ومدوا إلى
يد المعاونة الصادقة، سائلا المولى القدير أن يجزيهم عنى خير الجزاء

حسن خليفة

يناير سنة ١٩٣١



الباب الأول

تأسيس الدولة العباسية

نمبر

١ - عصر الخلفاء الراشدين :

بعد أن لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى اجتمع الصحابة في سقيفة بني ساعدة، وتشاوروا في أمر خلف رسول الله، وبعد مناظرات حادة جرت بين المهاجرين والأنصار، قرأى الأَكثَرِيَّة على إسناده هذا المنصب الخطير إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فتولاه، وظلت فئة قليلة من المسلمين على الرأي القائل بأسناده إلى عضو من أسرة بني هاشم ورشحت له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، على الرغم من وجود عمه العباس الذي كان في ذلك الوقت أسن بن هاشم، وكان علي يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد ابن عمه، وناصرته زوجته السيدة فاطمة الزهراء في وجهة نظره، فظل ممتنعاً عن مبايعة أبي بكر حتى توفيت زوجته ثم بايعه بيعة صحيحة على ملأ من الناس

انقضى زمن أبي بكر وعند وفاته عهد بأمر المسلمين إلى عمر بن الخطاب فتولى الخلافة ولم ينازعه في أمرها أحد، وأدار شؤون الدولة بعدل وحزم، وفتح الأَمْصَار ونشر لواء الإسلام شرقاً وغرباً، وبعد حكم زاهر دام عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام مات متأثراً بطعنة أبي لؤلؤة غلام

حسبه رواية وهناك رواية أخرى من قول علي بن أبي طالب

أول الخلفاء

العباسية

لقد نشر العباسية

عمر بن الخطاب

عند أبي بكر

عنه

12-23-64

118

المغيرة بن شعبة في شهر ذي الحجة سنة ٢٣ هـ، وكان قد ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين بعد أن رشح لها وهو على فراش الموت واحدا من ستة أشخاص قائلا: « رأيت ألا أتحمّل أمركم حيا وميتا، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من أهل الجنة: علي وعثمان ابنا عبد مناف، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والزيير بن العوام حواريه وابن عمته، وطاححة الخير بن عبيد الله. فلتختاروا منهم رجلا، فاذا ولوا واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه، وإن أئتمن أحدا منكم فليؤد أمانته »

وجمع المقداد بن الأسود أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة، وطرح عليهم الأمر، فتناظروا وكثر الكلام بينهم، وانتخب عثمان بن عفان وعدل عن علي، وأقبل الناس يبايعون عثمان، وبايعه علي وكان ذلك في أوائل المحرم سنة ٢٤ هـ

تولى عثمان بن عفان الأمر، فدب ديب الخلاف بين المسلمين وغرست بذور الفتنة بينهم، ورأى أنصار علي أن صاحبهم كان أحق بالخلافة منه، وظلوا يترقبون الفرصة حتى يصلوا الى مأربهم عاملين جهد الطاقة على استمالة جمهور المسلمين الى نظريتهم، وفي السنة السادسة من خلافة عثمان قامت حركة عنيفة كان الغرض منها نقل الخلافة إلى علي، ونشط الدعاة في كل من الكوفة والبصرة والفسطاط يشوهون أعمال الخليفة وولاته ويرجفون في البلاد وينشرون فيها الأباطيل، منتهزين فرصة ابن الخليفة فاكتسبوا أنصارا كثيرين، وأخذت عوامل السخط تزداد يوما فيوما حتى هب فريق من الناقلين وحاصروا الخليفة في داره لمدة اثنين وعشرين يوما، ثم دخلوا عليه وقتلوه وهو يتلو القرآن في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ

كان قتل عثمان سببا لتفاقم الخلاف بين المسلمين، اذ اتهم أنصاره وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان والسيدة عائشة أم المؤمنين عليا بمالأة الثوار وأمسكوا عن مبايعته، عندما قبل منصب الخلافة بعد تردد، ولم يستطع على على الرغم من الجهود الكثيرة التي بذلها أن يبرىء نفسه من الشكوك التي حامت حوله من أن له يدا في قتل عثمان، وعصفت بالبلاد ريح الثورة، وقامت الفتن في أنحاء الخلافة الإسلامية وتلتها الحروب الداخلية، وسارت الأمور من سيء إلى أسوأ، ولم يذق الخليفة الرابع للراحة طعما بل ولم تصف له الخلافة يوما واحدا، ثم هجم عليه أحد الخوارج وهو عبدالرحمن بن ملجم وضربه في رأسه بسيف مسموم وهو خارج للصلاة في صباح يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ هـ وإليك نبذة في أخبار الخوارج

الخوارج : قال المرحوم الأستاذ الشيخ محمد شريف سليم ناظر دار العلوم سابقا « إن الخوارج قوم من المسلمين يرون في سيرة الخليفتين عثمان وعلى رضى الله عنهما ومن بعدهما من أمراء المؤمنين وولاية أمورهم ما لا يراه عامة المسلمين، ويزعمون أنها مخالفة للدين، فيخرجون من الجماعة ويتألبون عليهم، فيضطروا أولو الأمور إلى قتالهم خشية اضطراب الأمن وانتشار الفساد، ومن ذلك أطلق عليهم اسم الخوارج »

وكان بدء ظهورهم في خلافة علي عندما قامت الحروب الداخلية في الدولة الإسلامية بين الخليفة يعاضده أهل العراق، وبين معاوية ومن انضم إليه من الزعماء يعاضده أهل الشام، وبعد حروب شعواء بين الفريقين رضيا مبدأ التحكيم بينهما بعد موقعة صفين سنة ٣٧ هـ، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري حكما لهم على كره شديد من علي، واختار أهل

الشام عمرو بن العاص حكما لهم ، واجتمع الحكمان بحمص يسمى دومة
الجنديل بقرية من قرى الشام ، وتفاوضا فيما يكون عليه أمر المسلمين ، فخذع
عمرو أبا موسى ، واتفق معه على أن يخلع كل منهما صاحبه ليولى المسلمون
من يختارونه ، وتقدم أبو موسى وأعلن خلع على ، وقام عمرو وأعلن تثبيت
معاوية ، فاضطرب الناس ، وانقسم أنصار على إلى فريقين ، فريق استمر يناصره
وهذا هو فريق الشيعة التي سنتكلم عليها في موضع آخر ، وفريق خرج عليه
وحكم إذ قال كيف يحكم الرجال في أمر الله عز وجل . لا حكم إلا الله -
أخذ الخوارج بعد ذلك يظهرون الزرارية على علي في التحكيم ،
ويقاطعونه في خطبه معلنين العدا له ، وفي سنة ٤٠ هـ اجتمعت طائفة منهم
بمكة وتأمروا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص زاعمين أنهم سبب
اضطراب الأمة الاسلامية ، ووقع اختيارهم على عبد الرحمن بن ملجم
ليقتل عليا ، والحجاج بن عبد الله الصريمي المعروف بالبرك ليقتل معاوية ،
وعمر بن بكر التميمي ليقتل عمرو بن العاص ، وأن يكون قتل الثلاثة في
ليلة واحدة

كثرت عدد الخوارج بعد موت الامام علي ، وكانوا مصدر الثورات
والاضطراب في عهد الدولة الأموية ، وظلوا كتلة واحدة حتى سنة ٥٦ هـ ،
ثم انقسموا إلى فرق كثيرة أشهرها خمس ، وهي الأزارقة ، والأباضية
والصفرية ، والنجدية ، والبيهسية ، وانتشرت في البلاد والاقطار ، وأخذ
دعاتها ينشرون مذاهبها المختلفة ، كما تراه مفصلا في الملل والنحل للشهرستاني
والفرق بين الفرق للبغدادى وغيرهما ، وازدادت شوكة الخوارج ،
ونجحوا في التغلب على قوات الحكومة ، وظلوا يعيشون في الارض فسادا ،
واستولوا على كرمان وولاية فارس ، وهددوا البصرة في سنة ٥٦٥ هـ ، فأجمع

مع اعمرو بن
عمرو بن العاص
على علي بن حسين
التحكيم لما وقعت
المطائف

اطراف التورث
بكر بن العاص
الشرع كيد
الشرع ص ٦٦

أهلها وأشرفها على اختيار المهلب بن أبي صفرة وإلى خراسان لمطاردتهم ومحاربتهم ، فشمر عن ساعد الجد ، وأخذ يضيق عليهم الخناق ويحاربهم بمختلف الوسائل الحربية والسياسية ، واستمر على هذا المنوال حتى فرق شملهم وانتصر عليهم ، وخلص العراق من شرهم ، ولولاه لسقطت البصرة في أيديهم ، ولذلك سميت بصرة المهلب

جاء في كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين « وكان كلام الخوارج يدور حول تشریح أعمال الخلفاء وأنصارهم ، والبحث فيمن يستحق أن يكون خليفة ومن لا يستحق ، ومن يكون مؤمنا ومن لا يكون ، وقد وضعوا نظرية للخلافة وهي أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا اختير الخليفة فليس يصح أن يتنازل أو يحكمهم ، وليس بضروري أن يكون قرشيا بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبدا حبشيا ، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله وإلا وجب عزله »

« وكان أكثر من اعتنق مبدأ الخوارج عربا بدوا ، وانضم اليهم بعض الخوارج الموالي ، إعجابا برأيهم الديمقراطي في الخلافة ، وقد اشتهر الخوارج بالتشدد في العبادة والانهماك فيها والأخلاص للعقيدة والشجاعة النادرة يضاف إليها العربية الخالصة جعلت لهم ادبا خاصا يمتاز بالقوة شعرا ونثرا وقوة في السبك وفصاحة في الأسلوب »

مات الامام علي متأثرا بجرحه بعد أن ضربه ابن ملجم بيومين ، وكان قد قضى في الخلافة أربع سنين ونحو تسعة أشهر ، وبموته انقضى عصر الخلفاء الراشدين أو عصر الجمهورية الإسلامية كما يطلق عليه بعض المؤرخين ، وبدأ عصر الحكم الملكي الوراثي وقامت الدولة الأموية

٢ - عصر الدولة الاموية :

انتخب أهل الشام معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف للخلافة بعد صدور حكم الحكامين ، وظل جمهور المسلمين ما عدا الخوارج مواليا لعلي حتى قتل ، فبايع جند العراق ابنه الحسن ، ولكنه رأى من مصلحة المسلمين وتوحيدا لكلمتهم أن ينزل عن الخلافة لمعاوية ، وتفاوض معه في أمر التنازل ، واشترط لنفسه ولأهله شروطا ارتضاها ، ثم بايعه في شهر ربيع الاول سنة ٤١ هـ وترك أمر الخلافة له ، فغضب لذلك فريق الشيعة ، وترقب الفرصة لاقامة أخيه الحسين خليفة على المسلمين . وكان معاوية ذا مواهب سياسية كبيرة وذا عقل راجح ورأى صائب ، استطاع بحسن تدييره وبفضل حزمه وكثرة اوضاعه نصب عينيه الوصول الى الغاية التي كان يطمح اليها ، متخذاً لنفسه شعار سياسي الوقت الحاضر « الغاية تبرر الوسيلة » . وفي عهده تقدمت الدولة الاسلامية تقدما ايجابيا ، وفتحت البلاد ، وانتشر الاسلام انتشارا عظيما ، ومات في رجب سنة ٦٠ هـ بعد حكم دام عشرين سنة في السنة الخامسة والسبعين من عمره . وكان قد فكر قبل موته بأربع سنوات أن يأخذ على الناس البيعة لابنه يزيد بولاية العهد ، ومن الاسباب التي دفعته الى القيام بهذه الخطوة الجريئة والاقدام على هذا الانقلاب الخطير الشأن ، البعيد الاثر في النظام الحكومي الاسلامي ، ما أجمله ابن خلدون في مقدمته اذ قال « ورد في كتاب عصر المأمون » إن الذي دعا معاوية لأيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق

أهوائهم ، باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية ، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع ، وأهل الغلب منهم فأثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها ، وعدل عن الفاضل الى المفضول ، حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء . وقد أضاف السير ولیم مویر الى هذه العوامل عوامل أخرى تتلخص في رغبة معاوية الاكيدة في قصر أمر الخلافة على أفراد أسرته ، وفي خوفه من تفرق كلمة المسلمين بعد موته ، وقيام الحروب الاهلية مما يضعف مركز الدولة الإسلامية ، ويطمع فيها أعداءها الخارجيين من عجم وروم الذين كانوا يتحفزون للاغارة عليها متى سنحت الفرصة المناسبة لهم

لقد كان لهذا الانقلاب أثر كبير في توطيد ملك بنى أمية ، ولكنه « كان في نفسه سببا يعتد به من أسباب سقوط الدولة الاموية »

خلف يزيد اباه في الحكم وبايعه الناس ، ولم يتخلف عن البيعة إلا نفر قليل من أهالى المدينة ، من بينهم الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وكان أول عمل قام به يزيد بعد أن استوى على عرش الخلافة أن كتب الى الوالى على المدينة من قبل أبيه وهو الوليد بن عتبة ابن ابى سفيان أن يأخذ له البيعة ممن امتنعوا عن مبايعته ، فصدع بالامر كل من عبد الله بن عمر وابن عباس ، وأما عبد الله بن الزبير والحسين فرفضوا وخرجوا الى مكة ونزلا بها ، ولما علم أهل الكوفة بانتقال الخلافة الى يزيد عزموا على دعوة الحسين الى مدينتهم لمبايعته بالخلافة ، واجتمعت الشيعة فى منزل زعيمهم سليمان بن صرد الخزاعى ، وكتبوا الى الحسين يرجون قدومه ، ونصح له أصدقاؤه بمكة أن يعتذر ويرفض الدعوة ، لما كانوا يعلمونه من تردد الكوفيين وعدم ثباتهم

ولكن ابن الزبير نصح له بالقبول حتى يتخلص منه وهو أكبر منافس
له في أمر المطالبة بالخلافة

قبل الحسين الدعوة، وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب
الى الكوفة ليمهد له الامر، وأوصاه بتقوى الله وكتان أمره، وعلم يزيد
بخطوات مسلم فعزل والى الكوفة، وولى عليها عميد الله بن زياد امير
البصرة، وكان رجلا شديدا، وحاكما مدبرا فتغلب على مسلم وقتله وقتل
معه صديقه هاني بن عروة المرادي . وفي ٨ ذى الحجة سنة ٦٠ هـ
خرج الحسين ومعه أهله وأولاده طالبا الكوفة، مخالفارأي مشيريه،
ضاربا بما ته سلوا به اليه عرض الحائط، وقبل أن يصل الى الكوفة
بلغه خبر قتل مسلم، فكرر مشيروه نصائحهم، وطلبوا اليه العدول
والرجوع الى مكة، ولكن ألح بنو عقيل عليه بالاستمرار مطالبين بثأر
أخيهم، ولما قرب من الكوفة قابله الحر بن يزيد التيمي ومعه جيش
بلغ عدده ألف فارس ومنعه من التقدم، فاتجه الحسين نحو الشمال
تاركا الكوفة، وظل الحر يراقبه حتى أرسل بن زياد جيشا لملاقاة
الحسين وعلى رأسه عمر بن سعد بن أبي وقاص، وضرب الحسين خيامه في
سهل مدينة كربلاء على شاطئ الفرات وهي تبعد نحو خمسة وعشرين ميلا
عن الكوفة، ودخل الفريقان في مخابرات انتهت بالاخفاق، واضطر
الحسين الى القتال ولكنه غلب على أمره وقتل هو ومن معه قتلا شديعا
في ١٠ المحرم سنة ٦١ هـ (١٦ اكتوبر سنة ٦٨٠ م)

تخلص يزيد بقتل الحسين من منافس عنيد له، ولكن ما آساة كربلاء
كان لها رد فعل شديد في قلوب أهل الشيعة، وندموا ندما شديدا لقعودهم
عن نصره الحسين، واستغل دعواتهم حوادث تلك المأساة، وبالغوا في سردها

ونشروها بين أهل العراق وفارس والحجاز ، فاكتمسبوا أنصارا كثيرين وأصبح للعلويين شأن خطير يهدد كيان الدولة الاموية، ويهز أركانها من أقصاها الى أقصاها ، إذ قامت الثورات العنيفة في أنحاء الخلافة الاسلامية وظلت الشغل الشاغل ليزيد وقواده وعماله حتى قضى نحبه في السنة الاربعين من عمره في ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ

خلف يزيد ابنه معاوية الثاني وكان تقيا تأثر بمأساة كربلاء ، ومال الى بني هاشم ، واتبع معهم سياسة الرفق واللين ، ولكنه مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته ، وبموته انقرض فرع أبي سفيان بن حرب ، وانقسم الأمويون على انفسهم ، وظهرت الاحزاب بين أفراد أسرهم ، وفكر مروان بن الحكم زعيم أكبر حزب بينهم أن يبايع عبد الله بن الزبير الذي كان قد عظم أمره ودخل في دعوته أهل الحجاز والعراق وخراسان وفارس ومصر وكان له أعوان كثيرون في الشام نفسها ، ولكن حدثت أمور خدمت مروان بتباطؤ عبد الله ، واتفق زعماء بني أمية ونادوا بمروان خليفة ، وخرج لقتال ابن الزبير وانتصر عليه في معركة مرج راهط وهي تقع في الشمال الشرقي لدمشق وتبعد عنها بضعة أميال . وكان من نتائج هذا الانتصار أن خضع الشام بأجمعه الى مروان ، ثم سار الى مصر وفتحها أيضا وبايعه أهلها ، وكان يريد أن يتبع أثر عبد الله بن الزبير ، ولكن المنية عاجلته فمات في رمضان سنة ٦٥ هـ ٦٨٥ م بعد أن عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز فأوجد بذلك النظام الثاني في ولاية العهد ، ذلك النظام الذي نشأ عنه انحلال الدولة الاموية كما ستبينه من الحوادث الآتية ، والآن نترك سيرة عبد الملك ونقول كلمة موجزة في شيعة بني هاشم

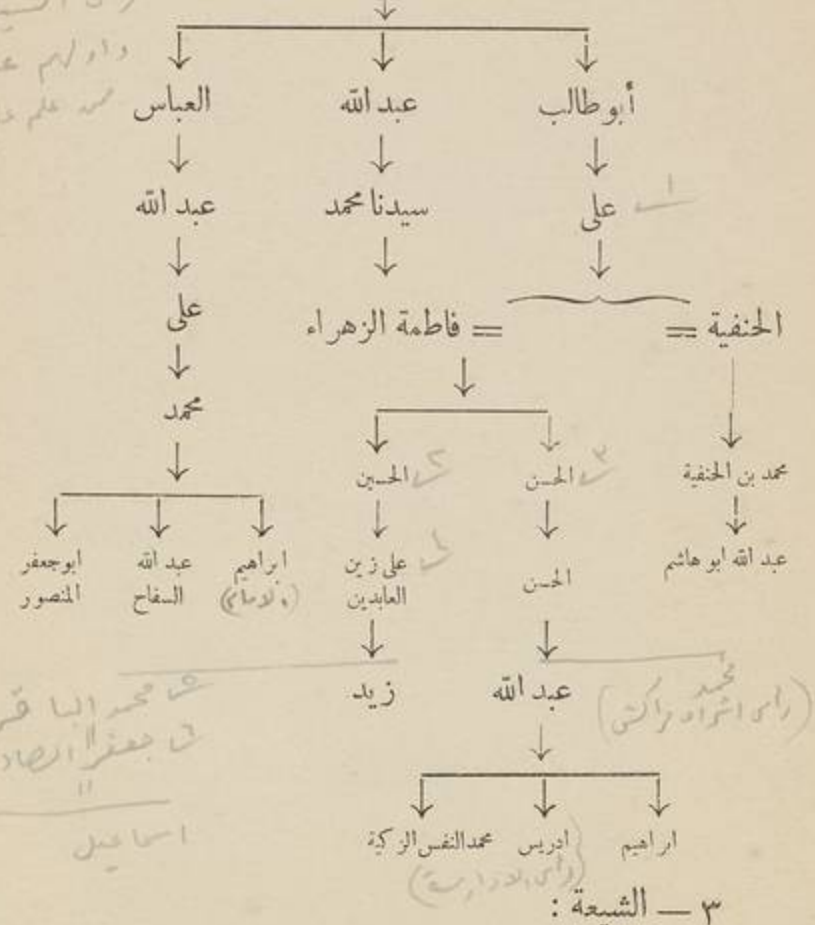
قصي

↓
عبد مناف

↓
هاشم

↓
عبد المطلب

الديعة الاثنا عشرية في
لان الشيعة الاثنا عشرية
داد لهم على ثم مرة بيلم
محمد علم عليه في الشكر



عبد محمد ابا قمر
في جعفر الصادق

عبد موسى الكاظم
عبد علي الرضا
عبد محمد الجواد
عبد علي الرضا
عبد محمد الجواد
عبد علي الرضا
عبد محمد الجواد

٣ - الشيعة:

عرف الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل البيت أحق بالخلافة بعده بالشيعة، لأن شيعة الرجل هم أصحابه وأتباعه، وكان العباس عم النبي وعلي ابن عمه أولى أهل البيت

واجتمعت كلمة الشيعة على تفضيل الأمام عليّ كرم الله وجهه على
العباس في أمر الخلافة ، واعترف العباس نفسه بهذه الأولوية ولم
يطالب بالخلافة

مذهب الشيعة وفرقها :

يقول الشيعة إن الامام أو الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم هو
سيدنا علي ، وأنه في نظرهم أكبر معلم ، إذ أنه قد ورث علوم الرسول ،
ويرون أنه ليس شخصا عاديا ، بل يمتاز عن سائر الناس لأنه معصوم من
الخطأ وأن الاعتراف بامامته والطاعة له جزء من الايمان ، ويقولون إن
الأئمة تتسلسل من بعده من نسله بترتيب من عند الله ، وقد اختلفوا فيما
بينهم اختلافا كثيرا في طريقة هذا التسلسل ، ومن ثم تشعبت مذاهبهم
وكثرت فرقهم مما لا محل لذكره هنا ، بل نقتصر على ذكر فرقتين هما أهم
الفرق وأكبرها شأنا : وهما (فرقة الزيدية وفرقة الإمامية) ، فالفرقة الأولى
تتكون من أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن الإمام عليّ ،
ومذهب هذه الفرقة هو أعدل مذهب الشيعة وأقربها إلى السنة ، إذ «لا يؤمنون
بالخرافات التي ألصقت بالأمم فجعلت له جزءا إلهيا» . هذا وقد خرج زيد
في خلافة هشام بن عبد الملك بتجريض أهل الكوفة مطالباً بالخلافة ،
والتف حوله أنصار كثيرون ، ولكن الجيوش الأموية طارده وتغلبت
عليه وشتتت أنصاره وذلك لعود أهل الكوفة عن نصرته وقت الخطر ،
وقبض عليه وقتل صلبا في سنة ١٢١ هـ وثار بعده ابنه يحيى ولكنه غلب
على أمره أيضا وقتل سنة ١٢٥ هـ

وتفرق بعد ذلك أنصار هذا المذهب في طول البلاد وعرضها ، ولا
يزال كثيرون من أهل اليمن يعتقدونه حتى يومنا هذا

أما الفرقة الثانية وهي الأمامية فقد قالت إن النبي صلى الله عليه وسلم نص على خلافة علي، وأنها تنتقل منه إلى من بعده، وفي رأى زعمائها أن أبا بكر وعمر كانا مغتصبين للخلافة، وقد طعنوا في إمامتهما وجعلوا الاعتراف بالامام جزءا من الايمان، وقد انقسمت الامامية الى فرق صغيرة متعددة منها الفرقة الاثناعشرية، وأطلق عليها هذا الاسم لأنها تجعل الأئمة اثني عشر إماما وهم علي، والحسن، والحسين، وعلي زين العابدين، ومحمد الباقر وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد التقي، وعلي التقي، وحسن العسكري، ومحمد المهدي، وينتشر مذهب هذه الفرقة في بلاد فارس وعقيدتها هي العقيدة الرسمية لدولة ايران الى اليوم

واشتهرت فرقة أخرى وهي الفرقة الاسماعيلية، وهي التي تقف بأئمتها عند اسماعيل بن جعفر الصادق، وجاء في وصفها ماورد في كتاب فجر الاسلام صحيفة ٣٢٥ « ووضع أتباعها لهم تعاليم درجوها تسع درجات تبتدىء بأثارة الشكوك في الاسلام، كسؤالهم ما معنى رمى الجمار، وما العدو بين الصفا والمروة؟ وتنتهى بهدم الاسلام والتحلل من قيوده، وأولوا كل ما فيه، فقالوا إن الوحي ليس إلا صفاء النفس، وأن الشعائر الدينية ليست إلا للعامّة، وأما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها، وأن الأنبياء هم سواس العامة، أما الخاصة فأنبياء وهم الفلاسفة، وليس هناك معنى للتمسك بحرفية القرآن، فهو رموز لا أشياء يعرفها العارفون، إنما يجب أن يفهم القرآن على طريقة التأويل والحجاز، والقرآن ظاهر وباطن، ويجب أن نخرق الحجب المادية حتى نصل إلى أظهر ما يمكن من الروحانية، ومن ثم سموا أيضا «الباطنية» وكان من آثار دعائهم الدولة الفاطمية في المغرب ومصر، ولا يزال لهم بقايا الى اليوم في الشام والعجم والهند ورئيسهم الآن «أغا خان» الزعيم الهندي المشهور

وتعتقد الإمامية على وجه العموم بعودة أمام منتظر، ولكنها تختلف
في شخص الأمام باختلاف فرقها، فمنها من تنتظر جعفر الصادق ومنها من
تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب
وهناك فرقة ثالثة تنتظر محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب وتزعم
أنه حي لم يموت، وأنه في جبل رضوى بالحجاز إلى أن يأذن الله له بالخروج،
وأنه بين أسد ونمر يحفظانه، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل
ويعود بعد الغيبة، فيملأ العالم عدلا كما ملأ جورا، ويقول شاعرهم في
هذا المعنى:

الأإن الأئمة من قريش	ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه	هم الإسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا ينوق الموت حتى	يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا	برضوى عنده عسل وماء

وتعرف هذه الفرقة الثالثة بالفرقة الكيسانية نسبة إلى كيسان مولى
محمد بن الحنفية، وهو لقب للمختار بن أبي عبيد الثقفي الذي خرج بالكوفة
بعد موت الحسين في كربلاء داعيا إلى الامام المهدي وهو محمد بن الحنفية،
وقد لاقت دعوته أذنا صاغية بين أهل العراق، والتف حوله أنصار كثيرون،
ولكن عبد الله بن الزبير أرسل إليه جيشا بقيادة أخيه مصعب فتغلب
عليه وقتله سنة ٧٦ هـ ٦٨٦ م، وبايع محمد بن الحنفية عبد الملك بن مروان،
وعلى الرغم من قيامه بهذه البيعة ظلت شيعته على الرأي بأنه أحق بالخلافة
ولكنه مغلوب على أمره، ولما مات انتقل ولاؤها إلى ابنه عبد الله أبي هاشم

الشيعة والامويون :

كان خلفاء بني أمية في نظر الشيعة مغتصبين للخلافة ظالمين ، ولذلك عملوا على مناهضتهم بجميع الوسائل العلنية والسرية ، وأيدوا مذهبهم بتفسير الآيات القرآنية بما يتفق وعقديتهم ، ووضعوا الأحاديث الكثيرة ونسبوها الى النبي صلى الله عليه وسلم في فضائل عليّ وفي المهدي المنتظر ، ولذلك أخذ الامويون وعمالهم يطاردونهم في كل قطر ومصر ، واضطهدوهم اضطهادا شديدا ، وسجنوهم ونهبوا أموالهم ، وقتلوهم وشردوا معهم أهل البيت ، وما أعمال عبيد الله بن زياد ، والحجاج بن يوسف ، وأسد بن عبد الله القسري الا برهان ناطق على شناعة هذه الاضطهادات ، وكان من جراء هذا الاضطهاد وتلك المطاردة أن مالوا الى الدعوة السرية وأحكموا نظامها ، « وهذه السرية استلزمت الخداع والالتجاء الى الموز والتأويل » ، وقد اصطبغ أدهم بالحنن العميق والنوح والبكاء وذكرى المصائب والآلام

أثر الشيعة في الاسلام :

جاء في كتاب فجر الاسلام صحيفة ٣٣٠ ما يأتي « والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادتشية وهندية ، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته ، كالذي كان في المغرب قبل انتقال الفاطميين الى مصر — كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستارا يخفون وراءه كل ماشاءت أهواؤهم ، فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة ، وقالت الشيعة إن النار محرمة على الشيعة ألقليلا ، كما قال اليهود

لن تمسنا النار إلا أياما معدودات، والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم إن نسبة الأمام إلى الله كنسبة المسيح إليه، وقالوا إن اللاهوت اتحد بالناسوت في الأمام، وإن النبوة والرسالة لاتنقطع أبدا فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي، وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله والحلول، ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الإسلام. وتستر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية، وما في نفوسهم الا الكره للعرب ودولتهم والسعي لاستقلالهم، قال المقرئزي «واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام ان الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الاحرار والاسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على ايدي العرب، وكان العرب عند الفرس أقل الامم خطرا تعاضمهم الامر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الاسلام بالمحاربة في أوقات شتى وفي كل ذلك يظهر الله الحق... فرأوا أن كيده على الحيلة انجح، فأظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا أهل التشيع بأظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم عليّ، ثم سلكوا مسالك شتى حتى أخرجوهم من طريق الهدى»

٤ — انتقال الدعوة الشيعية الى العباسيين :

مات محمد (بن الحنفية) بن عليّ، فانتقل ولاء الفرقة الكيسانية الى ابنه أبي هاشم عبد الله، وكان من عاداته أن يفد على الخلفاء الامويين، ولما تقابل مع سليمان بن عبد الملك أحد هؤلاء الخلفاء (٩٦ — ٩٩) أكرمه وقضى حوائجه، ولكنه حقد عليه لفصاحته وخافه، فأمر أن يدس له السم في لبن في

أثناء رجوعه من الشام ، فلما شعر أبوهاشم بدنو أجله ذهب إلى الحيمة وهي قرية تقع في جنوب فلسطين ، ونزل على بني عمه من العباسيين ، وأوصى بحقه في الخلافة إلى أحدهم وهو علي بن عبدالله بن العباس ، وهذا أوصى بها عند وفاته إلى ابنه محمد العباسي وعرفه أسرار الدعوة ، وبذلك انتقل ولاء الكيسانية من العلويين إلى العباسيين ، ونشط هؤلاء العباسيون منتهزين تلك الفرصة الجليلة السانحة ، وبذلوا جهد طاقتهم في رواج دعوتهم والوصول إلى منصب الخلافة ، ونهض محمد العباسي بالدعوة الشيعية نهضة قوية ، وكان ذا نظر ثاقب ، وعقل سليم ، وإليه يرجع الفضل في تنظيم صفوف الشيعة تنظيمًا محكمًا أدى إلى النجاح المنشود ، وهو صاحب فكرة الدعوة السرية ، إذ عين للشيعة نقباء ودعاة وأوصاهم ببث الدعوة سرا ، وبالتظاهر بها لآل البيت عامة من غير تعيين فرد حتى لا يفتك به الأمويون ، وكانت طريقة حكيمة أنتجت ثمرتها المطلوبة

وانتشر النقباء ، وعددهم اثنا عشر نقيبًا ومعهم الدعاة وعددهم سبعون رجلاً في مختلف الأقطار والأقطار ، ينشرون دعوتهم ، وينفذون خططهم ، مسترشدين في عملهم بكتاب محمد العباسي لهم ، ويدل هذا الكتاب كما جاء في عصر المأمون (صحيفة ٨٣ المجلد الأول) على ما كان عليه هذا الزعيم العباسي من علم بأحوال الناس في عصره ، وبعد بأخلاق الشعوب التي كانت خاضعة للسلطان الإسلامي ، وبما كانت تجيش به النفوس في كل صقع وحاضرة ، وبمثل هذا الزعيم الداهية ومن اجتباهم للدعوة العباسية ، قد كتب الفوز لهذه الدعوة آخر الأمر . ومما قاله هذا الزعيم في كتابه : « أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فخرورية مارقة وأعراب كأعلاج ، ومسلمون في أخلاق

النصارى ، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان ، وطاعة بني مروان ، وعداوة راسخة وجهلا متراكما . وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل . وعم جند لهم أبدان ، وأجسام ، ومناكب ، وكواهل ، وهامات ، ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ، ولغات نفحة تخرج من أجواف منكرة وبعد فأنى اتفأل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق »

ابتدأت الدعوة السرية فى خلافة عمر بن عبدالعزيز وكان عادلا ومتسامحا مع أهل البيت ، وجعل الشيعة لدعوتهم مركزين أحدهما بالكوفة التى اعتبرت نقطة الاتصال ، وأقام فيها بأمر الدعوة ميسرة مولى على بن عبد الله العباسى وأما المركز الثانى فكان بخراسان وهى محل الدعوة الحقيقى ، وتولى الدعوة فيها محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج . يقول المرحوم الخضرى بك صحيفة ١٦ « أما الكوفة فهى مهد التشيع لأهل البيت من قديم ، فيمكنهم أن يأووا إليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم . وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين : الأول أن فكرة التشيع يفهمها الخراسانى من المسلمين بسهولة ، لأن مؤداها نقل الخلافة الى بيت النبى صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة وسيد الأمة ، وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذى يتوارثه أهل بيته ، ولا يجوز نقله الى غير بيت الملك الا أن كان ذلك عن اختلاس — الثانى أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين ، ولذلك فائدة كبيرة فى حياة النفوس ، وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد ، فكان العنصر العربى بينهم هو صاحب الكلمة العليا ، والنفوذ السائد ، ولا يتولى من ليس منهم شيئا من الولايات العامة ، فكان أهل فارس مستعدين لأن

يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة واخراج الخلافة الى الدولة المستقبلية، كي يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم في دولة بني أمية .»

جاب الدعاة البلاد في أوائل القرن الثاني للهجرة يزاولون التجارة ظاهرا، وينشرون الدعوة سرا، بالحكمة والموعظة الحسنة، ويدعون الناس الى مناصرتهم بشتى الاساليب، وظلوا كذلك نحو سبعة وعشرين عاما، وكان ولاية الأمويين في خراسان يطاردونهم متى ظهر أمرهم مطاردة شنيعة من تعذيب وتقتيل، فأن أسد بن عبد الله القسرى أمير خراسان كان يقطع أيدي من ظفر به منهم وأرجلهم وكان يصلبهم، وهو من أشد ولاية خراسان قسوة، ولكنهم مضوا في دعواهم على الرغم مما لاقوه من التنكيل وبما صادفهم من النكبات . وفي سنة ١٠٥ هـ أنضم الى الشيعة بكبير بن ماهان وكان رجلا قويا ثريا وخلف ميسرة نقيب الشيعة في الكوفة بعد موته، فقاد الدعوة خير القيادة، يآتمر الدعاة بأمره، ويسيرون في الطريق التي يرسمها لهم

٥ — أنحلال الدولة الأموية وسقوطها:

ظلت الدولة الاموية مهيبة الجانب، ثابتة الدعائم في أيامها الأولى بفضل حزم معاوية بن أبي سفيان وحسن تديره للامور، واستمرت كذلك في عهد ابنه يزيد الأول، ولكن البيت الأموي انقسم على نفسه بعد ذلك وجرى الخلفاء الأمويون على سنة النظام الثنائى لولاية العهد، فكان هذا النظام شرا مستظيرا، وعاملا كبيرا من عوامل الضعف، اذ كان لكل ولى عهد حزب يناصره، وبطانة تنشر دعوته «وربما تطرفت في منهجها السياسى تطرفا يبتث العداوة فى القلوب، ويستثير السخائم فى النفوس»، فقد خرج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الذى تولى الخلافة بعد اخيه هشام، ونسب اليه الفسق والكفر

واحلال ما حرم الله ، وقدح فيه علانية وساعده في ذلك أنصاره ، ولما تغلب عليه وتولى العرش وقع فيما وقع فيه من سبقه من الخلفاء ، واضطربت الاحوال في الدولة اضطرابا شديدا ، وانتشرت الفتن وقامت الحروب الاهلية ، اذ قام أهل حمص يأخذون بثأر الوليد بمن قتله ، وحذا أهل فلسطين حذوهم ، وطردها عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك ، وكذلك قامت الفتنة في ولاية الأردن وفي العراق وخراسان ، وتقلص نفوذ الخليفة بين أهل تلك البلاد ، وخرج عن طاعته نصر بين سيار والى خراسان ، ولم تطل مدة خلافته وتوفى في ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ بعد حكم قصير دام خمسة أشهر واثنين وعشرين يوما ، وكان قد عهد بولاية العهد من بعده لأخيه ابراهيم ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك تولى ابراهيم الملك ولم يستقم له الأمر ولم يبايعه إلا أهل دمشق ، وظل حاكما غير معترف به إلا من فئة قليلة نحو ثلاثة أو أربعة شهور ، وسبب ذلك خروج مروان بن محمد بن مروان بن الحكم عليه وكان واليا على ارمينية والجزيرة ، وحاربه وتغلب على القوات التي أرسلت لأخضاعه ، وزحف على دمشق ودخلها منتصرا ، وأخذ على الناس البيعة لنفسه ، واعتلى عرش الخلافة في صفر سنة ١٢٧ هـ ديسمبر سنة ٧٤٤ م وهو آخر الخلفاء الامويين وعلى يديه سقطت الخلافة الاموية ، وكانت مدته كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات ، إذ خرج عليه الولاة في جميع أنحاء الدولة ، واشتدت دعوة الشيعة في كل مكان ، فخرج عليه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب في الكوفة ، وثار في وجهه أهل حمص وأهل فلسطين ، وخرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ونشطت بقايا الخوارج وثار زعيمهم الضحاک بن قيس الشيباني ، واستولى على الكوفة عنوة بعد أن طرد

حاكمها الاموى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، ثم زحف على الموصل وافتتحها ، وانتشرت الفتنة في بلاد الحجاز أيضا ، واشتغل مروان بأخماد تلك الفن والثورات طوال أيام حكمه ، وأرسل قواده لائخمادها ومطاردة الثوار وانتصر على كثير منهم ، ولكنه لم يوجه العناية الكاملة لما كان يجرى في خراسان ، فوجدت الشيعة فيها بيئة صالحة لنشر دعواها ، واستطاع دعائها وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني ان ينتزعوها من الامويين مستعينين بالعصية القومية ، ومنتهزين انشقاق القبائل العربية ، ومنها خرجوا الى العراق واستولوا عليه ، وعلنوا الدعوة لبني العباس . وفي هذا الموضوع ، قال الدكتور فريد الرفاعي صحيفة ٧٥ المجلد الاول « والعصية العربية التي كانت من الاسباب التي اضمحل بها سلطان بني أمية قديمة في القبائل العربية : كانت في الجاهلية قبل الاسلام ، وكانت تضيق وتتسع بحسب الظروف والمناسبات ، فبينما نراها بين العدنانية والقحطانية وهو اوسع معانيها من الوجهة التاريخية العربية ، نراها بين ربيعة ومضر وهي قبائل عدنانية ، ونراها بين بني أمية وهاشم ، وقد يكون هذا من أضيق ميادينها ، وكانت هذه العصيات تشتد حيناً وتفتت حيناً . فلما جاء الاسلام ، ودخل الناس فيه أفواجا ، وتم له السلطان في جزيرة العرب الفيين القبائل وأزال ما في صدورهم من أحقاد وأزال كل أثر للعصية القديمة في نفوسهم وبقي أمر العرب كذلك الى عهد الخلفاء الراشدين ، وذلك راجع لاحالة إلى عوامل شديدة الاثر في نفوسهم ، كهيمنة الروح الدينية عليهم وكاشتغالهم بالفتح ، وما استتبع الفتح من غنائم ، وكحزم الخلفاء وحكمتهم وشدة الولاية وقسوتهم . فلما كان العصر الاموى ، واستقر الناس في الحواضر الاسلامية وشغلوا بعض الشيء عن الفتوح ، راجعتهم الشدنة القديمة

«فاخذ بعضهم يفتخر على بعض بما كان لا آبائهم من مجد في الجاهلية وبلاء في الاسلام ، وما لقبائهم من قوة وايد .»

الشيعة وأبو مسلم بخراسان :

تولى أمر خراسان في عهد هشام الثاني نصر بن سيار وكان ينتسب الى كنانة ومضر ، وكان الوالى قبله هو عبد الله القسرى وهو يمانى فكان ضلعه مع قومه وأهل عشيرته وقدمهم على غيرهم من وجوه العرب ، فلما جاء نصر الى تلك البلاد أعرض عن هؤلاء وحاجى عشيرته وقدمهم أيضا على غيرهم ، فحدث الانشقاق بين النزارية الذين يؤيدهم الوالى وبين اليمانيين وكان كبيرهم إذ ذاك هو جديع بن شبيب المعروف بالكرمانى ، ثم انشقت النزارية على نفسها فكانت ربيعة في جانب ، ومضر في جانب آخر ، وقد نشأ عن هذا الانشقاق أن قامت الحرب بين نصر والكرمانى ، وانتصر الكرماني على نصر وطرده من مدينة مرو حاضرة خراسان ، وهدم اليمانيون منازل المضرية وأصبحوا أعداء الحكم الاموى ، وهم الذين ناصروا الدعوة الشيعية في تلك البلاد وكانوا العضد الايمن لابى مسلم الخراسانى

توفى محمد بن على العباسى أمام الشيعة في سنة ١٢٥ هـ - ٧٤٣ م واوصى بالأمامة من بعده لابنه إبراهيم ، وفي ذلك الوقت توفى أيضا بكير ابن ماهان ، فأقام إبراهيم مكانه حفص بن سليمان المعروف بأبى سلمة الخلال وكان صهراً لبكير ، وذا منزلة رفيعة بين الكوفيين ، فاستطاع بنفوذه أن يكون عوناً ثميناً وسنداً قوياً للشيعة

كان ابراهيم الامام موقفاً حقاً في اختياره لأبى مسلم للقيام بالدعوة له ولا آل بيته في خراسان ، فقد كان شاباً نابهاً امتاز بالدهاء ، وسعة الخيلة ،

حازما وسياسيا ماهرا قديرا أتبع مع خصومه ومنافسيه القاعدة السياسية
« فرق تسد » فنجح نجاحا باهرا وأقام صرح الدولة العباسية في المشرق

هذا وقد اختلف المؤرخون في نسبه فقال بعضهم إنه عربي وقال
آخرون إنه فارسي ، وذهب بعضهم إلى أنه كردي ، وقد قال هو عن نفسه
« كفاك خبري عن نسبي » ، ويقول السير ولیم موير في هذا « إن أصل هذا
البطل على حداثة سنه غير معروف ، ولكن من المؤكد أنه ليس عربيا ،
وقد يكون أصله مولى لأحد وجوه العرب ، اتصل بيكير بن ماهان ومنه
تلقى أصول التشيع ، وفي سنة ١٢٥ هـ اتصل بمحمد بن عبد الله العباسي
ودخل في خدمة الاسرة وتفانى في الاخلاص لها ونشر دعوتها »

وجهه إبراهيم الأمام الى خراسان سنة ١٢٧ هـ في وفد من وجوهها
بعد أن خطبهم حاثا لهم على اتباعه والائتمار بأمره قائلا « اني قد رأيت أن
أولى الأمر هناك أبا مسلم لما جريت من عقله وبلوت من أماتته ، وأنا
موجهه معكم فاسمعوا له وأطيعوا ، وقد رجوت أن يكون هذا الذي يسوق
لنا الملك فعاونوه وكاتفوه ، واتهوا الى رأيه » ، ثم أوصى أبا مسلم وصية
ثمينة قال فيها :

« يا عبد الرحمن أنك رجل منا أهل البيت فأحفظ وصيتي . وانظر هذا
الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فأن الله لا ياتم هذا الأمر الا بهم .
وانظر هذا الحى من ربيعة فأتهمهم فى أمرهم ، وانظر هذا الحى من مضر
فأنهم العدو القريب الدار ، فأقتل من شككت فيه ، ومن كان فى أمره شبهة
ومن وقع فى نفسك منه شىء . وأن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا
فأفعل ، فايما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فأقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ
(وهو سليمان بن كثير) ولا تعصه ، وأن أشكل عليك أمر فأكتفبه منى . »

ويرى من هذه النصيحة مفتاح السياسة العباسية ومرامياها في خراسان وما هي الأسس التي سار على وفقها أبو مسلم، إذ نفذ الوصية تنفيذا دقيقا ولم يحد عن العمل بها قيد أنملة ومثل دور «فرق تسد» تمثيلا محكما. وفي سنة ١٢٨ هـ نزل أبو مسلم بخراسان، وأقام بقرية من قرى مرو يقال لها سفينج، وأعلن دعوته وهرع إليه الناس من كل حدب وصوب يلتفون حوله ويعاضدونه في دعواه، وفي شهر رمضان سنة ١٢٩ أعلن لبس السواد بين أنصاره واتخذ شعارا للعباسيين، وكان اللون الأسود هو لون العلم الإسلامي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأعلن الثورة على الأمويين، ولم ينته الشهر حتى اجتمع حوله قوات كافية استطاع بمعونتها أن يطلب إلى سليمان بن كثير الخزاعي كبير دعاة الشيعة أن يصلي بالناس صلاة عيد الفطر (١٥ يونية سنة ٧٤٧ م) متبعا لتقاليد تخالف تقاليد الأمويين في الصلاة، إذ بدأها قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة

كتب أبو مسلم بعد ذلك إلى نصر بن سيار يعلمه بخبره، ونجح في التفرقة بينه وبين رجاله، وانتقل هو وأنصاره من قريته إلى قرية أخرى وهي الماخوان من قرى مرو وأحكم تحصينها، وبلغ أنصاره إذ ذاك على قول بعض المؤرخين سبعة آلاف رجل، ولما رأى نصر أن الأمر خطير أرسل يطلب النجدة من الخليفة مخذرا إياه سوء عاقبه التواني قائلا

أرى بين الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فأن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جدث وهام
فأن النار بالعودين تذكي وأن الحرب أولها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري أيقاظ أمية أم نيام

لم ينهض مروان بقمع الفتنة وهي في مهدها بسبب اشتغاله بأخماد الثورات الأخرى كما تقدم ، واستطاع أبو مسلم أن ينتزع البلاد بمساعدة قواده ورسله من نصر الواحدة تلو الأخرى ، وفي جمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ ترك مركزه في الماخوان إلى مرو عاصمة الأمانة بعد أن حرض ابن الكرماني (وكان أبوه قد قتل وهو يحارب نصرا) على دخولها قبله و الاشتباك بنصر ، واتهم فرصة القتال بين الفريقين ودخل المدينة وهو يتلو « ودخل المدينة على حين غفلة » إلى آخر الآية الشريفة ، واحتل دار الأمانة وفر نصر هاربا ، فأرسل أحد قواده المسمى قحطبه بن شبيب وراه يقتفى أثره فطارده من مدينة إلى أخرى حتى مرض نصر ومات في ربيع سنة ١٣١ هـ ودخل قحطبة مدينة الري

بهذه الخطوات تم النصر لأبي مسلم واستولى على خراسان ، ومنها بعث عماله إلى جميع الولايات وأرسل قواده يمينا ويسارا وشمالا وجنوبا يفتحون البلاد وينزعونها من حكام الأمويين ، واستولى الحسن بن قحطبة على همدان ، وفتح هو وأبوه نهاوند والموصل ، ثم توغل قحطبة في بلاد العراق فقابله ابن هبيرة أميرها من قبل الأمويين قريبا من الكوفة ، وقبل أن يشتبك الفريقان في القتال توفي قحطبة وتولى القيادة بعده ابنه الحسن ، واستعر القتال ودارت دائرته على ابن هبيرة فانسحب إلى مدينة واسط ، ودخل الحسن الكوفة في المحرم سنة ١٣٢ هـ وسلم الأمر لأبي سلمة الخلال المعروف بوزير آل محمد متبعا في ذلك نصيحة أبيه عند وفاته تسلم أبو سلمة الأمر وأرسل الحسن وراء ابن هبيرة بعد أن أمده بقوات جديدة وقواد مدرين ليلحق به بواسطة ، ثم أرسل قوات أخرى

تفتح البلاد في سائر انحاء العراق ، وخرج هو بنفسه على رأس جيش صغير
وعسكر عند حمام اعين « على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة »

مروان الثاني و ابراهيم الامام :

كانت الشيعة تدعو الى آل البيت من غير تعيين فرد حتى لا يفتك به
الامويون ، وكان لا يعرف سر الدعوة إلا النقباء وزعماء الدعاة ، ولما اشتدت
الحركة ، واخذ الشيعة خطة الهجوم ، وقع كتاب مرسل من ابراهيم الامام
الى أبي مسلم يأمره فيه بمضاعفة الجهود والفتك بالعرب في يد مروان ،
فعرف منه السر ، وأرسل الى عامله بالبلقاء أن يسير الى الحميمة مقر الاسرة
العباسية ، ويقبض على ابراهيم ويسيره اليه . عرف ابراهيم مصيره فأوصى
بالأمر إلى أخيه عبد الله العباسي وطلب إلى أسرته أن تترك مقرها إلى
الكوفة . ولما تقابل ابراهيم مع مروان أمر بسجنه بخران ، ولبث في
السجن حتى مات مودة غامضة اختلف المؤرخون في وصفها

أما أسرته فقد جاءت الى الكوفة واستقبلها أبو سلمة ، وأنزها في إحدى
دورها ، وكنم أمرها عن سائر القواد أربعين ليلة ، ويقال إنه حاول في
أثناءها أن يغري أحد زعماء العلويين وهم جعفر الصادق بن محمد الباقر ،
وعبد الله بن حسن بن حسن ، وعمر بن زين العابدين ، بقبول الخلافة
متخطيا عبد الله أبي العباس ، ولما عرف القواد ذلك أسرعوا إلى أبي العباس
وسلموا عليه بالخلافة فسلم أيضا عليه بها أبو سلمة

قيام الدولة العباسية وسقوط مروان الثاني :

خرج أبو العباس عبد الله في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ ٢٨ نوفمبر
سنة ٧٤٩ م ومعه أخوته وأقاربه وأكابر الشيعة من الدعاة والنقباء

وأبو مسلم إلى الجامع الكبير، فصعد المنبر وألقى خطبة جاء فيها « يا أهل الكوفة
انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، انتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم ينفعكم
تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زمننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم
أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدكم أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا
فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح » فلقب بالسفاح لذلك ولم يستطع بسبب
مرضه إتمام خطبة العرش فجلس على المنبر ، وصعد عليه عمه داود بن علي
العباسي وأكمل الخطبة مرتجلا وكان بليغا فصيح اللسان قوى الحجة ، وقد
سرد في خطبته نقائص الامويين ، واستدل على أحقية بني العباس للخلافة
ومدح أهل خراسان ، ووعد أهل الكوفة المكافأة الحسنة . وبعد أن تمت
الخطبتان خرج السفاح إلى القصر وترك أخاه أبا جعفر بالمسجد ليأخذ
له البيعة على الناس واستمر به حتى جن الليل

خرج السفاح بعد ذلك الى المعسكر حيث كان أبو سلمة بجمام أعين
وترك عمه داود عاملا على الكوفة ، وكان مروان الخليفة الأموي يربط
بحران وحوله أنصار وجنود ، وتخضع لسلطانه بلاد كثيرة ، وكان قائده
الكبير ابن هبيرة لا يزال متحصنا ببلدة واسط ، فأرسل السفاح عمه الثاني
عبدالله بن علي لقتال مروان ، وأرسل جيشا آخر بقيادة الحسن بن قحطبة
للقضاء على ابن هبيرة ، وذهب عمه وتسلم القيادة من أبي عون الذي كان قد
انتصر على عبدالله بن مروان الأموي قبل ذلك في أغسطس سنة ٥٧٤٩ هـ .
خرج مروان من حران في جيش بلغ عدده مائة وعشرين الف مقاتل وعبر
الدجلة وتقدم لمقاتلة أعدائه وعند فرع من فروعها يسمى نهر الزاب التقى
الجيشان ، وبعد معركة عنيفة انتصر عبدالله بن مروان في ١١ جمادى
الآخرة سنة ٥١٣٢ هـ ٢٥ يناير سنة ٧٥٠ م

خسر مروان المعركة بسبب تخاذل جند الشام، وفر من الميدان إلى حران، واقتفى عبدالله أثره فخرج منها إلى قنسرين ومنها إلى حمص ومنها إلى دمشق، وكان يحاول أن يجمع جيشا جديدا لصد أعدائه فلم يفلح، واستمر عبدالله يطارده حتى أتى دمشق ودخلها عنوة وقتل أميرها الأموي أما مروان فقد فر إلى الأردن ومنها ذهب إلى فلسطين وتركها إلى مصر، واستدعى السفاح عمه وأمره أن يعين صالح بن علي ليلحق بمروان ويقضي عليه، فاقتفى أثره وقابله في قرية بوضير على الضفة الغربية للنيل وهي قرية من الواسطي وانتصر عليه وقتله في آخر سنة ١٣٢ هـ وبموته مات آخر خلفاء بني أمية وماتت معه الدولة الاموية، وكان مروان من أشجع الخلفاء وأقدرهم. لم يبق بعد موته خارجا على السفاح غير ابن هبيرة وكان متحصنا بواسطة كما تقدم وسار إليه الحسن بن قحطبة وحاربه حربا عوانا، ولما طال أمر القتال أرسل الخليفة أخاه أبا جعفر في جيش آخر وضيق عليه الخناق، ولما بلغ ابن هبيرة خبر قتل مروان طلب الصلح، ودارت المخابرات بينه وبين أبي جعفر، واتفق الفريقان وسلم ابن هبيرة بعد أن حصل على عهد أمان من أبي جعفر ولكنه نقض عهده وقتله، وقتل معه عددا من وجوه أصحابه، وبموته تم الأمر للسفاح وصفاله الجو

مميزات الدولة العباسية (١٣٢-٦٥٦ هـ - ٧٥٠-١٢٥٨ م)

يقول السير ولیم مویر « إن الدولة الإسلامية امتازت في عهد الخلفاء الراشدين والامويين بتماسك أجزائها ومتانة وحدتها ولكنها لم تكن كذلك في عهد العباسيين إذ لم تعترف إسبانيا بسلطانها ولم تقر لها بسيادة. وكانت سلطتها في شمال أفريقيا اسمية أكثر منها فعلية. وأما في المشرق فقد كانت سلطتها قوية فيه، ولكن تناثرت أجزاؤها بعد عصر المعتصم، وظهر فيها

حكام واسر جديدة ، وكان لكل منها تاريخ قائم بذاته منفصل عن غيره ، ومع ذلك قد ظلت الدولة العباسية دولة الخلافة الاسلامية من بدء قيامها الى سقوطها »

فقد العرب في أيام الدولة العباسية صفاتهم الاولى مدنية كانت أو عسكرية تلك الصفات التي كانت سببا في نشر الاسلام ورخاء الدولة الاسلامية ، وانغمسوا في الترف وتعالوا على غيرهم من الشعوب ، وتفرقوا الى شيع وأحزاب ، وأحيوا العصبية القديمة وراعوا مصالحهم الذاتية وآثروها على المصلحة العامة ، وقلت فيهم الغيرة الدينية ولم يبق لهم مطمح أن يكونوا فتاح العالم كما كانوا قديما ، وانصرف العباسيون عنهم الى غيرهم من الأمم والشعوب من فرس وأترك وقدموهم عليهم ، والى الفرس والخراسانيين يرجع الفضل في إقامة الدولة العباسية ، وما لبث أن اتخذ خلفاء العباسيين وزراءهم وقوادهم وحرصهم وبطانتهم من الفرس والترك والموالي وأهملوا العرب ، وبذلك اختفت الأستقرابية القديمة وحلت محلها طبقة من الموظفين على رأسها الوزير الأكبر الذي كان يمثل الخليفة في المظاهر العامة ، وظهر بجانب الوزير موظف آخر وهو السيف وهو مظهر من مظاهر الحكومات الفارسية القديمة وكان غير معروف في عهد الدولة الاموية . ولعب المنجمون دورا مهما وكان رأيهم الأعلى في شئون الدولة حتى في الحملات العسكرية . ونقل العباسيون نظام البريد ورسله عن الفرس والبابليين ، وكان هؤلاء الموظفون عيون الخليفة في كل اقليم وولاية من ولايات الدولة

كان لنفوذ الفرس في الدولة العباسية أثر كبير في أخلاق العرب ، وفي نشر الثقافة العامة ، والتسامح الديني ، والبحث العلمي الحر



بحر بنطس

دولة الروم

بحر الروم

مصر

النوبيا

الهند

بحر القفق

المدينة المنورة

البحر

بلاد الهند

خراسان

فغانة

اشروسنه

سمرقند

بخارى

مروا

بلخ

مرو

ههراة

كجستان

كردستان

مكران

بلخ

مرو

ههراة

كجستان

كردستان

مكران

البحر

طبرستان

الجزيرة

اصفهان

اصطخره

شيراز

فارس

اصطخره

شيراز

فارس

اصطخره

شيراز

فارس

جرجان

فوس

فهمستان

كرمان

فارس

اصطخره

شيراز

فارس

اصطخره

شيراز

فارس

اصطخره

شيراز

فارس

مروا

بلخ

مرو

ههراة

كجستان

كردستان

مكران

بلخ

مرو

ههراة

كجستان

كردستان

مكران

بلخ

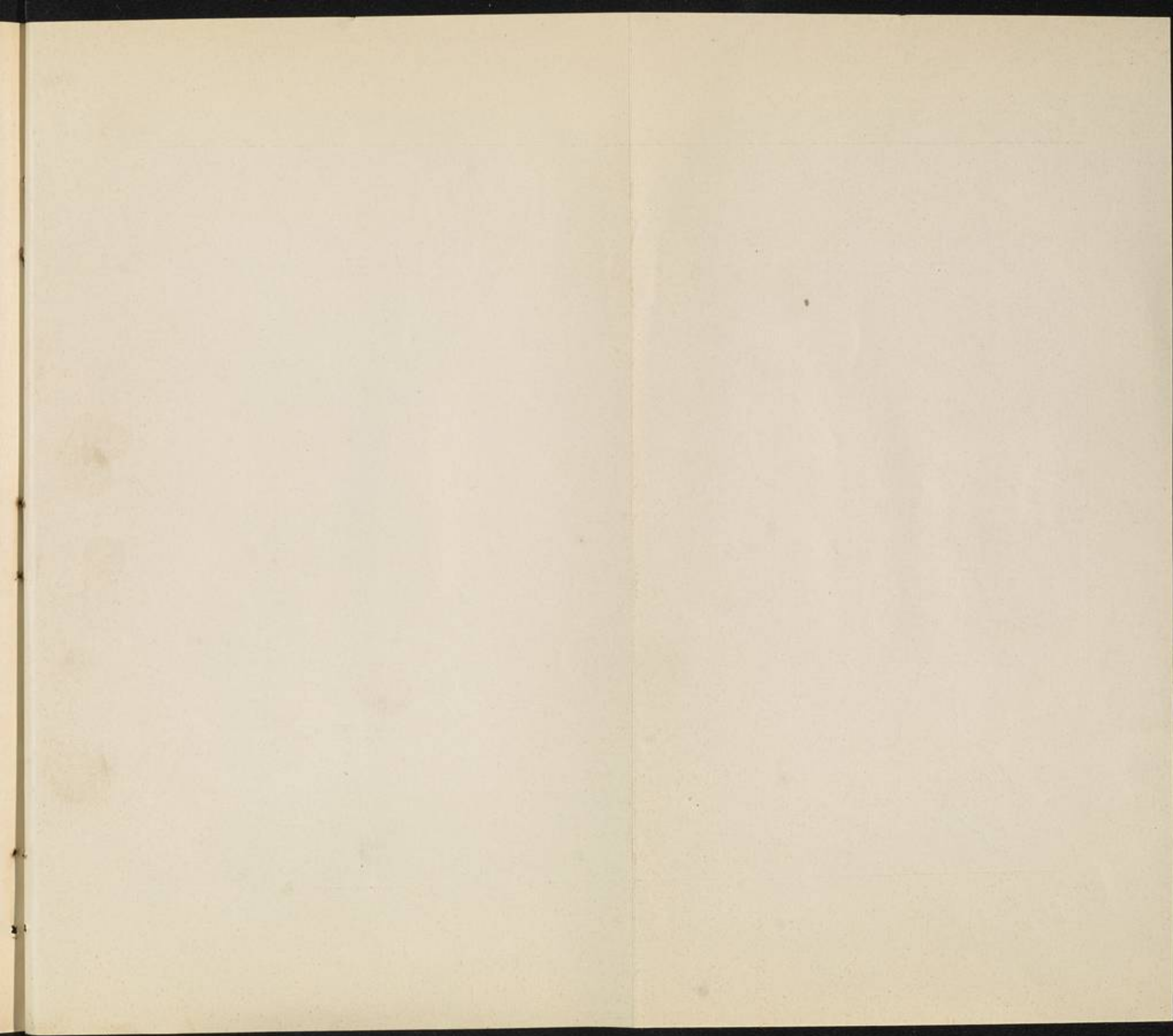
مرو

ههراة

كجستان

كردستان

مكران



كانت الدولة العباسية دولة عسف شديد وخيانة ونكث للعهود .
قال الخضرى بك « ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم . وهذا
على خلاف ما كانت عليه العرب فى جاهليتهم ، وفى بدء إسلامهم وفى
فتوحهم ، فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم »

وقال مؤرخ اخر « أعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خداع ودهاء
وغدر ، وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة »



الْبَيْتُ الثَّانِي

عصر السفاح والمنصور

١- أبو العباس عبد الله السفاح

(١٣٢-١٣٦هـ) (٧٤٩-٧٥٤م)

ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بالحميمة، وهي مقر أسرته كما تقدم في سنة ٥١٠هـ، وتولى الحكم في سنة ١٣٢هـ، وقد قابلته المصاعب من كل جانب، وامتلاً زمنه بالثورات والاضطرابات، إذ كان لا يزال في الدولة الإسلامية قواد وولاية ضلعهم مع الأمويين. وقامت الثورات في سورية والجزيرة، وكان ابن هبيرة لا يزال متحصناً في واسط، وأبي حاكم السند والهند أن يعترف بخلافته، وهددت الدولة البوزنطية البلدان والثغور الإسلامية، فشمروا أبو العباس عن ساعد الجد، ونهض بياس شديد يكافح المصاعب ويغالبها حتى تغلب عليها، ووطد دعائم ملك أسرته بفضل ما استعمله من القسوة وما سفكه من الدماء، وكان موقفاً في استخدام عمال وولاية من أعمامه وبنينهم، وقد اخلصوا له الاخلاص كله، ونفذوا سياسته تنفيذاً محكماً، وبهم طارد الأمويين ومن ناصرهم مطاردة أهلكتهم وفرقت عصبيتهم، وأراحت العباسيين من شر انتفاضهم، ولقد كان سفاكاً للدماء، ناكثاً للعهود، غادراً، فأنتقده المؤرخون انتقاداً مرا، وصوروا لنا عصره بأبشع الصور، وأظلم الاوصاف

ترك الكوفة بعد البيعة واتخذ مدينة الأنبار عاصمةً للملكة، وفي ضاحية من ضواحيها بني مدينة جديدة وسماها الهاشمية، ثم عين حكاماً

من أنصاره وأقاربه لأقاليم الدولة المختلفة ، وقد اشتهر من هؤلاء العمال خمسة رجال كان لهم النفوذ والسلطان الاكبر في تأسيس الدولة ، وهم (١) أبو مسلم الخراساني بالمشرق (٢) أبو جعفر المنصور في الجزيرة وارمينية والعراق (٣) عبد الله بن علي بسورية ومصر (٤) داود بن علي في الحجاز واليمن (٥) سليمان بن علي في البصرة وملحقاتها

علاقته بالأمويين :

استعمل السفاح هو وأعوانه مع الامويين من القسوة وسفك الدماء ما لم يشهد التاريخ مثله في دولة تقوم على أنقاض أخرى ، فانه أعمل السيف في غير هواة في الامويين وأنصارهم ، ونسج على منواله عماله في أنحاء الدولة وإليك شيئا من خبر تلك المذابح الشنيعة ، فقد روى أبو الفرج الاصبهاني في كتابه الاغانى قال : كان أبو العباس جالسا في مجلسه وحوله نفر من بني هاشم وبنو أمية ، فدخل الحاجب فقال يا أمير المؤمنين بالباب رجل حجازي أسود متلثم يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف الا يحسر اللثام عن وجهه حتي يراك ، قال هذا مولاي سديف ، يدخل ، فدخل فلما نظر الى أبي العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه ، وقال شعرا منه :

لا يغرنك ماترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع الصوت حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا
فألتفت اليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد كان بين الحاضرين وقال قتلنى يا شيخ ، فأمر به السفاح فقتل هو ومن معه

أما عامله عبد الله بن علي ، فيقول ابن خلكان أنه أغمد الخناجر فيمن سان بالثام من أسرة خلفاء بني أمية ، ولم يفلت منه أحد إلا من كان رضيعا ،

ثم عمد إلى قبور بني أمية في دمشق فنبشها، وأخرج ما فيها من عظام وأحرقها وذراها في الريح، وروى عنه فريق من المؤرخين خبر هذه الحادثة المروعة وهي أنه دخل عليه شبل بن عبد الله مولى بني هاشم الشاعر، وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلا، كان قد دعاهم إلى مأدبة بعد أن أمنهم وأنشد شعرا منه :

ولقد ساءني وساء قبيلي قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والأتعاس
وإذ كرن مصرع الحسين وزيدا وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحرّان أمسي رهن رمس في غربة وتناسي

فأمر بهم عبد الله فضربوا بالعمد حتى قتلوا، وبسط النطوع عليهم، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا
وقتل سليمان بن علي مع أنه كان أشفق الناس على بني أمية كل من
عثر عليه من الأمويين في البصرة، ويقال إنه أحضر يوما جماعة من
أشرافهم، وعليهم الثياب الموشاة وقتلهم، ثم أمر بهم فجروا بارجلهم فلقوا
في الطريق فأكلهم الكلاب، واستمر يطارد الأمويين حتى دخل عليه عمرو
ابن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان واستماله إليه بخطبة رقيقة، منها
« أن الحرم اللواتي أنت أقرب الناس إليهن معنا، وأولى الناس بهن بعدنا،
قد خفنا لحوفنا ومن خاف خيف عليه »، فتأثر سليمان تأثرا شديدا،
وأمن الرجل ومن معه، وكتب إلى السفاح يطلب منه الأمان لهم، فأجيب
طلبه وكتب الخليفة إلى عماله بوقف المطاردة والتقتيل

ولم تكن أعمال باقي الولاة أقل قسوة وأخف شدة مما ذكرنا، فان داود
ابن علي قتل من ظفر به من بني أمية بمكة والمدينة، وكذلك كانت أعمال

يحيي أخى السفاح بالموصل ، فانه غدر بالناس غدرا شنيعا وقتلهم قتلا ذريعا ، وكذلك ضرب العباسيون جماعة الخوارج بعمان ضربة قاضية ، واستطاع زياد أمير سمرقند اخضاع صغد وفرغانه ، بعد أن قتل خمسين الفا وأسرعشرين الفا . هذا ولم تكن الشدة مقصورة على بني أمية ، بل شملت من ناصر العباسيين وكان له فضل في اقامة ملكهم ، فانه لما تم الأمر لهم شكوا في اخلاص أبي سلمة الخلال وزير آل محمد ، واتهموه بأنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم الى آل علي بن أبي طالب ، فأرادوا قتله ، ولكنهم بعثوا لمشاورة ابي مسلم قبل الأقدام على هذا العمل الجريء ، وبعث السفاح أخاه أبا جعفر الى خراسان لمقابلة أبي مسلم واستشارته في ذلك ، وبعد أن تمت المقابلة أرسل أبو مسلم رجلا قتل أبا سلمة وهو خارج من عند السفاح ، وأشاعوا أن الخوارج قتلوه . وقتل أبو مسلم عماله بفارس ، وقتل كبير الشيعة في خراسان وهو سليمان بن كثير ، وكان هذا القتل لآتفه الأسباب وأوهاها ، وغضب أبو جعفر غضبا شديدا لجرأة أبي مسلم وأسرّها في نفسه إذ القتل وقع أمامه ولما عاد الى الخليفة أخبره بخطورة شأنه في خراسان ، وكان من رأيه الفتك به أيضا ، ولكن الخليفة تريث في الأمر ولم يقدم على ذلك في أيام خلافته خوفا من خروج أهل خراسان عليه

علاقته بالدولة البوزنطية :

لم تسلم الدولة في عصره مع الأحتياطات الشديدة التي أخذها من خطر الغزو الأجنبي ، فقد أغارت الدولة البوزنطية على أطرافها ، واستولت على نغر ملطية وكليكية ، وكانت تقتل المسلمين تقتيلا على يد قائد أرمني يسمى كوشان ، وقد استطاع هذا القائد أن يدخل أراضوم وقتل رجالها ، وهتك أعراض نساءها ، وساق الغنائم الى ملك الروم

المنافسة بين أبي مسلم وأبي جعفر في عهده :

أراد أبو مسلم أن يتولى أمر الحج عام ١٣٦ هـ ، فكتب الى السفاح يستأذنه في ذلك فأذن له ، ولكنه أوعز الى أخيه أبي جعفر أن يطلب امارة الحج حتي لا يأخذها أبو مسلم ، ولما طلبها أبو جعفر أجابه اليها ، واعتذر لأبي مسلم ، وخرج الاثنان للحج في عام واحد ، وأظهر أبو مسلم من الكرم وقوة الجاه وكثرة الأتصار في أثناء الحج ما حرك مواطن الغيرة والحسد في قلب أبي جعفر ، وجعله يتدبر الأمر ، ويتخذ العدة للفتك به ، والخلاص من خطر تألبه

اصلاحاته الداخلية وموته :

قام السفاح ببعض اصلاحات داخلية في أنحاء دولته ، فإنه أمر بوضع منارة بين الكوفة ومكة لتهدى المسافرين في تلك الفيافي الواسعة ، وأقام بعض الحصون في الطريق لحماية الحجاج ، وأمر بمسح الارض وزرعها ونظم طرق الجباية ، وهو أول من استعان بالوزراء ، فإنه استوزر أباسلطة الخلال ، ولما فتك به استوزر خالد بن برمك جد البرامكة ، الذين ظهر مجددهم في عهد هارون الرشيد ، وكان خالد من رجال الدعوة العباسية الذين خدموها خدمات جليلة الشأن في بدء تأسيسها ، وهو من أبناء الفرس ، وأول من اعتنق الاسلام من أهل بيته ، وقد اشتهر بالحزم والكرم وسعة الحيلة وحسن التدبير

اختار السفاح للخلافة بعده أخاه أبا جعفر وجعله ولي عهد المسلمين في سنة ١٣٦ هـ ، واختار بعد أبي جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن علي ، وكتب العهد بذلك وصيره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ،

ولاية العهر

ودفعه الى عيسى بن موسى ، وقد ارتكب السفاح بفعله هذا الغلظة الشنيعة
التي سبق بها في عهد بني أمية وهي تولية اثنين العهد ، « وكانت من أسباب
ما أصاب بني أمية من الخلاف والفرقة »

مرض السفاح بعد ذلك بالجدري ، وتوفي بالأنبار في ١٣ ذى الحجة
سنة ٥١٣٦ هـ ، ٩ يونيه ٧٥٤ م ، وقد ترك ابنا يسمى محمد وبتنا تسمى ريطة
وهي التي تزوجت بأبن عمها محمد المهدي

قد انتقد المؤرخون السفاح انتقادا شديدا ، لقسوته وغدره ونكرانه
للجميل ، ووصفه المؤرخ الشهير « ويل » بقوله « لم يكن أبو العباس مستبدا
متوحشا فحسب ، بل كان خائنا متعمدا ، وغادرا ناكرا جميلا من
أحسن اليه »

ولكن لعله وهو يعلم أنه يؤسس دولة جديدة كثيرة الاعداء والخارجين
أسرف في اخذ حذره ولم يبال أن يخيس بعهدده اذا أوجس في نفسه خيفة
من أمنه



٢ - أبو جعفر المنصور

(١٣٦-٥١٥٨) (٧٥٤-٧٧٥ م)

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي، ولد بالحميمة سنة ١٠١ هـ، ولما انتقل أخوه إلى الكوفة انتقل معه، وكان عضده الأقوى وساعده الأشد في تدبير الملك، ولقد كان أميراً على الحج عند موت أخيه، فأخذ له البيعة ابن أخيه عيسى بن موسى، وكتب إليه يخبره بوفاة السفاح والبيعة له، فأسرع بالعودة إلى مدينة الكوفة، وتسلم زمام الأمور وتلقب بالمنصور وقد اكتتفته المصاعب الداخلية والخارجية، ولكنه قابلها بالعزم والحزم، وتغلب عليها الواحدة بعد الأخرى بمهارة وكياسة خلدت اسمه بين كبار السواس والأمراء، ويعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، وهو أول خلفائها العظام، وإلى حسن سياسته وبعد نظره، ترجع القوة والشهرة التي نالتها أسرته في الشرق والغرب، وذلك للأعمال الخالدة التي قام بها في الدين والسياسة، وقد استطاع في وقت قصير أن يخمّد الثورات الداخلية، ويتخلص من منافسيه وخصومه الألداء. الواحد بعد الآخر، ثم التفت بعد ذلك إلى سياسة العمران والأشياء فوطد دعائم الملك، ونظم أحوال الدولة المالية تنظيماً اقتصادياً متيناً

الثورات والفتن الداخلية في عهده :

أولاً : خروج عبد الله بن علي :

غضب عبد الله بن علي عم المنصور عندما علم بأمر البيعة للمنصور دونه، وكان يطمع في الخلافة بعد السفاح لما قام به من الأعمال الخطيرة الشأن في تأسيس الدولة العباسية، وكان المنصور يعلم هذا الميل عنده،

ولذلك استشار أبا مسلم فيما يجب أن يعمل فاخذ أبو مسلم هذه المسألة على عاتقه، ولما أعلن عبد الله الثورة على الخليفة في صفر سنة ١٣٧ هـ (نوفمبر سنة ٧٥٤ م) وكان واليا على سورية، خرج إليه أبو مسلم في جيش مدرب وزحف عليه حتى لحقه بمدينة نصيبين، ويذكر السير وليم موير أن عبد الله لما علم بزحف أبي مسلم قتل الخراسانيين من جنده، وكان عددهم نحو سبعة عشر الفا، وذلك خوفا من تألبهم عليه إذا رأوا أبا مسلم، وقد استطاع أبو مسلم أن يخرج عبد الله من موقعه الحصين ويحتله، وذلك أنه أظهر أنه يريد الزحف على الشام فخاف جند الشام على أسرهم وأموالهم، وطلبوا إلى عبد الله أن يترك مكانه ويسير إلى الشام، ولما فعل ارتد أبو مسلم واحتل الموقع الحصين كما تقدم، ودار القتال بين الفريقين وكان سجالا ودام نحو خمسة أشهر كانت نهايتها أن انتصر أبو مسلم على خصمه واضطره إلى الفرار، واستولى على معسكره وأمن الناس، ولم يقتل أحدا، وأمر بالكف عنهم

فر عبد الله هو واسرته إلى مدينة البصرة، ونزل عند أخيه سليمان بن علي وكان واليا عليها، وظل محتفيا مدة حتى علم بخبره أبو جعفر المنصور فأرسل في طلبه فأحضره إليه سليمان سنة ١٣٩ هـ، فأمر بحبسه وقتل بعضا ممن كان معه، ونفى بعضا إلى خراسان، وظل عبد الله سجينا حتى مات في سجنه سنة ١٤٧ هـ، فكانت عاقبة هذا القائد عاقبة محزنة بعد أن

خدم الدولة خدمات عظيمة كما مر بنا

ثانيا: سقوط أبي مسلم الخراساني:

كان أبو مسلم من قواد الدولة العظام، والى علو همته وحزمه يرجع الفضل في القضاء على سلطان الامويين في خراسان والعراق كما بينا سابقا، وكان أبو جعفر يحقد عليه لعلو منزلته، ويخشاه لخطر شأنه، وكان يتربص

الفرصة للخلاص منه ، بعد أن استعان به في الخلاص من المنافسين الآخرين ، وقد جاءت تلك الفرصة عقب موقعة نصيبين ، فإن الخليفة أرسل رسولا من قبله يحصى الغنائم التي جمعها من معسكر عبد الله ، فغضب أبو مسلم غضبا شديدا ، وكاد يفتك بالرسول ، وصمم على الرحيل الى خراسان وهي حصنه المنيع ، وله فيها أتباع وأنصار أقوياء ، ولما علم المنصور بذلك بذل جهده ليثني أبا مسلم عن عزمه ، وكتب اليه يعرض عليه ولاية الشام ومصر حتى يبعده عن خراسان، ولكنه اعتذر عن قبول هذا المنصب الجديد وأخذ في تنفيذ عزمه ، فعمد المنصور الى الدهاء وكتب اليه كتابا رقيقا ، وأرسله مع عيسى بن موسى ، وأوصاه أن يكلم أبا مسلم باللين ويجزل له الوعود ويرغبه ويمنيه بجميع وسائل الأغراء . فخضع أبو مسلم واطمأن لوعود الخليفة ، وحول وجهه عن خراسان وقصد المنصور وكان ينتظره بالمدائن ، وأعد له الخليفة استقبالا عظيما حتى يزيد في طمأنينته ، ووصل أبو مسلم ، وقضى ليلة بالمدائن استراح فيها من متاعب السفر بعد أن قابل الخليفة ، وفي اليوم الثاني استدعاه المنصور ، وكان قد أعد له كميناً يخرج لقتله عند إشارة متفق عليها ، ثم أخذ يؤنبه على ما ارتكبه من المخالفات ، وصفق فخرج أربعة من الحراس من وراء الستار وهجموا عليه وقتلوه سنة ١٣٧ هـ ٧٥٥ م ، ولما بلغ منعاه جنده هاجوا واستلوا السيوف واعتزموا الأخذ بثأر واليهم ، ولكن المنصور استرضاهم بالمال ، واقنعهم بخيانة أبي مسلم وفساد طويته فانصرفوا راضين ، وبقتله أمن المنصور شر أقوى منافسيه ، وشعر لأول مرة أنه أصبح الحاكم الحقيقي لدولته ، وقبل أن نظوى صحيفة هذا القائد الكبير لا بد لنا ان نقول كلمة قصيرة عن أخلاقه ومطامعه

كان أبو مسلم كبير النفس ايبا، طموحا الى المعالي، اتصف بصفات
أكابر القواد، ولكنه كان سفاكا للدماء محبا للانتقام، وقد ذكر بعض
المؤرخين أنه قتل نحو ستمائة ألف نفس، وكان محبوبا بين قومه لسخائه
وكرمه، متصفا بالحزم والكتمان، فقد جاء في كتاب المحاسن والمساوى
للبهقي مانصه: « قيل لأبي مسلم صاحب الدولة: بأي شيء أدركت هذا
الأمر؟ فقال: ارتديت بالكتمان، واتزرت بالحزم، وحالفت الصبر،
وساعدت المقادير، فأدركت ظني وحزت حد بغيتي. »

قامت ثورة في الجزيرة وفارس في سنة ١٣٨، إذ قام أهل فارس
بقيادة سونبادة المجوسى للأخذ بالثأر لمقتل أبي مسلم، واستطاع الثوار أن
يستولوا على البلاد ما بين الرى ونيسابور، وقتلوا الرجال وسبوا النساء،
وقام الخوارج بالثورة في بلاد الجزيرة ولكن المنصور أرسل قواده
لأخضاع الثورتين وتمكنت جنوده من القضاء على الثوار، وأعيد الأمن
والسلام إلى نصابه

ثالثا: ثورة الراوندية سنة ١٤١ هـ

خرج المنصور حاجا في سنة ١٤٠ هـ، وبعد أن أدى فريضة الحج زار
بيت المقدس، وسار من فلسطين إلى سورية ورجع منها إلى الجزيرة
ولما عاد إلى مقر ملكه، هددته ثورة خطيرة، قام بها فريق الراوندية
وهم جماعة من أهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح، ويزعمون أن
روح آدم حلت في عثمان بن نهيك قائدهم، وأن ربهم الذى يطعمهم
ويستقيهم هو أبو جعفر المنصور، وأن الهيثم بن معاوية هو جبريل،
وأثوا قصر المنصور في الهاشمية، فجعلوا يقولون هذا قصر ربنا ويطوفون

به فأرسل المنصور إلى رؤسائهم، وقبض على مائتين منهم وسجنهم، فغضب الباقي وهجموا على السجن وأخرجوا أصحابهم، فخرج المنصور بنفسه لاختاد الثورة، وكاد يقتل لولا أن أنقذه القائد العظيم معين بن زائدة الشيباني، وجاءت قوات الجيش وحملت على الثائرين وقتلتهم جميعا

رابعاً: الثورة في خراسان وطبرستان (١٤١ - ١٤٣ هـ)

سار عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي والى خراسان سيرة رديئة اغضبت المنصور، فأرسل إليه أحد قواده المشهورين وهو حازم بن خزيمه وأرسل معه ابنه المهدي وكان في العشرين من عمره، ولما اقتربا من البلاد هب أهلها وثاروا في وجه حاكمهم وقبضوا عليه، وأرسلوه إلى الخليفة هو واتباعه وابنه فأتقمت المنصور منه وقتله، وعذب أتباعه ونفى ابنه إلى جزيرة في البحر الأحمر

سارت الجيوش بعد ذلك إلى طبرستان، وكان حاكمها قد ثار على حكم المسلمين، ولكن القوات الإسلامية تغلبت عليه، وفتكت بالثوار فتكا ذريعا

هدأت الأحوال بعد ذلك في أنحاء الدولة، وخرج المنصور حاجا على حسب عادته، ولكنه فوجيء بخروج محمد و ابراهيم ولدى عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب واليك البيان

خامساً: ثورة العلويين سنة ١٤٤ هـ

عاش العلويون، وهم أبناء الحسن وأولاد عمهم الحسين، عيشة هادئة في المدينة المنورة بعد مأساة كربلاء، ولم يتدخلوا في الأمور السياسية إلا

قليلًا في عهد الامويين ، واقتصروا في أعمالهم على الأمور الدينية ، والقيام ببعض الأعمال التجارية ، ولما قام أهل الشيعة يدعون الناس إلى الالتفاف حول أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشترك هؤلاء في الدعوة ، بل تركوها تجري مجراها الطبيعي ، وعاش معهم في المدينة أبناء الخلفاء الراشدين وأبناء الزبير وباقي الصحابة رضوان الله عليهم ، وصاهروهم وامتزجوا بهم وأصبح لهم عصبية قوية ، وكان أهل المدينة يجاملونهم ، وينظرون إليهم نظرة عطف وأكبار ، فلما تأيدت الدعوة الشيعية ، واستأثر العباسيون بالخلافة دون بني عمهم ، أدرك هؤلاء وأنصارهم ومن يلتفون حولهم أن العباسيين خدعهم ، فحفظوها لهم وأخذوا يتربصون الفرصة للخروج عليهم ، ولما تولى المنصور الخلافة رأى أنه لا يتم له الأمر ولا يصفو له الجو إلا إذا تخلص من هؤلاء أيضا كما تخلص من منافسية الآخرين اشتهر من العلويين في عهده عبد الله بن الحسن وولده محمد الملقب بالنفس الزكية و ابراهيم ، واشتهر أيضا جعفر الصادق ، وهو من نسل الحسين ، وكان الامام في نظر الفرقة الامامية ، ولكنه رضى بما تم ولم يحرك ساكنا ، وكان يوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة منتظرا الفرصة المناسبة للخروج ، أما النفس الزكية فكان قد بويع بالخلافة من بني هاشم في أواخر عهد الامويين ، وكان أبو جعفر من الذين بايعوه إذ ذاك ، ولما قامت الدولة العباسية قعد عن البيعة للسفاح مع أن بني هاشم قد بايعوه جميعا ، وكان ابو جعفر هو الذى يأخذ البيعة لآخيه في الحجاز

تخلف النفس الزكية هو وأخوه ابراهيم عن البيعة للمنصور ، وشعر الخليفة أنهما مصدر خطر عظيم يخشى منه ، وأخذ ينتحل المعاذير للفتك بهما ، وأمر بمراقبتهما وبث العيون والأرصاد للقبض عليهما أينما وجدا ، وأخذ عمله يطار دون أسرهما فسجنوا أباهما وعذبوا الباقي عذابا أليما ، فلم

يحد محمد بدا من الظهور بعد أن اتفق مع أخيه إبراهيم على الظهور
والمطالبة بالخلافة

ظهر محمد بالمدينة في سنة ١٤٥ هـ ، ودعا لنفسه بالخلافة ، فالتف حوله
أنصار كثيرون وبايعوه . وأقى أبو حنيفة ومالك بصحة البيعة ، واستطاع
محمد أن يقبض على حاكمها وزج به في السجن ، ووصلت الأخبار إلى
أبي جعفر فكتب إليه يؤمنه ويرغبه ، ^{والمنهج} وأسرع إلى الكوفة ليرعى أحوالها
بنفسه لأن أهلها شيعة العلويين ، وأغلق أبوابها حتى لا يخرج منها أحد
ولا يدخلها أحد

تواترت الرسائل بين الفريقين ، وكتب أبو جعفر إلى محمد كتابا طويلا
جاء فيه : « ولك عهد الله وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تبت
من قبل أن أقدر عليك أن أومنك على نفسك وولدك وأخوتك ومن
بايعك وتابعك وجميع شيعتك ، وأن أعطيك ألف الف درهم ، وأن أنزلك
من البلاد حيث شئت ، وأقضى لك ما شئت من الحاجات ، وأن أطلق من
سجن من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتبع أحدا منكم بمكروه ، فإن
شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذك من الميثاق والعهد والأمان
ما أحببت والسلام »

فكتب إليه النفس الزكية جوابا طويلا جاء في آخره ما يلي « ولك
عهد الله أن دخلت في بيعتي أن أومنك على نفسك وولدك ، وكل ما أحببته
إلا حدا من حدود الله ، أو حقا لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك في
ذلك ، فأنا أوفى بالعهد منك ، وأحرى لقبول الأمان ، فأما أمانك الذي
عرضت علي فأى الأمانات هو ؟ أأمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله
ابن علي ، أم أمان أبي مسلم ؟ والسلام »

دارت مكاتبات أخرى بينهما ، ولم تنته الى اتفاق ، فأرسل الخليفة جيشا عظيما على رأسه ابن أخيه عيسى بن موسى لقتاله وزحف على المدينة ، وكان محمد قد أساء اختيار موقعه الحربى ، ولما اقترب قائد المنصور من المدينة ذعر أهلها وتركوا محمدا الانفرا قليلا منهم ، ودار القتال بين الفريقين وانتهى بقتل محمد بعد أن أظهر بسالة عظيمة فى القتال ، وكان ذلك فى ١٢ رمضان سنة ٥١٤٥ هـ ودخل عيسى المدينة وانتقم من أهلها ، وأرسل رأس محمد الى أبى جعفر وقطع الهبات والصدقات التى كانت ترسل اليها ، وظلت موقوفة حتى أعادها المهدي بن المنصور فى أيام خلافته

لم يبق أمام أبى جعفر الا أخضاع ابراهيم وكان ابراهيم قد أظهر الدعوة لآخيه فى مدينة البصرة ، وجمع حوله عددا كبيرا من الانصار ، وعاضده علماء الدين ، وكان قد اتفق مع أخيه على رفع راية العصيان فى يوم واحد ، ولكنه تأخر عن ذلك بسبب مرضه وبذلك استطاع عيسى بن موسى أن يلحق به بعد أن فرغ من قتال محمد ، وكان قد استولى على دار الأمانة ، وهزم قوات الخليفة ، وأخذ ما فى بيت المال ، ووزعه بين أتباعه وجنده ، واستولى الثوار من أتباعه على فارس والاهواز وواسط ، ولما بلغ المنصور خبره خرج إلى الكوفة كما تقدم ، وأمر قائده بالأسراع بالزحف لملاقاة ابراهيم قبل أن يصل الى الكوفة ، والتقى الجيشان ، وهناك كما ورد فى ابن خلدون فى الصحيفة الخامسة من الجزء الرابع «على شواطئ دجله عند مكان يسمى باخرى يبعد عن المدينة بستة عشر فرسخا ، حدثت معركة دموية بين الفريقين ، انتصر ابراهيم فى مبدئها ولكنها انتهت بخذلانه وقتله ، وتفرق أنصاره فى ذى القعدة من السنة عينها . » وأرسل عيسى رأس ابراهيم الى المنصور فكان فرحه بالانتصار عظيما جدا ، وثأر لنفسه من أهل المدينة والبصرة وقتل كثيرا من أهل المدينتين ووجوههما ، وسجن الامام

أباحيفة وجلده ثم شرد أتباع العلويين وقضى على معظمهم بالتقتيل والتعذيب .

تأسيس بغداد سنة ١٤٥ هـ (٧٥٠ م)

كان أبو جعفر قد اتخذ مدينة الهاشمية مقرا لخلافته ، ولكنه كان يرغب في الابتعاد عن الكوفة ، ولذلك أخذ يبحث عن موضع جديد يتخذه عاصمة لدولته ، ولما انتهى الى موضع بغداد استقر رأيه على بناء المدينة ، ووضع حجر أساسها بيده وهو يقول « بسم الله والحمد لله وله الملك كله ويهب الملك لمن يشاء من عباده »

وموقع بغداد موقع جميل ، إذ تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة ، والمواصلات بينها وبين الخليج الفارسي سهلة ، وهي مكان وسط بين بلاد العرب والشام وأرمينية وبلاد المشرق ، وكانت تشرف على الكوفة ، وواسط والبصرة ، وقد بذل المنصور جهده في تجميلها وجعلها عروس المدائن فبناها ، مستديرة الشكل ومد إليها الأنهار والجداول ، فصارت تجرى في الشوارع والدروب صيفا وشتاء ، ثم بنى في وسطها قصره المسمى بقصر الخلد والجامع الكبير ويقال إنه انفق على بنائها نحو ثمانية عشر مليوناً من الدينارين على قول بعض المؤرخين ، ونحو مائتي الف جنيه على قول آخر ، ولما تم بناؤها أحضر إليها المنصور العلماء من كل بلد ، وأمها الناس أفواجا وازداد عمرها حتى صارت سيدة البلاد ، ومهد الحضارة الإسلامية . ويقول الخطيب البغدادي في وصفها « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها ، ونخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها وسعة اطرافها ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها ، وشوارعها

ومحالها وأسواقها ، وسككها وأزقتها ، ومساجدها وحماماتها ، وطرقها
وخاناتها ، وطيب هوائها وعذوبة مائها ، وبرد ظلالها وأفيائها ، واعتدال
صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها . . . الخ »

وفي سنة ١٥١ هـ بنى المنصور الرُّصافة على الضفة الشرقية لدجلة
أمام بغداد لابنه المهدي ، ومد إليها الماء وغرس فيها البساتين وكان مثلها
في بغداد ، مثل الجزيرة في القاهرة

الأحوال الخارجية في عهد المنصور :

خرجت الدولة الأندلسية على الدولة العربية ، وانفصلت عنها ، وذلك
ان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، استطاع ان
ينجو بحياته من مذابح عام ١٣٢ هـ وهرب إلى مصر ، ومنها إلى افريقية ،
ووصل إلى المغرب الاقصى ، وبعد ان استمر ينتقل بين قبائل تلك البلاد
لمدة ست سنوات ، دخل الأندلس سنة ١٣٨ هـ وانتصر على واليها إذ ذاك
يوسف ابن عبد الرحمن الفهوي ، واقام الدولة الأموية الثانية في الاندلس .
وفي عام ١٤٦ هـ حاول المنصور اخضاع الاندلس ، فأرسل إليها جيشا بقيادة
أبي العلاء مغيث ، ونزل الجيش بالاندلس ، واشتبك مع عبد الرحمن في
معركة بالقرب من اشيلية ، ودارت الدائرة على الجيش العباسي فهزم ، وقتل
قائده . ولما علم المنصور بذلك قال : أحمد الله الذي جعل بيني وبين صقر
قريش هذه البحار الواسعة

وكانت أفريقية مصدر اضطراب دائم له ، إذ كان أهلها من عرب
وبربر يميلون إلى تأييد العلويين ، فأرسل إليها المنصور أحد قواده المسمى

الاندلس

أفريقية

الأغلب التيمي واليا عليها في سنة ١٤٨ هـ، واشتبك مع الثوار في معارك كثيرة ثم قتله الخوارج في سنة ١٥١ هـ، وخلفه عمر بن حفص، وظل واليا لمدة ثلاث سنوات، ثم قام الخوارج بفتنة أخرى، واستولوا على القيروان، وقتل عمر، فغضب المنصور وأرسل إليها جيشا قويا بأمره يزيد المهلبى، فتغلب على الثائرين، وقتل زعماءهم، واستمر واليا على إفريقية حتى مات. وخلفه داود المهلبى

قامت الثورات بعد ذلك في أرمينية وهرارة، ولكن الخليفة أوفد ابن خزيمة ففضى على الثوار وشتت شملهم، وقامت ثورة أخرى في بلاد الموصل، وانتشرت في فارس ووصلت إلى بلاد السند وناصرها الأكراد، ولكن قوات الخليفة تغلبت على الثوار، وأرسل المنصور خالد البرمكى حاكما على الموصل، فأدار البلاد بحزم، وأسكن الفتن ونشر لواء السلام بين ربوعها وكان قد أرسل إليها قبل ذلك ابنه جعفر واليا عليها، وأرسل معه حرب بن عبد الله نائبا له، وقد سكن جعفر في قصر بديع لحرب، وفيه ولدت ابنته زبيدة زوج الرشيد فيما بعد

وفي سنة ١٥٨ هـ أغار البيزنطيون على آسيا الصغرى، وخرّبوا قراها، فأرسل إليهم الخليفة من ردهم على أعقابهم. وفرضت الجزية على الامبراطور البوزنطى، وكانت الجند والجيوش التى تتولى محاربة الروم تسمى الصائفة، لأنها كانت لا تخرج للقتال إلا فى الصيف، لشدة برد هذه الجهات وكثرة ثلوجها، واستحالة الزحف فى طرفها فى أثناء الشتاء.

ولاية العهد:

كان السفاح قد أوصى بولاية العهد الى عيسى بن موسى، بعد أخيه أبى جعفر المنصور كما تقدم، ولكن المنصور عمل على نقل ولاية العهد

الى ابنه المهدي ، وأدرك بغيته بعد سلسلة من الدسائس والمؤامرات ،
وخلع عيسى من منصبه بالكوفة ، وتعين المهدي واليا للعهد في سنة ٥١٤٧ هـ
(٧٦٤ م)

الاصلاحات الداخلية في عهد المنصور :

استطاع المنصور بعد أن فرغ من مشاكلة الداخلية والخارجية ، ان
يوجه مجهوداته لتنظيم ملكه ، ووضع إدارته على افضل الاساليب ، ثم
أخذ يصلح ماخربته الاغارات الاجنبية ، وقام بسياحة في مملكته ليفحص
الأمور بنفسه ، ويشرف على التعمير والتجديد ، فاعاد بناء مآطية
التي كان الروم قد دخلوها وهدموا أسوارها ، ثم جدد مدائن أخرى
ووضع فيها الجنود والحاميات ، بعد أن قوى حصونها وقلاعها ، وأعاد
تنظيم الحكم في البلاد ، وعين كتابا للبريد ليخبروه بكل دقائق الحوادث
وأقام طائفة من العيون والجواسيس ليخبروه بكل كبيرة وصغيرة من
أمور الدولة ، وأعاد تحصين البصرة والكوفة ، وأمر بأحصاء السكان في
أنحاء الدولة ، ونظم جباية الضرائب ، وكان حريصا على الأموال العامة
حرصا شديدا حتى اتهمه الناس بالشح والبخل

وفاة المنصور وأخلاقه :

استمر المنصور مجدا في عمله يواصل ليله بنهاره لتوطيد دعائم ملكه
حتى بلغت الدولة شأوا عظيما من المجد . وعند ما شعر بدنو أجله أرسل في
طلب ولي عهده ، وأوصاه وصية دلت على خبرة عملية وحنكة سياسية .
ثم خرج للحج في سنة ١٥٨ هـ ولكنه مات في الطريق قبل أن يصل الى

مكة في مكان يعرف بيئر ميمونة في ٦ ذى الحجة من السنة عينها (اكتوبر سنة ٧٧٥ بعد أن حكم اثنين وعشرين عاما ، وترك خزينة عامرة ، وجيشا قويا ، ومملكة شاسعة الاطراف ، واسعة الاكناف

وقد وصفه المؤرخون بأنه كان شديد التمسك بديانته ، بعيدا عن الشبهات ، خلت حاشيته من مظاهر الانحطاط الخلقى ، وكان يعطى في موضع العطاء ، ويمنع في موضع المنع ولكن المنع كان أغلب عليه ، حتى سار المثل بشحه وسمى «أبا الدوانيق» لشدته في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق ؛ ومن هذه الناحية كان يختلف عن معاوية ابن أبي سفيان فقد كان معاوية من أكرم الناس ، وأشدهم تسخيلا للأموال العامة والخاصة في الاغراض السياسية ، أما هو فقد كان من أحرص الناس على الأموال العامة والخاصة ، «وقد يؤثر التضحية بالدماء والكفريات في سبيل اغراضه السياسية على التضحية بالأموال» . ولقد كان مكيفليا في سياسته إذ كانت الغاية عنده تبرر الوسيلة مهما كان في ذلك نقض للوعود أو نكث للعهود ، وفوق ذلك كان مقداما حازما ، لا يتردد في التنفيذ ، ولا يتهيب الوسائل . وفي عهده تأثر العرب بعبادات الفرس وعلومهم وفلسفتهم . واعتنق الاسلام كثير من المجوس ، وبدأ يتحول النفوذ من ايدي العرب إلى الفرس ، وأخذ فقهاء الدين يدونون الاحاديث ويجمعونها ، وألفوا الكتب في التاريخ والدين ، وبدأ الناس يُعنون بأدب اللغة والتاريخ والطب والفلك ، وبذلك وضع المنصور الأساس لإقامة الحياة العلمية والعمرانية التي أزهرت فيما أتى من عصور

الْبَيْتُ الثَّلَاثِي

عصر المهدي والهادي

١ - محمد المهدي

(١٥٨ - ١٦٩ هـ) (٧٧٥ - ٧٨٥ م)

هو أبو عبد الله محمد المهدي بن المنصور، وامه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى بأم موسى، ولد سنة ١٢٦ هـ بالحميمة، وقد غنى أبوه بترتيته عناية كبرى، واختلف عن أبيه اختلافا كبيرا في الاخلاق، إذ كان كريما متسامحا، ولكنه كان حازما مع أعدائه ومنافسيه والخارجين عليه وقد تولى العرش بعد أن استتب الأمر للعباسيين بفضل سياسة أبيه، فبذل جهده في تهذيب الخواطر الثائرة بسبب قسوة المنصور وشدته، فعفا عن المسجونين لجرائم تافهة، وأبدل السجن بعقوبة الاعدام لبعض المسجونين السياسيين، وأفرج عن الحسن بن ابراهيم وأجرى عليه راتبا، وأعاد الى الاماكن المقدسة امتيازاتها، وأمر بصرف ما كان لأهلها من الارزاق التي كانت تعطى لهم من ايرادات القطر المصري، وأرجع الى العلويين ممتلكاتهم التي كان أبوه قد صادرها، وكان المنصور قد جرى على عادة فرض غرامات على المخطئين والمرفوتين من الموظفين وعمال الادارة، وحفظها حاملة اسماء أربابها في خزانة أطلق عليها اسم بيت المال للظالمين فلما جاء المهدي فتح هذه الخزائن ووزع أموالها على أربابها وعلى ورثة من مات منهم، وروى المؤرخون أنه مر ببيت خرب لا أبي سلمة وهو خارج

في حملة عسكرية ضد الروم ، فوقف عنده، وأحضر أولاده وأتباعه ، ووزع بينهم عشرين الف دينار اعترافاً منه بفضل أبيهم ، ومكافأة لهم نظير ما كان لوالدهم من مساعدة لافراد أسرته عند بدء قيامها بالحكم ، وفي سنة ١٦٠ هـ خرج حاجا الى بيت الله الحرام فصرف على الفقراء والمعوزين من أهل مكة ثلاثين مليوناً من الدراهم ومائة وخمسين الف ثوب ، وأعاد بناء الحرم الشريف ، ووسع المدارس والمساجد الأخرى في مكة والمدينة وباقي مدن الحجاز ، وأقام منازل للاستراحة بين بغداد ومكة ، وكان هناك منزل واحد في أيام السفاح بين القادسية ومكة وهي مسافة تقرب من ثلثمائة ميل ، ووضع حول هذه المنازل الحراس والحاميات لحراسة الحج وحمايته ، وحفر الآبار ، وأقام الزوايا بجانبها . وقد اتخذ له حرساً من الانصار من أهل المدينة بلغ عدده نحو الخمسمائة ، وكانت سنة جميلة تلك التي سنها المهدي ، لو جرى عليها خلفاؤه فاتخذوا حراسهم من العرب ، ولم يستبدلوا بهم الا تراك والديلم ، ماتضعض حكم العباسيين ، وما استطاع هؤلاء الدخلاء الاستئثار بالسلطة والنفوذ في دار الخلافة كما فعلوا بعد ذلك

الفتن والثورات في عهده :

أولاً : حاول أحد أبناء مروان الثاني الخروج على العباسيين وثار في سورية ، ولكن المهدي قمع الفتنة وتغلب على الثائر وقبض عليه وأودعه السجن ، ولكنه أخرجه بعد قليل وأجرى عليه الارزاق ، وعامل زوج مروان الثاني معاملة رقيقة ، وأسكنها قصره مع زوجته حيث عاشت عيشة اعزاز واکرام

ثانياً : ثار في خراسان بين سنتي ١٥٨ و ١٦٠ هـ هاشم بن حكيم ، وهو

المعروف بالمقنع لأنه كان يخفى قبح وجهه ودمامة خلقته بقناع من ذهب وكان يعتقد أن روح الله ظهرت في آدم ثم في نوح ثم في أبي مسلم ثم انتقلت إليه ، وأن الدين اعتقاد لأعمال ، وكانت تعاليمه ثورية ، وشاع ذكره وتبعه خلق كثير من بخارى وسمرقند و أترك بحر قزوين ، ولما امتد نفوذه واشتهر أمره أرسل إليه الخليفة معاذ بن مسلم أحد قواده ، وأرسل بعده سعيد الحرشي فطارده وضيق عليه الخناق وحاصره في قلعة كشي ، فلم ير المقنع بدا من التسليم ، وفضل أن يسم نفسه وأهل بيته ومن كان معه فماتوا ، وكان قد اتخذ له ولا يتبعه اللباس الأبيض شعارا فعرفوا بالمبيضة

ثالثا : ثورة « الزنادقة »

ظهرت فرقة أخرى من الفرق الدينية في ولاية جرجان ، وهي ولاية تقع شرقي بحر قزوين ، عرفت بالمحمرة لاتخاذها اللباس الأحمر شعارا لها ، ونشرت تعاليمها بين الناس في خراسان وفي المقاطعات الغربية لبلاد فارس وتسربت إلى بلاد العراق ، وكانت هذه التعاليم مزيجا من تعاليم مزدك وماني من أصحاب المذاهب الدينية التي ظهرت في فارس وانتشرت بها قبل الإسلام ، فقد ظهر مزدك وهو من أهل نيسابور سنة ٤٨٧ م ، ودعا الى مذهب ثنوى جديد فكان يقول بالنور والظلمة كما قال غيره من أنبياء الفرس ، ولكنه امتاز بأرائه الشيوعية ، اذا كان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء ، وأهم ماتجب فيه المساواة المال والنساء ، قال الشهرستاني « وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال فقد أحل النساء وأباح الاموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشترا كههم في الماء والنور والكلاء » وقال الطبري « قال مزدك وأصحابه إن الله انما جعل الارزاق في الأرض

ليقسمها العباد بينهم بالتآسى ، ولكن الناس تظالموا فيها ، وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الاغنيا ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وان من عنده فضل من الاموال والنساء والامتعة فليس هو أولى به من غيره ، فافترص السفلة ذلك واغتتموه ، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوه ، فأبتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله « وقد طارد كسرى أنوشروان مزدك وأتباعه مطاردة عنيفة ، ولكنه لم يستطع القضاء على انصار هذا المذهب قضاء مبرما

أما ماى فقد ظهر في أوائل القرن الثالث الميلادى وخلاصة مذهبه كما ورد في كتاب فجر الاسلام صحيفة ١٢٥ « أن العالم كما قال زرادشت نشأ عن أصليين : وهما النور والظلمة ، وعن النور نشأ الخير ، وما يصدر عن الانسان من خير فصدره إله الخير ، وما يصدر من شر فصدره إله الشر ، فان هو نظر نظرة رحمة فتلك النظرة من الخير والنور ، ومتى نظر نظرة قسوة فتلك النظرة من الشر والظلمة ، وكذلك جميع الحواس - وقد امتزج الخير والشر في هذا العالم امتزاجا تاما ، وقد أطال هو وأصحابه في كيفية هذا الامتزاج بما يشبه الخرافات »

أطلق المسلمون على المحمرة اسم الزنادقة . وللدورخين تعليقات كثيرة في أصل هذه التسمية فمنهم من قال إنها تطلق على أصحاب ماى ، ومنهم من قال إنها اسم لمذهب خاص كاليهودية والنصرانية « ويقول بعضهم إن زنديق في الاصل معناها بالفارسية الذى يتبع زند ثم أطلق على المانوية ، لأنهم كانوا يأخذون زند وغيره من الكتب المقدسة ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل » ، ونهض المهدي يقاوم مروجى هذه التعاليم إذ انتشرت

الرزيلة بسببها، وانغمس الناس في حمايتها، وتفككت روابط الاسرة، وسقطت هبة الحكومة، وتقوضت أسس الحياة الاجتماعية والعقائد الدينية، واختطفت الاولاد والنساء، وقسا الخليفة على هؤلاء الفوضويين وطاردهم من غير رحمة ولا هوادة، وعدهم أعداء الدين والفضيلة والنظام العام

احوال الدولة الخارجية في عهده :

أولا: اغار البوزنطيون على حدود الدولة في سنة ١٦٣ هـ، واستولوا على مرعش وأحرقوها، واعملوا السيف في رقاب أهلها، فأرسل اليهم المهدي قائده القدير الحسن بن قحطبة، ولكنهم تراجعوا قبل أن يلحق بهم واكتفى الحسن بتهديم بعض معاقلهم ومدنهم، وبعد قليل عادوا الى أغارتهم فسار اليهم المهدي بنفسه في جيش بلغ عدده مائة وخمسين ألفا، وترك ابنه موسى في بغداد يقوم باعباء الحكم فيها، واخترق بلاد الموصل واتخذ مدينة حلب مركز أعماله الحربية، وأرسل ابنه هرون ومعه قواد آخرون مثل الحسن بن قحطبة وعيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح ويحيى بن خالد البرمكي لمقاتلة الروم، وقد انتصر هرون ودخل سمالا، وطلب الاعضاء الصلح على أن يدفعوا غرامة حريسة في نظير اخلاء بلادهم وإطلاق سراح أسراهم، وقبل هرون الصلح، وعاد إلى حلب، وتوجه المهدي بعد ذلك لزيارة بيت المقدس، وأقام هرون واليا على الغرب، بما فيه أرمينيا وأذربيجان يعاونه ثابت بن موسى ويحيى بن خالد

نقض الروم شروط الصلح ورجعوا الى الاعتداء على أملاك المسلمين فزحف هرون لملاقاتهم في سنة ١٦٥ هـ، وظهر عليهم وذبح منهم خلقا

كثيرين ، وسار بجيشه نحو القسطنطينية ، ولما رأت الملكة إيريني ارملة ليو الرابع وكانت وصية على ابنها قسطنطين السابع أن الخطر يهدد ملكها طلبت إلى هرون ايقاف القتال ، وتعهدت بدفع جزية سنوية وبتموين الجيش الاسلامي عند تراجعه ، فقبل منها الشروط وتهادنا لمدة ثلاث سنوات

ثانيا : حاول المهدي بين سنتي ١٦٦١ هـ و ١٦٦٣ هـ استرجاع الاندلس الى حظيرة الدولة الاسلامية ، ولكن المحاولة لم تنجح وانتهت بالفشل ، وكان قد أرسل حملة عسكرية قبل ذلك بسنة واحدة الى الهند بقيادة عبد الملك ابن شهاب المسمعى عن طريق البحر ، ووصلت الحملة وهاجمت مدينة باريدو وأحرقت تمثالا لبوذا ومعه عدد من اتباع مذهبه ، ولكن المرض انتشر بين أعضائها فرجعت الحملة ، وعند ساحل الفرس حطمت الرياح سفن الاسطول

وزراء المهدي :

اعتمد المهدي كثيرا على وزرائه ، ولذلك أخذت الوزارة في عهده شكلا واضحا ، وأصبح للوزير شأن كبير في ادارة الشؤون وتصريف الامور في الدولة ، وقد اشتهر من وزرائه أبو عبيد الله معاوية بن يسار ، وكان وزيرا قديرا بارعا في المسائل المالية ، نظم جباية الأموال ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، وصنف كتابا في الخراج ، ولكن المهدي غضب عليه لأمر نسبت لابنه ، وعزله في سنة ١٦٦١ هـ ، واستوزر بعده أبا عبد الله يعقوب بن داود بن طهمان مولى بني سليم ، وكان على الهمة ، دبر أمور الملك تديرا محكما ، واستأثر بالسلطان والنفوذ في طول البلاد وعرضها ، ولكنه كان يميل الى الزيدية من العلويين ، وأتى بهم من أنحاء الدولة وولاهم

المناصب في الشرق والغرب، فأوقع به حساده ومنافسوه عند الخليفة واستعانوا بالشعراء لنيل بغيتهم، ومن هؤلاء الشعراء بشار بن برد إذ قال

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين النأي والعود

غضب الخليفة على يعقوب بعد أن فعلت الدسائس فعلها، وعزله وسجنه في المطبق، وهو باستيل العباسيين، وظل به حتى أفرج عنه في خلافة الرشيد، واتخذ المهدي بعده الفيض بن أبي صالح وزيرا له واستمر في منصبه حتى مات الخليفة.

وفاة المهدي وأخلاقه:

جاء في كتاب الخضرى بك صحيفة ١٠٦ ما يأتى: «كان المهدي لا يشرب النبيذ وان كان سماره يشربون في مجلسه، وكان يسمع الغناء، وكان من خلقه الحياء والعفو، وكان يتأثر بالقرآن، وكان ميالا للسنة وكان شديد الغيرة على النساء.» وجاء في كتاب عصر المأمون نقلا عن السير موير: «ان المهدي كان في ادارته لشئون رعيته كمن يعمل بوجه عام على رفاهية الامة واسعادها، وكان معينا ومعجلا للعصر الذهبي الذي تلا أيامه.»

خلع المهدي عيسى بن موسى من ولاية العهد، وعين ابنه موسى الهادي وليا لعهد وجعل بعده ابنه هرون وفي سنة ١٦٩ هـ خرج الى جرحان وفي طريقه مات في ٢٢ المحرم في ماسبذان، وصلى عليه ابنه هرون لانه كان في صحبته، وكان المهدي في الثالثة والاربعين من عمره عند وفاته

٢ — موسى الهادى

(١٦٩ - ٥١٧٠) (٧٨٥ - ٧٨٦ م)

كان الهادى فى ولاية جرجان عند ما توفى أبوه فأخذ له اخوه هارون البيعة على الجند، وارسل اليه بخاتم الخلافة وبالقضيبي والبردة وكتب اليه يعزيه ويهنئه، وتولى عرش الخلافة وكان فى الرابعة والعشرين من عمره، ولانت مدة خلافته قصيرة، واشتهر بصلاية الرأى والشجاعة والكرم والميل الى الادب وتشجيع الشعراء وكان شديد البطش جرى القلب «مجتمع الحس ذا اقدام وعزم وحزم»

الاحوال الداخلية فى عهده:

أولاً: كانت الخيزران أمه تقابل وجوه الدولة، وتتدخل فى إدارة الشؤون فى أيام زوجها المهدي، وقوى نفوذها لدرجة كبيرة، فلما تولى الهادى الحكم أرادت الاستمرار فى طريقها، وظنت الفرصة سانحة للاستئثار بجميع السلطة، ولكن الخليفة أوقفها عند حدها وحرم عليها مقابلة الرجال وأمر قواده ورؤساء الدولة الا يحضروا مجلسها أو يدخلوا عليها، وهدد من يخالف أمره بالأعدام ولذلك كرهته والدته وأخذت تدس الدسائس حوله، ووجدت الاحزاب فى الدولة، حزب يؤيد الخليفة ويناصره فى أغراضه السياسية، وآخر يؤيد الملكة الأرملة، واتسع الخرق بين الاثنين وظل كذلك حتى مات الهادى

ثانياً: حاول الهادى أن يجعل الخلافة لابنه جعفر من بعده متخطياً أخاه هرون مع أن هرون برهن على عظيم ولائه له اذ أخذ البيعة له على الجند الموالين له شخصياً عند وفاة أبيهما كما تقدم، وكان هرون يميل الى اجابة رغبة الخليفة، ولكن صديقه يحيى بن خالد نصح له بالخروج عن مقر

الخلافة، وأخذ يسعى لدى الهادي مينا له خطأ التغيير، ولكن الخليفة مضى في سياسته وأخذ البيعة لابنه ضاربا برأى يحيى عرض الحائط وسجنه وظل الرشيد بعيدا عن مقر الملك حتى مرض أخوه ومات

ثالثا: ثار الخوارج في الجزيرة، وثار العلويون في مكة والمدينة، ونهض الهادي متبعا سياسة أبيه، ونكل بالخوارج والزنادقة تنكيلا شديدا، أما العلويون فقد خرج منهم بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن المثلث سنة ١٦٩ هـ، ويرجع سبب ذلك على ما رواه المؤرخون الى القسوة التي عامل بها والى المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة من أصدقائه متهما أيامهم بشرب الخمر. اذ قبض عليهم والى وشهر بهم بين أهل المدينة، وتوسط الحسين في الامر ولكنه غضب من تصرفات عمر، وعزم على الخروج، وشجعه وجود بعض أهل الشيعة العلوية من الكوفة وكانوا قد أتوا للحج، واقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج احد عشر يوما ثم تركها قاصدا مكة وفي طريقه اليها قابله جماعة من العباسيين من بينهم محمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد وموسى بن عيسى وكان الهادي قد سمع بخبر الثورة فأمر محمد بن سليمان بمقابلة الحسين وقتاله. تقابل الطرفان ودارت رحى المعركة عند مكان يعرف بالفخ وانتهت بقتل الحسين ومن معه، وكان من نتائج تلك الثورة أن فر يحيى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي الى بلاد الديلم وثار بها، وظلت الثورة قائمة حتى أخذها الرشيد في أثناء حكمه سنة ١٧٥ هـ وفر أخوه إدريس ابن عبد الله الى بلاد المغرب واستطاع أن يؤسس في تلك البلاد دولة الادارسة التي كان لها شأن كبير في تاريخ العرب في الاندلس

موت الهادى و اخلاقه

توفى الهادى بعبسا باذ فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ، وقد اختلف المؤرخون فى سبب موته و منهم من ينسب موته الى سم دسته له امه فى طعام أرسل اليه، وورد فى وصف أخلاقه « أنه وورث عن أبيه كرمه و غيرته و جبه للأدب، وورث عن جده المنصور حزمه و شيئاً من ميله الى الغدر » و فى عصره اشتد نفوذ الفرس و انتشرت فى البلاد كثير من عاداتهم ظهر أثرها جلياً فى عصر الرشيد



الْبَيْتُ الرَّابِعُ

عصر الرشيد والأمين

١ - هرون الرشيد

(١٧٠ - ١٩٣ هـ) (٧٨٦ - ٨٠٩ م)

ولد الرشيد في سنة ١٤٥ هـ بمدينة الري . وولد قبله بسبعة أيام الفضل ابن يحيى البرمكي ، وتبادلا الرضاع من اميها ، فكانا اخوين في الرضاعة ، ولما مات الهادي تولى الرشيد العرش واسرع بالعودة الى بغداد ودخلها ، ووجد أن الأمر هيب له ، وذلك أن خازم بن خزيمة أحد القواد سار في عدد من الجند الى بيت جعفر بن الهادي وحاصره وهدد الامير بالقتل إن لم ينزل عن الخلافة لعمه ، واجتمع القوم حول البيت فأطل عليهم جعفر وقال « من كان لي بيعة في عنقه فقد أحلته منها » وبذلك تم الأمر للرشيد وأصبح الخليفة لا ينازعه في أمر الخلافة منازع . ويعتبر المؤرخون عصره أزهى عصور حكم المسلمين في آسيا ، ويعدونه من أشهر ولادة التاريخ ، إذ بلغت الخلافة الاسلامية في عهده قمة المجد وذرورة الفخامة ، ولقد كان ورعا متدينا محسنا محبا للفقراء ، وكان عسكريا مدربا شجاعا ، كثيرا ما قاد الجيوش بنفسه ، وكثيرا ما اخترق مملكته الشاسعة لرد المظالم ومعاقبة المجرمين ودفع الاغارات عنها ، وكان حاكما مدبرا حازما عالما بدقائق الأمور ، وقد عم الأمان البلاد بفضل سهره وعنايته بمصالح الرعية ، وأن الجوامع والمدارس والكلليات الكثيرة العدد ، والطرق والجسور والمستشفيات والملاجيء

ودور العجزة التي أسسها خير دليل على ما بلغت الدولة من العظمة وعلو الشأن في عصره الخالد الذكر، هذا وقد امتاز عصره برواج سوق الأدب وكثرة الشعراء والمفكرين، وعم الرخاء البلاد، وأصبح اسم الرشيد مضرب الأمثال بين الغربيين وعنوان الأبهة والفخامة بين الكتاب والمؤرخين، وكانت بغداد في عصره نادرة الدنيا، فريدة في حضارتها وعمارتها

الاحوال الداخلية في عهده :

أولا : نقل مقر الخلافة من بغداد الى مدينة الرقة واتخذها مسكنا له حتى يشرف على سوريا ، ويكون قريبا من حدود الدولة البوزنطية التي كانت تهدد أملاك المسلمين في آسيا الصغرى من آونة الى أخرى ، واتخذ يحيى البرمكى كبيرا لوزرائه ، وعين أولاده حكاما وولاة على مختلف أقاليم الدولة

ثانيا : جدد العلويون نشاطهم ، وأصبح يحيى الذي فر الى بلاد الديلم في عصر الهادي مصدر خطر كبير على الخلافة العباسية ، اذا استطاع أن يوسع حدود إمارته حتى وصلت إلى بحر قزوين ، واشتهر بلاطه شهرة طبقت الافاق ، وهرع اليه العلماء من الشرق والغرب ، فحقده الرشيد عليه وندب الفضل بين يحيى البرمكى لمقابلته وكان الفضل واليا على فارس وجرجان ، ونجح الفضل في استمالة يحيى العلوى بعد أن فاوضه في أمر الصلح والتسليم الى الخليفة ، وقبل العلوى طلب الصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه ، وكتب الخليفة الأمان ، وأشهد عليه القضاة والفقهاء ورؤس بني هاشم ، وأرسله إليه ومعه الهدايا ، فقدم يحيى على الرشيد واستقبله استقبالا شائقا وأكرم وفادته ، ولكنه مالبت أن غضب عليه وتحركت عوامل الغيرة في قلبه ، فنقض عهده بعد أن حصل على فتوى

الإدريسى

بنقضه من فريق من العلماء وسجن يحيى . أما إدريس فقد استطاع ان يصل إلى بلاد الغرب بمساعدة واضح عامل البريد على مصر ، ونزل بمدينة ويلي سنة ١٧٢ هـ ونشر دعوته وبايعه الناس بالأماة ، والتف حوله الجند وعزم على غزو افريقية واتزاعها من العباسيين ، ولما بلغ الرشيد خبره أرسل اليه سليمان بن جرير المعروف بالشماخ وطلب اليه أن يحتال على قتله ، فأدعى الرجل الطب وانتهم مرض إدريس وسمه ، ولما مات بايع أنصاره ابنه يسمى إدريس الثاني ، واستمرت دولة الادارسة قائمة ببلاد المغرب ولم يستطع الرشيد ارجاعها الى حظيرة الخلافة الإسلامية ، ولذلك اشتد غضبه على العلويين وأخذ يراقبهم مراقبة دقيقة

ثالثا : قامت الخوارج بفتن عديدة في عصر الرشيد في أنحاء الدولة ، واشتهر منهم الوليد بن طريف الشيباني وكان مقداما شجاعا ، واستطاع أن يستولى على نصيبين في سنة ١٧٨ هـ وقتل حاكمها ، ولما اشتد ساعده وكبر شأنه اهتم الرشيد بأمر ثورته وأرسل اليه قائدا كبيرا وهو يزيد بن مزيد الشيباني فتغلب عليه وقتله بمكان قريب من مدينة الانبار في سنة ١٧٩ هـ ، ولما قتل تولت اخته ليلى قيادة أنصاره ، ويطلق عليها سيد أمير على « جان دارك المسلمين » لأنها أثارت حماسا عظيما بين الثوار ، وحاربت جند الرشيد حربا عوانا ، وظلت تقاتل حتى أغراها قائد الخليفة بترك القتال فتركته ، وكانت مشهورة بالجمال وكانت تقول الشعر ، ورثت أخاها بشعر رقيق بعد موته نذكر منه ما يلي :

فيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد الا من التقى ولا المال الا من قنا وسيوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى فان مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا فدينك من فتياننا بالوف

رابعاً: الأحوال في المشرق:

عين الرشيد عليّ بن عيسى بن ماهان واليا على خراسان، وكان واليا ظلما ظلم الناس وجمع ثروة طائلة واستفحل أمره في البلاد وأصبح ذا نفوذ يشبه نفوذ أبي مسلم، فكتب أهل خراسان إلى الخليفة يتظلمون من قسوة واليه، ويرفعون شكايتهم، ورأى الرشيد أن الأمر يتطلب تحقيقا، فخرج من الرقة قاصدا مدينة الري واستصحب معه ابنه المأمون ومكث في المدينة أربعة شهور، وبعث في طلب عليّ بن عيسى فجاءه مثقلا بالأموال والهدايا والطرف وأهدى كل من كان مع الرشيد، وكسب الخليفة ونفى عن نفسه ما وجه إليه من التهم، وعاد إلى مقر حكمه في مرو وأخذ ينتقم من وجوه خراسان ومن ظن فيهم أنهم مصدر الشكوى، وفي تلك الأثناء ثار رافع بن ليث بن نصر بن سيار وعظم شأنه في سمرقند، وأرسل عليّ بن عيسى لقتاله فتغلب عليه وقتله، وكان قد قتل والي سمرقند قبل ذلك، فرأى عليّ بن عيسى أن يأخذ الأمر على عاتقه وتأهب لقتاله وأسرع بالرجوع من بلخ إلى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولى عليها، وكان ابن عليّ بن عيسى قد ترك ثروة طائلة بلغ أمرها الرشيد، فغضب وتأكد من خيانه واليه على خراسان وظلمه للرعية وعزم على خلعه، واختار أحد قواده وهو هرثمة بن أعين وعهد إليه بالقبض على الوالي وعينه واليا مكانه، واستطاع هرثمة أن يقبض على عليّ بن عيسى وعلى أبنائه وأهل بيته، وصادر أملاكه وأمواله وأرسله إلى بغداد في الأغلال وحمل ثروته على ١٥٠٠ بعير وأرسلها إلى الخليفة، وفرح أهل خراسان فرحا عظيما ودعوا للخليفة بالنصر وحسن الجزاء لتخلصهم من شر عليّ، أما رافع فقد ظل نائرا حتى انقضى عصر الرشيد ثم خضع للدولة في عصر المأمون

أرسل ابنه
مديون

خامسا: الرشيد والبرامكة:

البرامكة أسرة فارسية كان مؤسسها - ويسمى برمك - من مجوس بلخ وكان يخدم هو وأولاده معبدا مجوسيا فيها وذلك في أوائل القرن الثاني للهجرة، ولما دخل الأسلام بلاد فارس وانتشر بها أسلم بنو برمك، وكان اكبرهم سنا يسمى خالدا، ولما ظهرت الدعوة العباسية في خراسان كان خالد هذا من اكبر أنصارها ودعاتها، ولما استقر الأمر للسفاح استوزره بعد قتل أبي سلمة الخلال، وظل وزيرا حتي مات السفاح وتولى المنصور فعينه واليا على فارس ثم الموصل، فكان واليا قديرا حسن السيرة والتدبير، ومات في خلافة المهدي وكان قد أنجب يحيى ورباه خير تربية فاختره المهدي ليكون مرييا ومؤدبا لابنه هرون فاحسن القيام بذلك، وأخلص لأميره إخلاصا كاملا، وظل بجانبه في أيام الهادي يؤيده في أمر ولاية العهد وكاد الهادي يفتك به لولا أن عاجلته المنية، وتولى الرشيد مكانه فولاه الوزارة، وفوض اليه تفويضاصريحا في تصريف شؤون الدولة قائلا له: «قد قلدتك أمر الرعية، واخرجته من عنقي اليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وامض الأمور على ما ترى»، ولم يلبث أن دفع اليه خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان وأصبح بهما وبما عرف عنه من كرم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة كعبة القصاد ومنتجع الرواد، وكان ليحيى خمسة أنجال وهم الفضل وجعفر وموسى وخالد ومحمد، وكان لهؤلاء اولاد وكانوا كلهم رؤساء بالدولة العباسية في أثناء حكم الرشيد، وكانوا يجمعون من الصفات الحمودة والخصال المدوحة ما استحق ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاد

وكان أكبر أفراد هذه الاسرة شأنا يحيى وشأنه مع الرشيد قد مر بنا ذكره ثم ولداه الفضل وجعفر، فاما الفضل فقد كان توأم الرشيد رضاعا، شبا معا كالأخوين، ولم يزا الا كذلك الى أن ولد الامين للرشيد فألقى به في حجر الفضل ليغنى بأمر تربيته، ولما خرجت خراسان على الرشيد أرسل الفضل واليا عليها وعلى ثغورها فأصلح حالها، وهدأ ثورتها، ونجح نجاحا باهرا في غزواته فيما وراء نهر جيحون ولما عاد منها في سنة ١٧٩ هـ احسن الرشيد استقباله في جمع من بني هاشم وعلية القوم، وابقاه في بغداد يساعد أباه في ادارة الشؤون ولقب بالوزير الصغير. وأما جعفر فقد كان سمح الاخلاق كثير العطاء، لا نظير له في الفصاحة والبيان، وكان الرشيد أميل اليه من أخيه الفضل، أرسله إلى اخضاع فتنة قامت بين القبائل العربية بالشام، فأخضع الثوار، وأصلح الأمور، وعاد الى بغداد فاستقبله الخليفة استقبالا عظيما، وولاه مصره لكنه أبقاه بجانبه، وعهد بتربية المأمون اليه، ثم حدث أن تنازل يحيى عن منصب الوزارة لابنه الفضل ولكن الرشيد طلب إلى يحيى أن يطلب من الفضل التنازل عنها لأخيه جعفر، فكتب يحيى إلى الفضل يقول: «قد أمر أمير المؤمنين، أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك» فأجابه الفضل: «قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخي، وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه»، تولى جعفر الوزارة وأخذ يعمل إلى خير الدولة وسعادتها «وضبط الأموال ورتب ديوان الأعمال والجبايات، واقتصد من النفقات فضلا محتاط به، وأقام على السجلات مهرة الحساب لدقة المقارنة بين خرج الدولة ودخلها، وجعل لهذا الديوان شعوبا عدة تتشعب منه وترجع اليه، وأمر بحفظ الدفاتر القديمة للمراجعة، ثم نظر إلى ضبط المعاملات بين بعض الناس وبعض، فأقام جماعة يعرفون برجال العدالة في

كل الجهات لمراقبة حركات البيع والشراء، ونظر الى بغداد ونظم شرطتها، وأقام العسس بجميع دروبها، وبث فيها العيون والارصاد لمراقبة حركة الاغراب فيها، الى غير ذلك من الاعمال التي ضاعفت ثقة الرشيد به حتى أنابه عنه في القضاء يرد المظالم الأمر الذي لا يباشره إلا الخلفاء، وبذلك عظم شأن جعفر حتى أصبح يلقب بالملك ولا يفرق بينه وبين الخليفة في نفوذه، وارتفعت مكانة الاسرة ارتفاعا عظيما نتيجة لمكانة أفرادها، وأثرت ثراء كبيرا، وأصبح سلطانها لاحد له، ولقد اشتهرت بالسخاء والكرم وبذل الأموال للسائلين، فأحبها الناس حبا جما والتف الشعب حولها التفافا لم يسبق له نظير، فأثاروا بذلك حسد الكثيرين من أمراء العرب خصوصا آل الربيع وآل مزيد الشيباني، فتضافروا حتى أوقعوا بينهم وبين الرشيد فقتك بهم فتكا ذريعا وصادر ممتلكاتهم، واليك ما أورد بعض المؤرخين في وصف النكبة وأسبابها

سقوط البرامكة:

حج الرشيد عام ١٨٦ هـ وانصرف إلى الحيرة، وكانت عادته كل سنة يحج فيها أن يقيم في ضيافة جعفر أياما ببنت له في الحيرة، فلم ينزل كعادته في هذه السنة، وسار إلى الأنبار فوصلها ليلة السبت آخر المحرم سنة ١٨٧ واعتذر لجعفر عن عدم منادمته تلك الليلة، وقال إنه يريد الراحة في بيته، فانصرف جعفر وترك الرشيد فأرسل وراءه مسرورا خادمه وأمره أن يذهب لوقته إلى بيت جعفر ويخرجه إخراجا عنيفا ويأتي به، فذهب مسرور وأخرجه وأتى به منزل الرشيد وأخبر الخليفة بمجيئه فأمره بضرب عنقه ونفذ مسرور الأمر، ثم أرسل الرشيد في الليلة عينها من أحاط بيحيى ابن خالد وجميع ولده ومواليه ومن كان منهم بالطريق فلم يفلت منهم أحد،

وأودعهم السجون ، ثم فرق الكتب إلى جميع العمال والولاية أن يقبضوا أموالهم ، ووجه رجاء الخادم الى الرقة وأمره أن يقبض أموالهم ويأخذ رقيقهم ومواليهم ، ثم أمر السندی أن ينقل جثة جعفر إلى بغداد فنقلها وقطعها إلى نصفين وصلبها على دجلة نصفها على الجسر الأعلى والآخر على الجسر الأسفل ، وقد ظلت مصلوبة بضع سنين حتى مر بها الرشيد فأمر بأحراقها فأحرقت ، وحذر الناس من إيواء أي فرد من أفراد البرامكة مستثنيا محمد بن خالد بن برمك وولده وحشمه لما ظهر له من نصيحة محمد له ، وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة

هذا وقد اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في الاسباب التي أدت الى نكبة تلك الاسرة ، وذكروا منها :

أولا : إن الرشيد غضب غضبا شديدا عندما علم أن جعفرا أطلق سراح يحيى العلوي وسهل له الهرب الى أفريقية ، وكان الرشيد يخشى بأس العلويين ، وقد فعل جعفر هذا من غير استئذان الرشيد ، ووجد الفضل بين الربيع أن الفرصة سانحة للإيقاع بجعفر ، وأبلغ الحادثة الى الخليفة فتظاهر الخليفة بالاستخفاف بالأمر ولكنه شك في إخلاص البرامكة من يومها ، واتهمهم بأنهم يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته ، وكانت هذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي ، وهي التهمة التي استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبي عبيد الله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة

ثانيا : نسب بعض المؤرخين سبب النكبة الى مجرد الملل والغيرة : سئل سعيد بن سالم عن خيانة البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ، ولكن طالت أيامهم

وكل طويل مملول ، والله لقد استظال الناس الذين هم خير الناس ايام
عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما رأوا مثلها عدلا وأمنا وسعة أموال
وفتوح ، و أيام عثمان رضى الله عنه حتى قتلوهما

ثالثا : علو المكانة والجاه والثروة التي وصل اليها البرامكة في عهد
الرشيد مما جعل الخليفة يوجس خيفة على مركزه ومركز أسرته ، وجعله
يتربق الفرصة للخلاص منهم ، وكان الناس يتوقعون تلك النكبة لهم ،
ودليلنا على ذلك ما يروى أن إبراهيم بن المهدي زار جعفر البرمكي في قصر
له ، فسأله جعفر ، « هل ترى في دارى عيبا ؟ » فقال إبراهيم « الذى يعيبها
عندى أنك أنفقت عليها نحو من عشرين ألف درهم ، وهو شئ لا آمنه
عليك غدا بين يدي أمير المؤمنين » فقال « سأقول هذه نعم أمير المؤمنين
على وضعتها فوق تل عال ، وقلت يا قوم انظروا نعم الخليفة على ، إن الناس
يخفون نعمه ، وأنا اتحدث بها »

رابعا : أورد المؤرخون العرب ونقل عنهم مؤرخو الفرنج قصة
عباسة بنت المهدي أخت الرشيد وما كان بينها وبين جعفر البرمكي من
علاقات سرية ، ومن أنها كانت تحضر مجالس الشراب مع أخيها ونديمه
جعفر ، وأنها تزوجت من جعفر سرا بعلم الرشيد ، وأنها حملت ووضعت
وأرسلت مولودها مع حواضن له من مماليكها الى مكة ، وأن الرشيد عرف
السر بعد ذلك من جارية لآخته وهو يحج في سنة ١٨٧ هـ ، فغضب على
جعفر وعزم على الفتك به - الخ القصة ، وهى قصة ظاهر عليها أثر التوليد
والاختراع لمخالفتها أخلاق الرشيد ، وما سار عليه بنو العباس من بداية
عهدهم حتى زمن ضعفهم ، إذ ليس من المعقول أن يكون الرشيد مرن
الخلق إلى هذا الحد ، وأن يأذن لآخته بالحضور إلى مجالس شربه وهو
مع أصدقائه

ولقد أجمل ابن خلدون أسباب النكبة وعللها تعليلا أقرب الى التاريخ منه إلى الرواية والوصف ، فقال في صفحة ١٢ « إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فغضبت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمرها مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم : من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم فتوجه الأيثار من السلطان اليهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الامراء ، وتسربت الى خزائهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية ، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن ، وكسبوا من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا العاني ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك ، حتى آسفوا البطانة ، واحقدوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية ، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم »

حلل ابن خلدون أسباب النكبة وخالف المؤرخين في روايتهم عن العباسية وترى من تحليله الأسباب الحقيقية التي أسقطت هذه الاسرة بعد أن خدمت الدولة العباسية خدمات جليلة نحو سبعة عشر عاما ، ولم تكن نكبتهم حادثة فجائية بل هي حادثة تقدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضا

كان أفراد الاسرة يعاملون معاملة حسنة في سجونهم حتى غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح وسجنه فضيق عليهم، وعبد الملك هذا هو ابن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، وقد اتهم بأنه يعمل على نيل الخلافة وأن البرامكة كانوا يساعدونه، وحقق الرشيد التهمة ولما اقتنع بصحتها أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وأرسل يسأل يحيى البرمكي عما نسب الى عبد الملك وطلب اليه أن يصدق حتى يعفو عنه ويعيده الى سابق حاله، ولما أجابه يحيى بأنه لا يعرف من أمر التهمة شيئا غضب الرشيد وقسا في معاملة البرامكة

ظل يحيى مسجوناً حتى مات في سجنه سنة ١٩٠ هـ ومات بعده ابنه الفضل في سنة ١٩٣ هـ وظل عبد الملك مسجوناً حتى عفا عنه الأمين وأخرجه من سجنه وولاه سوريا، ولما تولى المأمون العرش أرجع للاحياء من البرامكة ممتلكاتهم، ورفع منزلتهم، وأنتك لوقرات تاريخ البرامكة في كتب مؤرخي العرب وما نالهم من الرشيد لذات نفسك حسرات عليهم، وبكيتهم مع الباكين بين أطلالهم، ولقد كان الرشيد نفسه يبكي عليهم عند ذكرهم وقد رثاهم شاعره أبو نواس بأبيات رقيقة منها

الآن اسرحننا واستراحت ركابنا وأمسك من بجدى ومن كان يجتدى
فقل للبطايا قد أمنت من السرى وطى الفيافي فدفا بعد فدفا
وقل للنبايا قد ظفرت بجعفر ولن تظفري من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تفضلى وقل للرزايا كل يوم تجددى
ودونك سيفاً برمكياً مهندا أصيب بسيف هاشمى مهندا
ترك البرامكة فراغا كبيراً في إدارة الشؤون لم يسهل على الرشيد ملؤه
بعد نكبتهم إذ استوزر الفضل بن الربيع ولكنه كان أقل من جعفر
شأناً ومقدرة

الحوادث الداخلية الأخرى :

الاحوال في أفريقية: ظل يزيد المهلبى حاكما على أفريقية حتى مات سنة ١٧٠ هـ ، وتولى بعده أخوه حكمها ، فسار سيرة أخيه وقمع كل الثورات والفتن التي قامت عقب موت يزيد ، ولكن البلاد ثارت مرة أخرى في عهد ابنه ، فأرسل الرشيد قائده القدير هرثمة بن أعين فأخضع الثورة ، وأعاد الأمن الى نصابه ، وتولى الحكم لمدة ثلاث سنوات ، ثم استقال ورجع الى بغداد ، فتقدم إبراهيم بن الأغلب الى الرشيد . وطلب منه أن يوليه حكم أفريقية حكما وراثيا ، وتعهد بأن يرسل الى بيت المال في بغداد أربعين الف دينار سنويا ، ولما كانت أفريقية تكلف خزينة الدولة مائة الف دينار ترسل اليها سنويا من مصر ، قبل توليته بناء على مشورة هرثمة ، وقصر الحكم عليه وعلى أفراد أسرته من بعده ، مشترطا موافقة الخليفة الجالس على العرش على من يتولى الحكم عند خلو المنصب ، وأصبحت أفريقية بذلك مستقلة استقلالاً ذاتيا ، وتمهيا الأمر بقيام دولة الاغلبة في القيروان

أحوال الدولة الخارجية :

أولا : حروب الرشيد مع البوزنطيين (١٧٥ — ١٩٢ هـ)
خالف البوزنطيون شروط المعاهدة التي عقدتها ايريني في زمن المهدي ، وغزوا أراضى الدولة واعتدوا على حدودها ، ونهبوا وسلبوا وأسروا كثيرا من المسلمين ، فنهض الرشيد واتخذ مدينة طرسوس مركزا لاعماله الحربية ، وسير عليهم جيشا تحت أمره قائد تركي في سنة ١٧٥ هـ فردهم على أعقابهم ، واستولى على مدينتين من مدنها ، وفي تلك السنة سارت سفن المسلمين واستولت على قبرص و كريت . وأسر أمير البحر الاغريقي

وعرض عليه الاسلام ، ولما رفض قتله المسلمون ، ثم رجع البوزنطيون الى اعتدائهم على حدود الدولة ، فخرج اليهم الرشيد بنفسه في سنة ١٨١ هـ ومعه جيش قوى يقوده رجال مهرة ، فانتصر الرشيد وطلبت أيريني الصلح على أن تدفع الجزية بطريقة منتظمة ، وتبادل الفريقان الأسرى وتهادنا لمدة أربع سنوات

انفردت أيريني بأدارة الشؤون في الدولة البوزنطية بعد أن تغلبت على ابنها ولقبت نفسها أوغسطا ، ولكن الروم ثاروا عليها بعد أن حكمت بلادها خمس سنوات وخلعوها في سنة ١٨٧ هـ ، وتولى زمام الأمور بعدها وزير ماليتها المسمى نايسفوراس (نقفور) وعزم على فسخ المعاهدة المعقودة وكتب الى الرشيد كتابا مهينا مهددا ومتوعدا ، إذ قال فيه « من نقفور ملك الروم الى هارون الرشيد ملك العرب . أما بعد فأن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا أن تحمل أضعافه اليها ، لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن ؛ فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل لك من أموالها ، واقتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، والا فالسيف بيننا وبينك . »

يقول ابن خلدون فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد أن ينظر اليه أو أن يخاطبه ، وتفرق جلساؤه خوفا من زيادة قول أو فعل منهم ، ولم يجرؤ أحد من وزرائه على إبداء الرأي ثم تناول الكتاب وكتب على ظهره : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ماأراه دون ما تسمعه والسلام »

تأهب الرشيد للقتال في اليوم نفسه وخرج على جيش كبير وتابع السير

حتى وصل هرقله احدى معاقل الروم . وهناك تقابل مع جيوش أعدائه فتغلب عليهم وانتصر نصرا مبينا ، واضطر نقفور الى عقد الصلح على أن يدفع جزية مضاعفة ورجع الخليفة المنتصر ، وما كاد يصل الرقة حتى نقض نقفور الصلح ظنا منه أن البرد قارص . وأن الخليفة لن يرجع اليه في هذا الوقت ، ولكنه كما قال جيون المؤرخ الشهير خطأ فهم الرشيد وحزمه ، فقد رجع الخليفة بسرعة أدهشت ملك الروم وتقابلت الجيوش وانتصر الرشيد بعد معركة دموية ، وطلب نقفور الصلح مرة أخرى ، فاجاب الرشيد طلبه ، ولكن الروم نقضوا العهد مرارا عديدة ويقول موير « وفي كل مرة كان الرشيد ينتصر ثم يعفو » ، وفي سنة ١٨٩ هـ أرسل الرشيد ابنه القاسم لتأديب الروم فأديبهم ، وفي السنة التالية اتهم نقفور قيام ثورة في المشرق وغزا بلاد المسلمين وارتكب فظاوح عديدة فلم يطلق الرشيد صبرا وترك الأمور لابنه المأمون ، وسار على رأس جيش كبير لمعاقبة هؤلاء الأعداء الذين لا يعرفون عهدا ، ولا يحترمون وعدا ، وقد انتصر عليهم انتصارا كبيرا ، واستولى على المدائن المهمة في آسيا الصغرى ، وأبلى قواده بلاء حسنا ، ففتح يزيد بن مخلد قونيه ويوفسيوس وليديا ، وفتح شرحبيل ابن معن بن زائدة أربع مدائن أخرى من أشهر مدن الروم ، وفتحت هرقله وهزم الأعداء في كل مكان فطلبوا الصلح وأجاب الرشيد طلبهم وفرض الجزية على نقفور وعلى أفراد أسرته وبطارقته وأهل بلده فدفع ٣٠٠ الف دينار

جدد الروم القتال في سنة ١٩٨ هـ وأغاروا على أطراف الدولة وأنزلوا بالمسلمين خسائر فادحة في مرعش وطرسوس ولم يستطع الرشيد الرجوع اليهم بسبب ثورة رافع بن ليث في خراسان وتأهبه للخروج الى محاربة هذا الثائر بنفسه

هذا وينتقد المؤرخون الرشيد من الأتقاد بسبب تساهله مع الروم وقعوده عن مطاردتهم والقضاء عليهم، إذ كان في استطاعته طردهم جملة من آسيا الصغرى بل والاستيلاء على القسطنطينية عاصمة ملكهم

ثانيا : علاقة الرشيد بشرلمان :

أرسل شرلمان امبراطور الدولة الرومانية المقدسة سفراء من قبله الى بغداد لاغراض مختلفة منها أنه طلب حماية المسيحيين الذين يخرجون الى بيت المقدس بقصد المتاجرة أو تادية فريضة الحج، ومنها أن طلب شرلمان من الرشيد المعاونة لأسقاط نقفور والتغلب على الدولة البوزنطية، وقد هرع طلاب العلم من الفرنجة الى بغداد يتهلون موارد العلم فيها ويعملون على نقل الثقافة العربية الى بلاد الغرب، وكان رسل شرلمان يحملون الهدايا الثمينة الى الرشيد، كما أن الرشيد أرسل له هدايا ردا على هداياه، منها ساعة وفيل وأقشنة شرقية، ويقول موير ولم تتعد الصداقة بينهما هذا الحد

أولياء عهد الرشيد :

ولد عبد الله المأمون بن الرشيد في اليوم الذي تولى فيه أبوه عرش الخلافة وولد أخوه محمد الأمين بعده بشهور من أم أخرى وهي زبيدة حفيدة المنصور فكان المأمون أكبر من أخيه الأمين وأحق منه بولاية العهد ولكن الرشيد عقد ولاية العهد لابنه الأمين في سنة ١٧٣ هـ وكان سنه لا يتجاوز ثلاث سنوات، ولما استوزر الرشيد جعفر البرمكي أشار عليه أن يعقد لأخيه المأمون أيضا ليكون ولي العهد بعد أخيه، ففعل الرشيد ذلك أيضا في سنة ١٨٣ هـ ثم طلب عبد الملك بن صالح من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم ففعل الرشيد ذلك أيضا في سنة ١٨٦ هـ وسماه المؤتمن

ثم قسم البلاد بين أولاده الثلاثة « فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والرى الى همدان ، وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام ، وجعل للمؤمن الجزيرة والثغور والعواصم »

ولقد القى الرشيد بذلك بأسهم بينهم، ووضع بيده بذور الفتنة والشر وفي هذا المعنى يقول أحد شعراء ذلك العصر أبياتا منها

رأى الملك المهذب شر رأى لقسمته الخلافة والبلادا
فقد غرس العداوة غير آل وأورث شمل الفهم بدادا
وألقح بينهم حربا عوانا وسلس لأجتناهم القيادا
ستجرى من دمائهم بحور زواخر لا يرون لها نفاذا
فوزر بلائهم أبدا عليه أغيا كان ذلك أم رشادا

وفي تلك السنة حج الرشيد ومعه الأمين والمأمون وقواده ووزرائه وقضاته . وهناك كتب للمأمون كتابين اشهدا الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما احدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والاخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة . والشروط للمأمون على الأمين ، وجعل الكتابين في البيت الحرام ، وطلب من الاخوين القسم على احترام ماجاء بالكتابين ، والعمل بهما ، وفي الكعبة اقسام الاخوان (راجع نص القسم والكتابين في ابن الاثير) ان يحترما رغبة الخليفة . ثم كتب الرشيد الى العمال والولاة بذلك . ويلاحظ أن زبيدة كانت من حجاج ذلك العام وشيدت على نفقتها الخاصة البئر المعروف باسمها حتى يومنا الحالى

وفاة الرشيد وأخلاقه :

خرج الرشيد من بغداد في شهر شعبان سنة ١٩٢ هـ قاصدا خراسان

لائخاد ثورة رافع بن ليث كما تقدم . وترك ابنه القاسم في الرقة ومعه قائد يسمى خزيمة بن حازم . وترك الأمين ببغداد . واستصحب المأمون وزحف على خراسان ولكنه عند ما وصل الى قرية تسمى سنباد بجوار طوس (مسقط رأس الفردوس الشاعر) مرض واشتد عليه المرض ومات في ريعان شبابه في السنة الثانية والاربعين من عمره في يوم السبت رابع جمادى الثانية سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) بعد أن حكم حكما زاهرا لمدة ثلاث وعشرين سنة وستة شهور

يعد الرشيد من أكبر ملوك التاريخ وأبطاله . وكان شديد الانفعال إذا غضب ولكنه كان جامحا لنفسه متفانيا في خدمة شعبه ، عاملا على رقيه وتقدمه ، ساهرا على أمور مملكته الواسعة ، عالما بدقائق أحوالها ، وقد حج تسع مرات وكان يصلي في اليوم مائة ركعة فاشتهر بالورع والتقوى وكان بلاطه أنخم بلاط في عصره ، أمه الشعراء والكتاب والمغنون من كل فج ليستفيدوا من عطاء الخليفة وسخائه ، وفي أيامه ازدهرت العلوم والآداب ، وارتقت الفنون الجميلة ارتقاء عظيما ، وكان يجلب العلم والعلماء ويميل الى الأدب وأهله ، وكان يكره المرء في الدين . وفي عصره قام الفقهاء وعلى رأسهم قاضى القضاة أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى ونظموا مذهب الحنفية ، وكتب أبو يوسف كتابا في الخراج وهو من أجل الآثار التاريخية والاقتصادية للدولة الاسلامية . وقد شجع الرشيد حركة النقل والترجمة التي كانت قد ابتدأت في عهد المنصور ، وفي أيامه عاش الاصمعي والشافعي وعبد الله بن ادريس وعيسى بن يونس وإبراهيم الموصلى وجبريل بن بختيشوع الطيب وغيرهم ، وهؤلاء مكانة في عالم الأدب والفقهاء والنحو مما لا يجهله العلماء . هذا وقد بلغت بغداد في عهده من الحضارة وسعة العمران ما لم تبلغه مدينة أخرى في تلك العصور

٢ - محمد الأمين

(١٩٣ - ١٩٨ هـ) (٨٠٩ - ٨١٣ م)

ولد الأمين سنة ١٧٠ هـ بعد أخيه المأمون بستة شهور، وأمه هي زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، فكان هاشميا من أبيه وأمه، وهو أمر لم يتفق لخليفة عباسي غيره، ولما توفي الرشيد في مدينة طوس كان الأمين في بغداد، فحمل صاحب البريد خبر وفاة الخليفة إلى العاصمة، وجاء صالح ابن الرشيد - وكان مع والده عند الوفاة - بالعباءة والسيف وسلمها إلى الأمين، وانتقل من قصر الخلد الذي كان يسكنه إلى قصر الخلافة، وفي اليوم التالي خرج إلى الجامع الكبير، وصلى بالناس، واعتلى المنبر وخطب خطبة العرش، وبويع بالخلافة، وأرسل إليه المأمون - وكان في مرو - بالهدايا الثمينة وهناه بالخلافة وبايعه بها، وكذلك أسرع أخوه القاسم وكان في قنسرين وبايعه بالخلافة، وأما زبيدة فكانت بالرقعة، ولما بلغها خبر اعتلاء ابنها العرش رجعت إلى بغداد، وخرج الأمين للقائها وقابلها عند مدينة الأنبار، ودخلا بغداد في موكب عظيم، وقد ظلت بجانب ولدها حتى مات

تربية الأمين وأخلاقه :

عهد الرشيد بتربية الأمين للفضل بن يحيى بن خالد البرمكي كما مر بنا وقام بتربية المأمون جعفر بن يحيى بن خالد، وقد نال الأخوان تربية عالية، وتهذيبا تاما، وتعلما بالغا، فتلقيا علوم البيان والبديع والمعاني والفقه والحديث، وكانا يجيدان الخطابة، غير أن التعليم أثمر ثمرته المطلوبة في عقل المأمون، واقتصرت فائدته عند الأمين على ما كان من تهذيب خلقه، وذلك لما كان يظهره من انصراف عن الدرس، وميل إلى السرور واللهو،

أما المأمون فقد حفظ القرآن وأجاد تفسيره ، واشتهر بالحكمة وبعد النظر وقد فطن الرشيد الى ما بين الأخوين من تفاوت في الأخلاق والكفاية الشخصية ، فعهد بأمر الشرق وحربه ودفاعه وخرجه الى المأمون حتى لا يجد أعداء الدولة فرصة للايقاع بها

كان الأمين تنقصه الدربة السياسية ، « وأنت تعلم أن الدربة السياسية هي ناحية يؤبه لها كثيرا ، في تنمية روح الحكم ، وتقوية المواهب الادارية وتنظيم ملكات السلطان في ولى العهد ، خصوصا ذلك العصر الذى لم تكن فيه وسائل الثقافة الملكية متوفرة توافرها اليوم : من سياحة لولى العهد الى الممالك المتمدية ، ووقوف على مبلغ الحضارة العالمية ، كما هي حال ولى عهد إنجلترا ونظرائه مثلا ، مع أن الحاجة الى الثقافة السياسية في ذلك العصر كانت أشد منها اليوم ، لأن الملك حين ذاك كان صاحب سلطان فعلى مطلق غير مقيد بقانون أو دستور إلا ما يرجع الى دينه وورعه . » ، وقد أجمع المؤرخون على أنه كان مستهترا مسرفا ، « مع خور خلقى وعدم تبصر في العواقب ، ولا ترو في مهمات الأمور » ، ولا أدل على إسرافه مما رواه أحد المعاصرين له وهو سعيد بن حميد فإنه يقول : لما ملك محمد وجه الى جميع البلدان فى طلب الملهمين وضمهم اليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، ونافس فى ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطيور وغير ذلك ، واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما فى بيوت الأموال وما بحضورته من الجواهر على خصيائه وجلسائه ومحدثيه ، وحمل اليه ما كان فى الرقة من الجواهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتزهاته ومواضع خلوته ولهووه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية ، وبستان موسى وغيرها ، وأمر بعمل خمس حراقات فى دجلة ، على خلقة الأسد

والفيل والعقاب والحية والفرس ، وانفق في عملها مالا عظيما وقال ابونواس
شعرا في هذا المعنى يمدحه منه

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ماركابه سرت برا سار في الماء راكبا ليث غاب

وذكر الحسين بن الضحاك ، وهو شاعر الأمين ، شيئا عن اسراف
الخليفة ، قال : « ابنتي الامير سفينة عظيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف الف
درهم ، واتخذ أخرى على خلقة شيء يكون في البحر يقال له الدلفين » ، وقال
أبو نواس في ذلك شعرا أيضا ، وقد روى المؤرخون روايات أخرى كلها
تدل على تبذير الخليفة وعدم تقديره للمال . وقال المسعودي في وصف أخلاق
الأمين ما يأتي : « إن الأمين كان باسطا يده بالعطاء ، قبيح السيرة ، ضعيف
الرأى ، سفاكا للدماء ، يركب هواه ، ويهمل أمره ، ويتكل في جليلات
الخطوب على غيره ، ويثق بمن لا ينصحه » ، وقال ابن الأثير « لم نجد للأمين
شيئا من سيرته نستحسنه فنذكره . ووصفه الفضل بن الربيع وزيره
ووزير أبيه من قبله بقوله : « ينام نوم الظربان لا يفكر في زوال نعمة ،
ولا يتروى في أمضاء رأى ولا مكيدة ، قد ألماه كأسه وشغله قدحه ، فهو
يجرى في لهوه ، والأيام تسرع في هلاكه » ، وورد في كتاب عصر المأمون
صحيفة ٢٠٣ المجلد الأول ما يأتي : « وهناك ظاهرة خلقية في أخلاق
الأمين ، وهي حبه للاستخارة واحتفاله بالبحث عن أمر طالعه ، وركونه
حتى في آخر لحظة من حياته ، وهي لحظة التقرير في مصيره ، الى منام
رآه وسرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يحفل في مهام
أموره بالاستخارة ووحى الاحلام . بل كان يجعل جل اعتماده على مشورة
رجالته وذوى النصيحة من أنصاره » ، « وكان طيب القلب ، يعفو حتى

عن الخارجين عليه ، والمسيتين إليه ، وأن موقفه مع حسين بن علي بن ماهان
لمعروف مشهور .

أحوال الدولة الداخلية في عهده :

أولا : التنافس بين الأئمين والمأمون

جرى الرشيد على سنة تقسيم البلاد بين بنيه ، وسن لهم نظاما لولاية
العهد بما تقدم ، فكان ذلك سببا في قيام المشاكل والحروب بين الاخوين
وذلك أن الرشيد أوصى وهو بطوس بالجيش الذي كان معه وبالمال
والسلاح إلى ابنه المأمون ، وجدد له البيعة على القواد الذين كانوا معه ،
وكان الأئمين يتوقع وفاة أبيه ، فأرسل رسوله بكر بن المعتمر بخطابين
يسلمان لصاحبيهما بعد وفاة الخليفة ، وكان أحدا الخطابين للمأمون يعزیه فيه
عن أبيه ، ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله للأئمين بالخلافة ، وللمأمون
بولاية العهد ، وللقاسم المؤتمن بعده ، أما الخطاب الثاني فكان لصالح
ابن الرشيد يأمره فيه بالاجتهاد ، وأن يأخذ البيعة على من معه ، ثم للمأمون
ثم للمؤتمن على الشريطة التي اشترطها الرشيد ، وطلب منه أن يسير إليه
بجميع الجنود والذخائر والسلاح ، والا ينفذ رأيا أو يبرم أمرا إلا برأى
الفضل بن الربيع ، فانتهر الفضل هذه الفرصة وأمر الناس بالرحيل ، ففعلوا
ذلك ، « محبة منهم للحاق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا العهود التي كانت
أخذت عليهم للمأمون » ، ولما وصل الفضل إلى بغداد بايع الأئمين بالخلافة
وفرح به الأئمين فرحا شديدا واستوزره ووكّل اليه تدبير الملك ، وأمره
بتوزيع مرتبات الجند لهم مدة سنتين مقدما

بلغ المأمون خبر عودة الجند إلى أوطانهم ، فلم يزعج بل جمع ثقة
أصدقائه ومنهم الفضل بن سهل — وكان فارسي الأصل اشتهر بحصافة
الرأى وإصالة الفكر — وشاورهم في الأمر فرأى فريق أن يرسل المأمون
ألفين من رجاله إثر الجيش ليردوه إليه ، ولكن الفضل رأى أن يكتفى
بأرسال رسل يذكرون القوم بسابق عهدهم ، وأخذ المأمون برأى الفضل
ابن سهل ، وارسل رسولين بكتاب إلى زعماء الجيش وقواده ، ووصل
الرسولان وكان الجيش بنيسابور ، فلم يعر القواد طلب المأمون التفاتا
وصمموا على العودة إلى بغداد وعلى رأسهم الفضل بن الربيع ، ولما وقف
الفضل بن سهل على الخبر ، قال للمأمون « أعداء استرحت منهم »
وأخذ المأمون بعد ذلك يعزز مركزه في خراسان ، فاتبع سياسة رسمهاله
مستشاره الأمين الفضل بن سهل ، وتقرب من وساء العشائر وتحبب إلى
رعيته وخفض الضرائب ، وبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء ، ودعاهم إلى
الحق والعمل به ، وإحياء السنة وأخذ يقيم العدل بين الناس ويرد المظالم ،
حتى سر به أهل خراسان سرورا عظيما ، وعاضدوه وناصروه ، وقالوا
« ابن أختنا وابن عم نبينا صلى الله عليه وسلم » إذ كانت أمه فارسية الأصل ،
وأصبح مركزه في تلك البلاد قويا ومع ذلك فقد ظل أمينا على عهده ،
وتواترت كتبه إلى أخيه محمد الأمين بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان ،
من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح ، ولم يكن في نية الأمين
أن يسير إلى ابعده مما كان فيه نحو أخيه وكان في عزمه الوفاء لآخره المأمون
والقاسم ولكن « البطانة لعبت دورا شنيعا ، في إشعال جذوة الحقد
والسخيمة بينهما ، وعملت على إضرار أوارها ، وسعت جهدها في توسيع
مسافة الخلف بين الأخوين »

أخذ الفضل بن الربيع ، بعد أن نكث بعهده للمأمون ، يزين للأمين خلع المأمون من ولاية العهد ، إذ علم أن الخلافة أن أفضت الى المأمون يوماً وهو حي لم يبق عليه ، وكان يتربح في ظفره به عطبه ، وخضع الأمين لمشورة وزيره الداهية ، وصرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى ، وكتب الى جميع العمال في الامصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالأمرة ، بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد ، وكان ذلك في سنة ٥١٩ هـ ، ثم عزل أخاه القاسم عما كان ولاه أبوه من الاعمال ، وأقدمه بغداد ، فلما بلغ ذلك المأمون وعرف أن أخاه يدبر خطة لخلعه قطع البريد عنه ، وأسقط اسمه من الطرز ، ومن ثم ابتدأ بين الأخوين نوع من الصراع السياسي ، يديره الفضل بن الربيع من جانب الأمين ، والفضل بن سهل من جانب المأمون وقد اتصف هذان الوزيران بالحنكة السياسية والمكر والخداع ، وبذل كل منهما جهد طاقته للانتصار على منافسه ، ونشبت بين الطرفين حرب كلامية كانت بلا ريب مقدمة لوقوع الحرب العامة ، وأرسل الأمين في السنة عينها وفداً سياسياً الى المأمون ، على رأسه العباس بن موسى بن عيسى ، ليطلب اليه تقديم موسى بن الأمين الذي سماه « الناطق بالحق » على نفسه في ولاية العهد ، واستقبل المأمون الوفد وأكرمه اكراماً كبيراً ، وامتنع عن اجابة طلب الخليفة ، ولما عاد الوفد واخبر الأمين بامتناع المأمون ، ألح عليه الفضل بن الربيع وعلى بن ماهان في البيعة لابنه موسى وخلع المأمون ، فأجاب الأمين الى ذلك ، وورد في كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٢٩ ما يأتي : « لم يكتف الفضل بهذا ولا بالكثير من أمثاله ، مما ينتظر من مثله في مثل تلك الظروف ، من نبيه عن ذكر عبد الله المأمون والقاسم بن الرشيد ، وحظر الدعاء لها على المنابر ، بل دس من ذكر المأمون بسوء ، وحط من قدره ، ولصق به أقبح النقائص والمثالب ، ووصمه بأشنع الوصمات والمعائب . ولم يكتف

الفضل بهذا ، بل وجه الى مكة كتابا مع محمد بن عبد الله ، أحد سدنة البيت الحرام ، فأتاه بالكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما لعبد الله المأمون على محمد الأمين ، وكان حظهما من الأمين لما صار إليه حظ غيرهما من العهود في ذلك العصر « والمعاهدات » و « قصاصات الورق » في عصرنا الحاضر ، فزقيهما وأبطلهما ، وأجاز سارقهما . »

اشتدت الحرب الكلامية بين الأخوين اشتدادا عظيما ، وبالغ المأمون في حذره ، وأخذ هو وحزبه الحبيطة والاستعداد للطوارئ ، فوجهوا حراسا من قبلهم على الحدود ، حتى لا يتركوا للأمين أولرجاله فرصة للاتصال بأحد من أتباع المأمون ، ودس الفضل بن سهل قوما اختارهم ، ممن يثق بهم من القواد والوجوه ببغداد ، ليكتبوه بأخبار الأمين وجماعته يوما فيوما ، « وكان التجسس لذلك العهد فنا منظما متقدما »

ازداد الخلاف بين الأخوين زيادة أدت بالخليفة أن يعتمد الى استعمال القوة الحربية لأخضاع المأمون ، وأعلن المأمون نفسه خليفة ، وجعل ابن سهل وزيره ، وأسند اليه الأعمال الحربية والادارية ، وتلقب بنى الرياستين وامتد ملك المأمون من حمدان إلى تبت ، ومن بحر قزوين الى الخليج الفارسي ، ولما علم رافع بن ليث بعدل المأمون سلم ودخل في طاعته ، ثم أخذت العداوة تتعاظم بين الأخوين ، وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان ، وأبطل كل منهما اسم أخيه من الخطبة ، وبقدر ما كان عند المأمون من اليقظة والحزم ، كان عند الأمين من الاهمال والتفريط والغفلة ، واستمر في ملذاته بين الجوارى ، يدير الكؤوس ويسمع الموسيقى والغناء ، ويشهد الرقص من مائة جارية ، يرقصن معا ثم يختفين ويعدن في عشرات كل تحمل أوراق النخيل أو الزيتون حتى هزمت جيوشه في الميادين ، وظفر به أعداؤه في النهاية

ثانيا: الحرب بين الأئمين والمأمون (١٩٥-١٩٨ هـ)

رفض المأمون مطالب الأئمين، فعمد إلى استعمال القوة لاختضاعه، وعقد لعلي بن عيسى بن ماهان على نهاوند وهمدان وغيرهما من البلدان، وضم إليه جماعة من القواد، وأمر له بمائتي ألف دينار وسيوف محلاة وخلع وثياب، وفي ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٩٥ هـ خرج القائد ومعه أربعون ألف مقاتل من بغداد لمقاتلة المأمون، وحمل معه قيادا من الفضة ليقيد به المأمون عند ما يقبض عليه، وتابع سيره حتى نزل همدان، ومنها زحف حتى وصل مدينة الري، وكان المأمون قد أرسل طاهر بن الحسين ليدافع عن الحدود، وكان معه نحو أربعة آلاف من الجنود، فخرج لملاقاة جند الأئمين، ووقع القتال بين الطرفين وانتصر طاهر نصرا مبينا، وقتل قائد الأئمين، وكتب طاهر إلى الفضل بن سهل يبشره بالنصر كتابا قصيرا جاء فيه: «أطال الله بقاءك، وكبت أعدائك، وجعل من يشنك فداك، كتبت إليك ورأس علي بن عيسى في حجرى وخاتمه في يدي، والحمد لله رب العالمين»، فلما وصل الكتاب إلى الفضل نهض فسلم على المأمون بأمر المؤمنين، وأمد طاهرا بالرجال والقواد وسماء ذا اليمنين وصاحب جبل الدين، وكان من نتائج هذه الهزيمة أن ثار الجند ببغداد وطلبوا الأرزاق لاعتقادهم أن محمدا أصبح في حاجة إليهم، فأجاب الأئمين مطلبهم، وأعطاهم أرزاق أربعة أشهر، ثم وجه قائدا من قواده يسمى عبد الرحمن بن جبلة الأتباري في عشرين الف رجل إلى همدان لقتال طاهر، ووصل عبد الرحمن إلى همدان وحصنها، واستعد للقتال وخرج إليه طاهر، واقتتل الفريقان

قتالا عنيفا انتهى بخذلان عبد الرحمن وقتله ، وانتصر طاهر ثم زحف على قزوین ودخلها بعد أن فر عاملها من قبل الأئمين ، وجعل فيها جندا كشيفا وولاهها رجلا من أصحابه

اضطربت الأحوال في بغداد ، ورأى الفضل بن الربيع أن يسند قيادة الجند إلى قائد قدير ، وهو اسد بن يزيد بن مزيد ، فقبل القيادة على شروط لم يوافق عليها الأئمين ، وغضب عليه وسجنه ، واسند القيادة إلى أحمد بن مزيد ، وأمر الفضل أن يدفع إليه ذخائر اسد ، وأن يضم إليه من شهد العسكر من رجال الجزيرة والاعراب ، وبلغ عددهم نحو عشرين الفا ، ثم ضم إليه قائدا آخر هو عبدالله بن حميد بن قحطبة في عشرين الفا أخرى وأمرهما أن ينزلا حلوان ويدفعا طاهرا عنها ، فتوجها حتى نزلا قريبا من حلوان ، فدس طاهر الجواسيس إلى عسكريهما ، فوقعوا الخلاف بين القائدين فتقاتلا ورجعا من حيث أتيا ، فتقدم طاهر ودخل حلوان في سنة ١٩٦ هـ ،

أرسل المأمون هرثمة بن أعين ، ومعه كتاب إلى طاهر يأمره فيه أن يسلم له الكور والمدن ويتوجه إلى الاهواز ، فسلم ذلك إليه ، وأقام هرثمة بحلوان فحصنها ، ووضع مسالحه ومراصده في طرقها وجبالها . وتوجه طاهر إلى الاهواز ليستعد للهجوم على بغداد من الجهة الأخرى ، وبذلك استعد القائدان هرثمة وطاهر للزحف على عاصمة الخلافة من الشرق والغرب

ازدادت الحالة سوءا في دار الخلافة ، وضعف مركز الخليفة لاهماله واستمراره في غيه ، وثارَت الشام في وجهه بقيادة السفيناني على بن عبد الله ابن خالد بن يزيد بن معاوية ، الذي طلب الخلافة لنفسه ، ودخل دمشق

وطرد عاملها من قبل الأئمين ، وأخضع ما حول الشام ، ولم يستطع الخليفة إخماد تلك الثورة بسبب ضعف السلطة المركزية في بغداد ، وظلت تلك الثورة قائمة ثلاث سنين ، وكاد الثائر ينجح ، لولا ما كان من شقاق بين مضر وحمير ، وفي تلك الأثناء خرج داود بن عيسى بن موسى عامل الأئمين على مكة والمدينة على الخليفة ، عند ما علم بمخلع الأئمين للمأمون ، وأخذه الكتائب الذين كانوا بجوف الكعبة وتمزيقها ، وأعلن خروجه على الأئمين ، وبإيعام المأمون ، وأجابته إلى ذلك أهل مكة ، وفي رجب سنة ١٩٦ هـ نادى في البيت الحرام بمخلع الأئمين وبيعة المأمون ، ثم كتب إلى ابنه سليمان ، وكان في المدينة ، يأمره أن يفعل بها ما فعل بمكة ، ثم سار إلى مرو وقابل المأمون وأخبره بما تم في الحجاز ، فسر المأمون سرورا عظيما ، وأقر داود على ولاية الحجاز ، وكان الأئمين قد أرسل الحسين بن علي بن عيسى إلى الشام لاختماد الثورة بها ، ولكنه أساء جند الشام بتفضيل الخراسانيين عليهم ، وعاد فجأة إلى بغداد فوصلها ليلا ، وأرسل الأئمين في طلبه فاجابه بقوله : « الوقت ليل ، ولما لم أكن نديما ولا مضحكا ولا مغنيا ، فموعدنا الصبح » ، وكان قد عزم على خلع الأئمين ، فاذا كان الصبح هيج القوم ببغداد ، وأبان لهم ما سيكون من نصر قريب للمأمون ، وطلب اليهم أن يعلنوا انضمامهم إليه ، وسار يقودهم حتى عبر دجله ، وشتت حرس الأئمين ، وقبض عليه وعلى أمه زبيدة وسجنهما في قصره ببغداد ، وأعلن الخلافة للمأمون ، ولكن القوم في بغداد ما لبثوا أن ثاروا في وجه الحسين وقبضوا عليه ، وأعادوا الأئمين إلى عرشه ، وقدموا إليه الحسين فغفا عنه ، وأنعم عليه وولاه قيادة الجند ثانية ، ولكنه ما كاد يخرج من المدينة حتى سخر منه جنده ، وصاحوا به فهرب ، وجد

الجند في اللحاق به فأدركوه وقتلوه ، وعلى أثر ذلك الحادث اعتزل الفضل
ابن الربيع العمل ، لأنه كان من المشجعين لخطة الحسين في الخروج
على الأمين

ثالثاً : الاستيلاء على بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ

سلم طاهر القيادة الى هرثمة في حلوان ، وذهب الى فارس فاستولى عليها
بعد أن قتل عاملها محمد بن يزيد المهلبى ، ثم خرج من فارس بعد أن
نظمها ، متوجها الى واسط ودخلها ، ومنها وجه قائداً الى الكوفة
وكان عليها العباس بن موسى الهادى من قبل الأمين ، فبادر الى خلعه
ومبايعة المأمون وبذلك تم لطاهر ما بين واسط والكوفة ، وبايع أمير
البصرة المأمون ، وكان ذلك كله في رجب سنة ١٩٦ هـ ، ثم سار طاهر الى
المدائن واستولى عليها من غير قتال ، ثم تقدم نحو بغداد ، وعسكر بجنده
على الجهة الغربية المقابلة لها وحاصرها ، وكان هرثمة قد وصل بجيشه من
الجهة الشرقية ، وحاصرها من جهته كذلك ، واستمر الحصار سنة لاقت
فيها المدينة كل ضروب الشدة ، وعمت فيها الفوضى ، وفتحت السجون
وفر السجناء ، ودافع أهل بغداد عنها دفاعاً قويا ، ومات من الطرفين خلق كثير ،
ثم دخل طاهر المدينة ، ودار القتال في شوارعها ، وخرب طاهر أحياء
كاملة ، ومنع القوات عن القوم فزادت مصائبهم ، وكان منظر الأطفال
والنساء وهم يموتون جوعاً يذيب القلوب ، وهدمت القصور الفخمة ،
وأصبحت بغداد في حالة يرثى لها

عندئذ أخذ قواد الأمين ينضمون الى طاهر ، ولما خلت خزائنه من
الأموال ، اذاب ما عنده من أنية ذهبية وفضية ، ليستعين بها على الدفاع عن
نفسه ، بتوزيعها على الرجال ، فوقف أهل المدينة الى جانبه ، واستمر القتال

حتى سنة ١٩٧ هـ ، وأخيرا صمم طاهر على أخذ المدينة عنوة ، واتفق مع هرثمة على الهجوم ، وقاما معا بذلك ، ولما وجد الأمين أن الأمر قد أفلت من يده ، ودع أهل بيته وداعا مؤثرا ، وخرج من قصر الخلد الى قصر القرار حيث أقام ثلاثة أيام كانت الباقية له من حياته ، وكان يقيم معه عمه ابراهيم ابن المهدي ، ولم يكن الأمين إذ ذاك سوى أحد أمرين ، إما أن يسلم نفسه وأما أن يهرب ، ففكر في الهروب الى الشام ، وكان طاهر يعلم بما يدور في نفس الامين ، فهدد من تبقى من رجال الأمين بشديد العقاب إن لم يجبروه على التسليم ، فاغروه بذلك ولكنه رفض أن يسلم نفسه لطاهر ، وقبل أن يكون ذلك لهرثمة ، فعارض طاهر في ذلك مخافة أن ينسب النصر لزميله ، وأخيرا اتفقا على أن يسلم الأمين نفسه لهرثمة ، ويتسلم طاهر خاتم الملك وعباءة الخلافة وسيف الخليفة

سار هرثمة بالامين الى شط النهر لنقله الى معسكره ، وكان قد أعد قاربا لذلك ، وعامله بكل أدب واحترام ، ولكن ما كاد القارب يتعد عن الشاطئ قليلا حتى رجمه جند طاهر من الفرس بالحجارة ، وأمطروه وابلا من السهام ، فانقلب الزورق بمن فيه وكاد هرثمة يغرق لولا أن انتشله أحد القوم من شعر رأسه ، وعبر الامين النهر سباحة حتى خرج ، وكاد يموت بردا وقبض عليه الجند وقادوه الى منزل صغير ، فاذا كان الليل هاجمه جماعة من الفرس وقتلوه ، وفصلوا رأسه وأرسلوها الى طاهر فعرضها على أسوار بغداد ، ثم أرسلها الى المأمون مع بقية شارات الملك ، وكان موت الامين ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ هـ — سبتمبر سنة ٨١٣ م

يقول موير « إن انتصار المأمون على الامين كان يماثل انتصار العباسيين على الأمويين ، إذ كان انتصارا للفرس على العرب »

البحر المصنوع

عصر المأمون

١ - عبد الله المأمون

(١٩٨-٢١٨ هـ) - (٨١٣-٨٣٣ م)

ولد المأمون في اليوم الذي تولى فيه أبوه الخلافة ، وكان ذلك في سنة ١٧٠ هـ . وكانت أمه فارسية الاصل تسمى مراجل ، ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره عين وليا للعهد بعد أخيه الأمين ، وتولى عرش الدولة بعد قتل أخيه وكان إذذاك في الثامنة والعشرين ، ودخل الناس في بيعته عامة واعترف الجميع بخلافته اعترافا جليا صريحا ، ولكنه ظل في مدينة مرو عاصمة خراسان ولم يتركها إلى بغداد عاصمة الخلافة كما كان يفعل الخلفاء الذين سبقوه ، ووثق بالفضل بن سهل وثوقا تاما ، وأجاز له تصريف شؤون الدولة وفق ما اراد ، واشتغل هو بالمسائل العلمية والفلسفية ، وصرف وقته في المجادلات والمناظرات الكلامية بين جمهور العلماء الذين هرعوا إليه وأموا بلاطة في مرو من كل حذب وصوب ، فنشأ عن ذلك أن قامت الفتن في أنحاء العراق وفي بلاد العرب ومصر ، ونشط العلويون نشاطا كبيرا ورأوا ، هم وشيعتهم ، أن الظرف مؤاقي لاسترداد كرسي الخلافة والقضاء على الحكم العباسي ، واليك بيان تلك الحوادث

أحوال الدولة الداخلية في عهده :

أولا : الفترة الاولى (١٩٨ - ٢٠٤ هـ)

أقام المأمون في مدينة مرو حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ هـ ، وفي

أثناء تلك المدة كان الفضل بن سهل وزيره الأكبر مطلق اليد في إدارة شؤون الدولة وتصريف أمورها، واستأثر بالنفوذ والسلطان وعصب عيني الخليفة عما كان يجري في أنحاء الامبراطورية، وبذل جهد طاقته حتى أقام أقاربه وأصهاره وأعوانه حكما وولاة، وأطلق لهم العنان في جميع الشئون، ورأى أن الامر لا يتم له إلا إذا أبعده عن العراق كلا من هرثمة ابن أعين وطاهر بن الحسين، وهما القائدان القديران اللذان انتزعا الخلافة من الأميين بجحديسيو ففهما وحسن بلائهما في الحروب، وأقاما مكانه أخاه المأمون كما مر بنا

استصدر الفضل أمرين من المأمون، أولهما بتولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والاهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن، وطلب الى طاهر أن يسلم الوالى الجديد جميع ما بيده من الاعمال، وأن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر بن شيبان العقيلي الذي ثار في سنة ١٩٨ هـ مطالبا بثأر الأميين صديقه، وكان الامر يتضمن تولية طاهر الموصل والجزيرة والشام والمغرب، وقد أطاع طاهر أمر الخليفة وخرج من العراق غاضبا لملاقاة الثائر، ولكنه لم يجد في مقاتلته لما كان في نفسه من غضب وألم، وانتصر نصر وظل ثائرا حتى سنة ٢١٠ هـ، فتغلب عليه المأمون وانتصر عليه قائده عبد الله بن طاهر، وسلم نصر بعد أن طلب الأمان وأجيب إلى طلبه وتوجه إلى العاصمة حيث وكل به من يقوم بحراسته أما الأمر الثاني فكان إلى هرثمة بن أعين يكلفه به أن يشخص إلى خراسان فصعد بالامر، وخرج من العراق قاصدا خراسان، «وبذلك خلا العراق من أسديه - كما ورد في كتاب الخضرى بك صحيفة ١٩٦- وأهل العراق

من قديم عبيد القوة ، ولاسيا أنهم خارجون من ثورة وهياج ، فكان من
اللازم أن تظل تلك الأيدي المرهوبة حتى يستكين الناس ويخضعوا . «
غضب بنو هاشم ومن كان بالعراق من وجوه القوم لاستسلام المأمون
لوزيره الأكبر ، واستخفوا بالحسن بن سهل ، فانفرط عقد النظام والأمن
وتحركت الفتن والثورات في البلاد والأمصا ، فخرج محمد بن ابراهيم
ابن اسماعيل بن الحسن بن الحسن بن علي بالكوفة وعاضده أبو السرايا
السرى بن منصور الشيباني ، وكان سابقا من رجال هرثمة المخلصين ، واستطاع
محمد ويعرف بابن طباطبا بمعاونة صديقه أن يستولى على البصرة ومعظم
بلاد العراق ، وضرب نقودا باسمه وكتب عليها : « إن الله يحب الذين يقاتلون
في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » ، وانتصر على جيش أرسله اليه الحسن
ابن سهل بقيادة زهير بن المسيب ، وأرسل رسله الى مختلف بلاد العرب
ينشرون دعوته ، ولكنه مات فجأة في أول رجب سنة ١٩٩ ، فاقام أبو السرايا
مكانه علويا آخر وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين ، وكان غلاما
أمرد ، فأرسل الحسن بن سهل جيشا ثانيا ، فانتصر عليه أبو السرايا انتصارا
باهرا في رجب من السنة عينها ، وقتل قائده ، واستباح عسكره ، وكبر شأن
أبي السراي نتيجة لهذه الانتصارات ، واشتد ساعد العلويين ، وخاف الحسن
ابن سهل عواقب انتشار الفتن ، ورأى أن هرثمة هو القائد الذي يستطيع
أن يقضى على تلك الثورة ، فأرسل اليه يسأله العودة الى بغداد ، وكان قد
وصل الى حلوان ، فأبى العودة ، ولكن الحسن ألح عليه راجيا ، فعاد وجهز
نفسه للزحف على الكوفة . وبعد أن اختار جنده خرج بهم ، واستولى على
المدائن ، وطردها عمال أبي السرايا ، وعند قصر ابن هبيرة تقابل مع
قوات الثائر وتغلب عليها ، وفر أبو السرايا الى القادسية في المحرم سنة ٢٠٠ هـ

ودخل هرثمة الكوفة وأمن أهلها ، ثم خرج أبو السرايا من القادسية الى مدينة السوس من بلاد فارس ، وهناك قابله الحسن بن علي المأمونى وقاتله قتالا شديداً ، وتغلب عليه ، وجرحه جرحاً بليغاً ، وفر من الميدان طالباً منزله برأس العين ، ولكنه وقع في يد رجال ابن سهل ، وكان مقبياً بالنهروان فأحضره اليه فضرب عنقه ، وأرسل رأسه الى المأمون فى مرو ، وبعث بجسده فصلب على جسر بغداد ، واستراح المأمون من شر تائر قوى دامت ثورته عشرة أشهر ، أما غلامه العلوى فقد عفا عنه المأمون وأدخله فى حاشيته استرجع جيش المأمون البصرة ، وأخذ عاملها من قبل أبى السرايا أسيراً وكان رجلاً ظالماً عرف بالحراق ، لكثرة من أحرق من العباسيين بالنار ، وما أحرقه من دور البصرة ، ثم استمرت قوات الخليفة تعمل على استرجاع البلدان فى الحجاز واليمن من العمال العلويين الذين كان أبو السرايا قد أقامهم يحكمون باسم خليفته ، وكان هؤلاء الولاة قد ساءت سيرتهم ، وكثرت شرورهم ، وبخاصة فى مكة والمدينة ، مما أدى الى إثارة الرأى العام ضدهم . وانتشرت الفوضى فى سنة ٢٠٠ هـ فى موسم الحج ، اذ تولاه اكثر من شخص لتعدد السلطات ، « فندب المأمون أباً اسحاق بن هارون الرشيد ، ووجه ابراهيم بن موسى الطالبي الذى خرج باليمن رجلاً من ولد عقيل ابن أبى طالب ، كما وجه غيره من يمثله ، مما يدل على الفرقة والانقسام ، وعلى الفوضى والاضطراب » ، ولكن هرثمة ورجاله تمكنوا من إعادة تلك البلاد الى حظيرة الدولة العباسية بعد أن تغلبوا على العلويين والطالبين الواحد بعد الآخر ، وكان آخرهم محمد بن جعفر الصادق فان أهل مكة بايعوه بالخلافة بعد قتل أبى السرايا وقبلها بعد تردد ، وقد اشتهر بالورع والتقوى والعلم ، وبعد أن تلقب بأمر المؤمنين ومكث خليفة بضعة أشهر طلب الامان

من ورقاء بن جميل رئيس القوة التي أرسلها هرثمة لأخضاع مكة فاجيب
الى طلبه ، وعفا عنه المأمون ، وعامله بالحسنى

سقوط هرثمة وقتله :

نجح هرثمة نجاحا عظيما في اخماد الثورات التي قامت بالعراق والحجاز
والين وبعد أن تم عمله سار إلى النهروان ولم يذهب الى بغداد لمقابلة الحسن
ابن سهل ، وهناك أتاه أمر الخليفة بتوليته سوريا والحجاز ، ولكنه عزم على
السير الى مرو ليقابل المأمون ، ويطلعه على حقيقة الحال في انحاء الاجزاء الغربية
للدولة العباسية ، ويبين له ما وصلت اليه الاقطار بسبب استئثار الفضل
بالسلطان في الدولة ، وما يحق بالخلافة العباسية من الاخطار بسبب بقاء
الخليفة في مرو والابتعاد عن بغداد ، فلما أحس الفضل بن سهل بما ينويه
هرثمة أخذ يدس له عند المأمون بمختلف الوسائل وشتى الأساليب ، حتى
تغير قلب الخليفة على قائده الكبير ، ولما وصل هرثمة الى مرو دق الطبول
عند دخوله المدينة ، حتى يعلم المأمون خبر وصوله خشية أن يكتم الفضل
هذا الخبر عن سيده ، ولكن قيل للخليفة عند ما سأل عن سبب دق الطبول
أن هرثمة جاء يبرق ويرعد ، فزاد غضب المأمون واستدعاه ، ولما مثل
بين يديه أغاظ له القول ، وعنفه تعنيفا شديدا ، ناسبا له ثورة أبي السرايا
لأنه كان من جنده ، وكذلك مخالفته أوامر الخليفة لأنه لم يذهب لاستلام
منصبه عند ما جاءه الأمر بذلك ، ولما هم القائد بالكلام ليشرح لمولاه
الحالة هجم عليه الحرس ، وانهاوا عليه ضربا ولجما على وجهه وجسمه ،
ثم سحبوه بسرعة الى السجن حيث مات بعد زمن قصير متأثرا بجروحه ،
ولقد نسب بعض المؤرخين موته الى أناس بعث بهم الفضل اليه في سجنه
فاماتوه ، وقد ورد في كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٦٤ ما يأتي :

«وهكذا انطوت صحيفة هذا القائد العظيم الذي ذب عن ملك المأمون، وكافح في توطيد دعائم الدولة من أفريقية الى خراسان، والذي يرجع اليه الفضل الأكبر في انتصار المأمون على أخيه الأمين. ومات هذا القائد ضحية للسعاية ونكران الجميل، كما مات أمثاله من قبل من صناديد هذه الدولة من جراء السعاية والمنافسة، ومن جراء أعمال البطانة ودسائس الحاشية.»

كان من نتائج سقوط هرثمة أن ثار الجنود في بغداد، وطردهوا الحسن ابن سهل، وطردهوا أعماله منها، فخرج الحسن إلى المدائن، وارتد منها إلى واسط، وعمت الفتن والقتال المدينة، واستمرت فيها عدة شهور وسارت بغداد بسبب تلك الحروب مسرحاً للنهب والسلب والتقتيل، وأصبح الأمر فيها للغوغاء والفساق واللصوص، وأسرفوا في غيهم إسرافاً عظيماً، مما فرغ له أعيان المدينة ووجهائها، فاتفق رأيهم، وجمعوا جموعهم، وأخضعوا الغوغاء، وأعادوا الأمن والسكينة، وطلبوا إلى المنصور بن المهدي أن يقبل الخلافة، فأبى ذلك، وقبل أن يكون أميراً على المدينة يحكمها باسم المأمون، ولكنهم ما لبثوا أن رأوا مصالحة الحسن بن سهل على أن يعود إلى بغداد فعاد إلى المدينة في آخر سنة ٢٠٠ هـ وأصدر عفواً عاماً، ووزع الأرزاق على الجند، ودفع لذوى المرتبات رواتبهم، فهدأت الأحوال ولكنها عادت إلى سيرتها الأولى من الاضطراب بسبب بيعه المأمون لعلی الرضا بالخلافة من بعده

بيعة المأمون لعلی الرضا:

سبق أن قدمنا أن الفضل في نصرة المأمون على الأمين يرجع إلى أهل خراسان ووجوه القوم فيها بسبب تفضيله الفرس على العرب، واتخاذ

حاشيته وبطائه منهم مقدما أيهم على العرب ، وكان الفرس وعلى رأسهم ذو الرياستين يعجبهم أن يكون أمام المسلمين علويا ، وكثيرا ما قاتلوا في سبيل رجوع السلطان الى بنى عليّ ، وكان المأمون متشبعا بالروح الشيعية يفضل الأمام عليا على غيره من الخلفاء الراشدين ، اذ تربى في أحضان جعفر البرمكي ، وهو فارسي من أهل الشيعة ، ولما كبر استوزر الفضل بن سهل ، وهو شيعي آخر ، ولذلك أراد المأمون أن يختار للخلافة من بعده علويا ، إرضاء لعقيدته أولا ، وترضية للعلويين ثانيا ، حتى يريح الدولة من شر خروجهم المتكرر ، ولكن فات المأمون ومستشاره أن زمن الصلح مع العلويين كان قد فات أوانه ، وأن العهد بالخلافة في ذلك الوقت كان بمثابة طعنة نجلاء وجهت الى صدور العباسيين ، « اذ كان الشر قد استطار بين الفريقين ، وصار أمر الوفاق بينهم حلما ، وعاد الاقدام عليه سخفا وحمافة مهلكة . »

اختار المأمون في شهر رمضان سنة ٢٠١ هـ لولاية عهده ، وللخلافة من بعده على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثني عشرية ، وأمر الجند أن يطرحوا السواد لباس العباسيين الرسمي ويلبسوا اللون الأخضر وهو اللباس الرسمي للعلويين ، وأعلن للملأ أنه بحث بين العباسيين بحثا دقيقا فلم يجد من بينهم لائقا للخلافة من بعده ، ولذلك بايع على الرضا ، وأرسل أمرا لولياته في مختلف الأمصار بأخذ البيعة لولى عهده ، وطلب الفضل بن سهل من أخيه الحسن أن يعلن الامر في بغداد ويأخذ البيعة على أهلها لعل الرضا ، ولما هم بتنفيذ الامر غضب أهل بغداد غضبا شديدا ، وثار العباسيون منهم إذ شعروا أن الضربة موجهة الى خلافتهم وأجمعوا رأيهم على خلع المأمون

وانتخبوا في أواخر شهر ذي الحجة من السنة عينها إبراهيم بن المهدي، وكان صديقا حميما للأمين، خليفة بدلامن المأمون. وكان إبراهيم تعوزه الكفاية والمقدرة الشخصية، فلم يستطع القيام بأعمال الدولة، واضطرت الأحوال ونشب القتال بين جند المأمون وجند الخليفة الجديد، واضطر الحسن ابن سهل أن يخرج من بغداد، ويرتد إلى واسط مرة أخرى، ثم امتدت الثورة إلى باقي المدن، فثارت الكوفة وثار غيرها، وغرق الغرب في لجج الفوضى وسقطت هيبة الحكومة، وتألمت البلاد والنواحي من جراء هذه الفوضى فأسرع على الرضا ودخل على المأمون وأخبره بحقيقة الحال في إمبراطوريته، وبين له ما جرّه سوء تصرف وزيره الفضل من البلاء على البلاد والعباد، وسرد له الحوادث المشؤمة التي اتت الدولة بعد قتل الأمين، وكاشفه بحقيقة شأن الفضل بن سهل وكيف أنه يخفي عنه أمور الدولة، فغضب المأمون غضبا شديدا لما سمع، وأخذ يسأل القواد ورؤس القوم عن حقيقة ما سمع، فأيدوا الحقائق التي سردها له على الرضا بعد أن أمنهم من غضب الوزير الداهية، ونصحوا إليه بأن خير علاج للتغلب على الإزمة أن يعجل بالعودة إلى دار السلام حتى يعيد الأمن إلى نصابه، ويشرف على محاربة المنافسين والخارجين عليه

عمل المأمون بنصيحة أصدقائه وترك مقره في مرو عائدا إلى بغداد وصحبه وزيره، ولما وصل إلى سرخس وهي مكان يبعد عن مرو بمسافة سفر يوم وقف قليلا للاستراحة، وفيها قتل الفضل بن سهل قتله جماعة بالسيوف وهو في الحمام في ٢ شعبان سنة ٢٠٢ هـ، ولما بلغ الخبر المأمون غضب لقتل وزيره، وأمر بالقبض على القتلة، ولما قبض عليهم أمر بضرب أعناقهم، وأرسلها إلى أخيه الحسن بن سهل مع تعزية رقيقة واسترضاه بأن

عينه مكان أخيه وخطب ابنته بوران مع أنها كانت لا تزال اذ ذاك في العاشرة من عمرها لنفسه ولم تزف اليه الا بعد ذلك بثمان سنوات ، وفي الوقت عينه زوج إحدى بناته لعليّ الرضا ، وزوج بنتا أخرى لابنه محمد بن علي الرضا ولقد كان حكيماً في هذه التصرفات ، اذ أرضى بتلك المصاهرات طرفي العلويين والفرس بعد أن تخلص من وزير منافق اشتهر بالمكر والخديعة استطاع باساليه الفارسية أن يسيطر على الدولة العباسية مدة أربع سنوات كاد في نهايتها يجرها الى الخراب ومعها سيده ومولاه

تابع المأمون سيره ولما وصل طوس حيث كان قبر أبيه أقام فيها أياماً طلباً للراحة ، وفي صفر ٢٠٣ هـ مات علي الرضا فجأة ، وقد روى بعض المؤرخين أن سبب موته أنه أكل العنب فمرض بالحُمى ومات ، وروى آخرون أن المأمون دس له السم في العنب ، ولكنها روايات تبعد عن الحقيقة ولا تدل ظواهر الروابط التي كانت بينهما على صحتها إذ أن المأمون حزن حزناً عميقاً لموت صديقه ، وأمر بدفنه وبناء ضريح جميل له يعرف الآن بالمشهد ، وهو مزار للشيعنة في كل أنحاء المعمورة ، وقد خلفه في الامامة ابنه محمد الملقب بالجواد وبالتقي

تخلص المأمون من مأزق حرج بموت علي الرضا ، وأرسل الى بغداد يخبر أهلها بموته ، وطلب منهم العودة إلى طاعته ، إذ قد زال سبب خروجهم عليه ، فلاقت دعوته أذنأً صاغية ، وصادفت هوى في نفوس البغداديين لما كان عليه إبراهيم بن المهدي من ضعف وسوء إدارة ، وزحف المأمون نحو بغداد ، ولما قرب من المدائن خرج منها إبراهيم مرتدأً إلى بغداد ، فدخلها المأمون ، ومنها خرج طالباً ببغداد ، فلما قرب منها أخذ قواد إبراهيم وجنده يتركون الصفوف ، وينضمون إلى جند المأمون ، ولما رأى إبراهيم

أن مركزه أصبح لا يمكنه من الاستمرار في القتال ترك المدينة وهرب بعد أن حكم نحو سنتين ، وظل محتفيا في إحدى دور المدينة ، حتى سنة ٢١٠ هـ ثم خرج متنكرا في زي امرأة في ساعة مبكرة إلى الطريق ، فاشتبه في أمره رجال الشرطة ، وقبضوا عليه وساقوه إلى المأمون على الحالة التي كان عليها ، فطلب العفو من الخليفة ، وعفا عنه المأمون وهو يقول « لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »

دخل المأمون بغداد في شهر صفر سنة ٢٠٤ هـ اغسطس سنة ٨١٩ م في موكب حافل ، واستقبل فيها استقبالا عظيما وعقد مجمعا من رجال الدولة ، وسألهم حاجاتهم ، فطلب طاهر وكان قد حضر من الرقة إعادة السواد شعار العباسيين وترك اللون الاخضر ، فأمر المأمون بذلك ففرح العباسيون بذلك فرحا شديداً

ثانياً: المأمون في بغداد :

ابتدأ ملك المأمون الحقيقي عندما اتخذ حاضرة آباءه مقراً لحكومته وتجلت قدرته العالية ومزايه العظيمة ، « وسأس الامة سياسة لين لا يشوبه ضعف ، وقوة لا يشوبها عنف ، وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التي كانت لها في عهد أبيه ، وعظمت بها الحركة العلمية » . وخلع المأمون الخلع السنية على القواد واشرف الدولة ورجالاتها ، وعفا عن الفضل بن الربيع وزير أخيه ، وكان قد ظهر بعد اختفائه وساعد ابراهيم بن المهدي في ثورته ، وعفا عن غيره من الذين كانوا مصدر الاضطراب والقلق ، فدل على تسامح وكرم عظيمين ، ثم ولى طاهرا حاكماً على بغداد ، وأقام ابنه عبد الله والياً على الرقة ، ولكنه ما لبث أن أظهر كراهية لطاهر ، اختلف الناس في أسبابها وأبعده عن جواره ، وعينه حاكماً على خراسان ، وقد انتهز طاهر

تلك الفرصة وأدار البلاد بحزم وسداد رأى فتقوى مركزه فيها، وسولت له نفسه أن يخرج على المأمون، وأسقط اسمه من خطبة الجمعة، وكان المأمون قد أرسل وراءه العيون والجواسيس ليكون دائم الاتصال بأخبار قائده الكبير، فلما خطا طاهر خطوته الجريئة وصلت أخبارها فوراً إلى الخليفة، وما لبث أن ذاع خبر موت طاهر وهو في فراشه وكان ذلك سنة ٢٠٧ هـ ٨٢٢ م، وقد اختلف المؤرخون في كيفية الموت، ولكن المشهور أنه مات مسموماً على يد عين من عيون المأمون، ولقد كان طاهر من رجالات الدولة المبرزين، خبيراً بأمور الحرب وشئون السياسة، وشغوفاً بالعلم والآداب، ومن آثاره في ذلك تلك الوصية التي كتبها لابنه عبد الله حينما اختاره المأمون والياً على مصر وأرسله لمحاربة نصر بن شيبث، وتعد هذه الوصية، «من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية»، وقد أعجّب ببلاغتها المأمون إعجاباً شديداً واستنسخها وأرسلها إلى عماله في الولايات، وقد أورد نصها الدكتور الرفاعي في باب المنشور من كتابه الثالث في المجلد الثالث فراجعه في «عصر المأمون»

ولى المأمون أمر خراسان بعد وفاة طاهر ابنه طلحة وقد استمر ملك البيت الطاهري بخراسان حتى سنة ٢٥٩ هـ، وكانت تلك الولاية في أثناء هذه المدة حسنة العلاقة بدولة الخلافة، «والسبب في دوام هذا التحسن أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد، ومن أجل ذلك كان الاتصال دائماً بين مرو وبغداد»

الحوادث الداخلية الأخرى:

أولا : علاقة المأمون بالعلويين :

ظل المأمون يعامل العلويين معاملة حسنة تتناسب مع اعتقاده في فضل أبيهم إلى أن خرج عليه أحدهم ببلاد اليمن في سنة ٢٠٧ هـ وهو عبد الرحمن بن أحمد ، فوجه إليه المأمون أحد قواده المسمى دينار ابن عبد الله فتغلب عليه ، ومن ذلك الوقت غضب المأمون على العلويين ومنعهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد ، ولكنه أوصى إليهم خيرا عند وفاته ، إذ جاء في وصيته لأخيه المعتمد قوله : « وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه فاحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ، وأقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى »

ثانيا : ثورة نصر بن شبث ومؤامرة ابن عائشة :

ثار نصر بن شبث على المأمون كما مر بنا ، وأرسل الحسن بن سهل طاهرا لمحاربتة ، ولكنه لم يحاربه بياس شديد بسبب الصدمة التي صدمه بها آل سهل حين حرموه من ثمار فتوحه في العراق ، وظل نصر ثائرا حتى أرسل عبد الله بن طاهر لاختضاعه ، فحاربته مدة خمس سنوات وضيَّق عليه ، وقتل رؤساء من معه واضطره إلى طلب الأمان ، وسلم نصر نفسه إلى رجال المأمون بعد أن أفاق الدولة بثورته إقلاقا عظيما ، وقد احتفل الخليفة بقدمه إلى بغداد في سنة ٢١٠ خاضعا مستسلما احتفالا عظيما . وفي تلك الأثناء كَبَّرَ نفر مؤامرة لتكدير صفاء السرور الذي عم رجال الدولة بتسليم نصر وذلك بأن يقطعوا جسر الذوارق المقام في عرض دجلة لمرور نصر عليه

عند اقترابه بموكبه الحافل ، وكان زعيم تلك المؤامرة إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الامام المعروف بابن عائشة ، وكان يرمى بذلك إلى إثارة الخواطر وخلق القلاقل والعمل على اعادة إبراهيم بن المهدي للخلافة ، ولكن رجال المأمون اكتشفوا خبر المؤامرة ، وقبض على زعيمها ، وعذبه المأمون عذابا اليما وحبسه في المطبق ، ثم أمر بعد ذلك بأخراجه وقتله ، وقتل معه ثلاثة من رؤس المتأمرين وكان ذلك في ١٤ جمادى الآخرة سنة ٢١٠ هـ

ثورة الزنط :

ورد في كتاب الخضرى بك صحيفة ٢١٨ : « الزنط معرب (جت) قال عنهم ابن خلدون هم قوم من اخلاط الناس ، غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد . وهم المعروفون بالنور اصلهم من هندو آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسى ، تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التي كانت بين الامين والمأمون ، ولما استقر المأمون ببغداد بعث عيسى بن يزيد الجلودى لحربهم سنة ٢٠٥ هـ ويظهر أنهم كانوا إذا أخرجتهم الجنود تفرقوا في تلك الفيافي . وقد استمر هؤلاء الثوار يعيشون في الارض فسادا في أيام المأمون ، ولم تخضع ثورتهم إلا في أيام المعتصم مما سنيته عند الكلام عليه

رابعا : الثورة في مصر (٢٠٠ - ٢١٠ هـ)

انتهز عبيد الله بن السرى بن الحكم اشتغال عبد الله بن طاهر بأخماد الثورة التي قام بها نصر بن شيبث وأثار بمصر فتنة ، وأصبحت هذه البلاد مسرحا للاضطراب ، وساء النظام فيها ، واختل الامن بسبب قدوم جماعة

كبيرة من الاندلس ، فأمن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل طرد عددا كبيرا من العرب من أسبانيا ، فجاءوا إلى الاسكندرية ونزلوا بالبلاد وهددوا الناس ، وسلبوا الأموال وهتكوا الاعراض وظلموا العباد ، وبلغ الامر المأمون فأمر عبدالله بن طاهر بالاسراع لاختماد تلك الفتنة ، وكان قد فرغ من ثورة نصر ، فجاء عبدالله إلى مصر وطارد الثائرين مطاردة عنيفة وشتت شملهم ، وطلب الاندلسيون الامان فأمنهم على أن يرتحلوا عن البلاد فرحلوا إلى جزيرة كريت واستوطنوها وأقاموا بها ، وكذلك تغلب على ابن السرى وأحمد ثورته ، وفرح المأمون فرحا عظيما لاخبار النصر وكتب يهنئ قائده بالفوز ، كما كتب إليه وزيره أحمد بن يوسف كتابا بليغا يهنئه فيه أيضا ، ولكن الفتنة عادت ثانية واندلع لها فيها

ورد في كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٨٠ : « وقد خرج المأمون إلى مصر في ١٦ ذى الحجة سنة ٢١٦ هـ ، إثر شخوصه إلى دمشق للمرة الثانية وكان خروجه إلى مصر ، فيما يقول الرواة ، لاختماد ما قام فيها من فتن واضطرابات ، وذلك إن اهالى الوجه البحرى خرجوا وفيهم أقباط البلاد على عيسى بن منصور عامل مصر ، لسوء سيرته فيهم ، ولقبح صنيعه معهم سنة ٢٢٠ هـ ، فجاء المأمون إلى مصر ونظر في أسباب الثورة وسمع ما نسب إلى سوء تصرف عامله فعمل على انصاف الناس ، واستعمل الحزم والقوة حتى أخمدت الثورة وأعاد الامن والنظام إلى البلاد »

هذا ويقول المؤرخون إنه لبث في مصر أربعين يوما انتقل في أثناءها في طول البلاد وعرضها ، وقام ببعض اصلاحات فيها وعمر مقياس النيل بالروضة
خامسا : ثورة بابك الخرمي (٢٠١ — ٢٢١ هـ) :

خرج بابك وهو من كورة في شمال فارس تسمى البذثاءرا على الدولة العباسية في سنة ٢٠١ هـ داعيا الناس إلى اعتناق مذهبه الأباحي ، وكان هو

وطائفته يدينون بما يريدون ويشتهون، وأباحوا المحرمات من الخمر وسائر اللذات، ونكاح ذوات المحارم ويقال لهم الخرمدينة، وجاء في فهرست ابن النديم عن مذهب الخرمية: «الخرمية صنفان: الخرمية الأولى ولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم. فأما الخرمية البابكية فإن صاحبهم بابك الخرمي، وكان يقول لمن اتبعوه: انه إله، وأحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة، ولم يكن الخرمية يعرفون ذلك» وقد نشأ بابك بن بهرام بقربة تدعى بلاد أباد، ثم اتصل بجاويدان بن سهرك ملك جبال البند ورئيس من بها من الخرمية، ولما مات جاويدان تزوج بابك بامرأته وخلفه في نفوذه وولايته، وأخذ يعيث ومن معه في الأرض فسادا، ونشر مذهبه الأباحي، وعرف المأمون خبره وكان لا يزال بهرو فشر عن ساعد الجد في مطاردته، ولم تكن غايته إخضاع الثائر لسلطان الخلافة الإسلامية بل كان يرمى إلى القضاء عليه وعلى مذهبه وتعاليمه الضارة بنظم الحياة والاجتماع. ولما رجع الخليفة إلى بغداد عين أحد قواده المسمى يحيى بن معاذ لحربه، فتوجه إليه ولكنه لم يستطع التغلب عليه، فأختار المأمون قائداً آخر هو عيسى بن محمد بن أبي خالد، وولاه أرمينية وأزريجان وأمره بمحاربة بابك، ولكنه نكب وفشل أيضا، وأرسل الخليفة قائداً ثالثاً فتغلب عليه بابك وأسرته، وفي سنة ٢١٤ هـ قتل بابك قائداً رابعاً هو محمد ابن حميد الطوسي، وفرق شمل عسكره وقتل عددا كبيرا منهم، واستفحل أمر الثائر بعد ذلك ودخل في مذهبه خلق كثير من أهل الجبال من همدان وأصبهان وماسبذان وغيرها، ولم يستطع المأمون ورجاله التغلب على بابك لأن الخليفة اشتغل بأمر الدولة البوزنطية. وظل بابك متحصنا في ربوعه

ثأراً على الدولة حتى مات المأمون، وكتب قبل موته يوصي أخاه المعتصم بشأنه يقول: «والخرمية فاغزهم ذا خرامة وصرامة وجلد، واكنفه بالاموال والسلاح والجنود، من الفرسان والرجالة، فأن طالت مدتهم، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، وأعمل في ذلك مقدم النية فيه، راجياً ثواب الله عليه.»

سادساً: زواج المأمون من بوران ابنة الحسن بن سهل في سنة ٢١٠ هـ

تزوج المأمون في شهر رمضان سنة ٢١٠ هـ خديجة المعروفة ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل، وكان قد خطبها بمرور كما تقدم لنا، وقد دلت حفلة عرسه لها على ما وصلت إليه الدولة العباسية من الغنى والجاه، وكان الاحتفال بعرس الزواج بمدينة واسط احتفالاً عظيماً بلغت تكاليفه خمسين ألف درهم، وأنفقت أم جعفر «زبيدة» زوج الرشيد مبلغاً كبيراً من المال في حفلات العرس، ولما سئلت عما أنفقت قالت: ما صنعت شيئاً قد أنفقت ما بين خمسة وثلاثين ألف درهم إلى سبعة وثلاثين ألف درهم. وقد احتفل أبوها بأمرها، وعمل من الولائم والافراح ما لم يعهد مثله في مصر من الأمصار. «وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقية إذا وقعت في يد الرجل فتحها، وقرأ ما فيها، ثم يمضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه، ويتسلم ما فيها، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على الخمالين والمسكارية والملاحين وكل من ضمنه عسكره، فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوماً»

هذا وقد اشتهرت بوران شهرة كبيرة في التاريخ، وجاء ذكرها على ألسنة الشعراء والمادحين، وذلك لنفوذها الكبير في أيام الخليفة المأمون، ولكثرة ما بذلته من احسان وجود، وقد عاشت نحو خمسين سنة بعد المأمون فرأت العصرين: عصر الفخامة والمجد في الدولة العباسية، وعصر اضمحلالها وانحلالها. وماتت سنة ٨٨٣ م

أحوال الدولة الخارجية في عهد المأمون:

كانت سياسة الدولة العباسية في عهد المأمون تتجه نحو سياسة التوسع وبسط النفوذ على الدول الاسلامية الأخرى المستقلة، ولظالما حاول المأمون إخضاع الدولة الأموية بالاندلس، وشجع دولة الأغلبة في إفريقية — وكانت تخضع لسلطانه — على أن تعمل على إضعاف الأمويين، وفي سنة ٢٠٨ هـ ٨٢٣ م غزا زيادة الله بن الاغلب جزيرة صقلية، وأخضعها وضمها إلى الخلافة العباسية، أما سياسته فكانت سياسة مهادنة ومصالحة في أول أمرها نحو الدولة البوزنطية، إذ لم تقع حروب بينه وبين الروم حتى سنة ٥٢١ هـ، ولكن حدث بعد ذلك أن التجأ بابك الخرمي الى حدود الدولة البوزنطية وحرك الروم ضد المسلمين، وكان يجلس على عرش الدولة إذ ذاك، توفيل بن ميخائيل الثاني الملقب بالتمتم. وأغار الروم على أملاك الدولة العباسية واستولوا على عدد من القرى، وسلبوا الناس واعتدوا على أملاكهم وأعراضهم كما كانت عاداتهم، وعرف المأمون أمرهم فعزم على الخروج اليهم بنفسه. وفي مارس سنة ٨٣٠ م ترك بغداد بعد أن استخلف عليها اسحاق بن ابراهيم بن مصعب، وسلك طريق الموصل وسار حتى وصل إلى أنطاكية ثم المصيصة، ومنها خرج الى طرسوس وكانت الثغر الاسلامي

ومنها دخل بلاد الروم في شهر يولييه من السنة عينها . وفتح عدة حصون
ومعقل ، وأرسل قواده يفتحون ويغزون . ثم جاء المأمون الى الشام ، ولما
وصل دمشق علم بخروج ملك الروم وقتله بعض أهل طرسوس والمصيصة
فرجع المأمون لملاقة الأعداء وانتصر عليهم وأجلاهم عن البلاد والشعور
الاسلامية ، ففتح أخوه اسحاق المعتصم ثلاثين حصنا ، وغنم يحيى بن اكثم
غنيمة كبرى من الأعداء . ثم سار المأمون بعد ذلك إلى كيسوم ثم إلى
دمشق ومنها خرج إلى مصر في ذى الحجة سنة ٢١٦ هـ وعاد إلى دمشق
في السنة التالية

ودخل أرض الروم لثالث مرة بسبب انتصار توفيل على قواد الخليفة
ثم عزم على أن يقيم سدا منيعا في وجه الروم في مدينة طوانة وهي تبعد
عن طرسوس بنحو سبعين ميلا وتقع في شمالها واخذ يحصنها تحصينا قويا ،
وفي هذه الغزوة كتب إليه أمبراطور الروم كتابا رد عليه الخليفة بكتاب
آخر . وقد ورد نص الخطابين في كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٩١
وفاة المأمون وأخلاقه :

كان المأمون يعسكر في مكان يسمى « البدندون » بين مدينتي لؤلؤة
وطرسوس . وكان يجلس مع أخيه المعتصم في يوم حر من أيام الخريف
على شاطئ نهر المدينة وخلعا حذاءهما ووضعاً أرجلهما في ماء النهر البارد ،
فمرض الاثنان بالحمى ، ومات المأمون في شهر رجب سنة ٢١٨ هـ اغسطس
سنة ٨٣٣ م وكانت سنه ٤٨ سنة وأربعة شهور ، وحمل إلى طرسوس
ودفن بها

وكان المأمون يميل إلى العفو ويكره الانتقام . وقد عرفنا أنه عفا عن
الفضل بن الربيع وزير أخيه ، مع أنه عمل جهد طاقته على خلعه ونقل

الخلاقة، إلى غيره . وعفا عن إبراهيم بن المهدي مع أنه خرج عليه وأقام نفسه خليفة في بغداد . وما روى عنه إنه في الغزوة الثانية ضد الروم اشترى سبي الروم بماله وأطلقهم ، وأعطى كل واحد ديناراً ديناراً ، ومن مزاياه إنه كان ميالاً إلى الإقناع ، فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة ، « وله في ذلك مجالس مأثورة مشهورة » ، وله في الجدل حجج قوية ناصعة « مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره في المناقشة » ، وكان عالماً بدقائق الشؤون في دولته ، يعلم ما كان عليه رؤساء الجند وباقي رجال الدولة ، وكان فوق هذا أديباً يعرف جيد الشعر وورديته ويحب الأدباء والشعراء . ولقد كان كريماً سارت بكرمه الأمثال فكان يعطى عطاء من لا يخاف فقراً ولا يخشى إقلاقاً

هذا وجاء في كتاب « السير موير » وصف لأخلاق المأمون نذكر ملخصه قال : « فما لا نزاع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متصفاً بالعدل والحلم ، وإنما يؤخذ عليه بأنه كان متقلباً في أرائه وشعوره سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية . ويرجع السبب في ذلك إلى نزعة الفارسية التي ورثها عن أمه ، والبيئية التي ربي فيها من جهة ، وإلى غريزة حبه للاستسلام بتأثير من حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى . على أننا مع اعترافنا بعدله ، لانستطيع أن ننزهه عن الجنوح في بعض الأحيان إلى الجور واستعمال القسوة من غير مسوغ ، فإنه قد تصرف في بعض الحوادث تصرف الجبارة والقسوة من أسلافه الذين أتوا من المنكرات ماسودوا به صحائف تاريخهم ولو أغضينا عن الشبهات التي حامت حول مقتل الفضل ، وموت علي الرضا غدرا وغيلة فأننا لانستطيع أن نعصى عن معاملته الجائرة لابن عائشة ، وما لقيه هرثمة وظاهر مع تفانيهما في نصرته وتوطيد حكمه ، واضطهاده لكثير من .

أجلاء المفكرين وأصحاب الآراء المخالفة لرأيه في بعض مسائل الدين في مجلس المناظرة مما يدل على قسوته، إلا أننا إذا راعينا طول مدة حكمه وموقفه النبيل في عفوه عن الخارجين عليه في بغداد، نرى كفة عدله وحلمه أرجح من كفة جوره وقسوته، وقصارى القول إن عصر خلافته كان بوجه الأجمال من أزهى عصور التاريخ الاسلامى .»

وجاء في كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٣١ المجلد الاول عن شخصية المأمون فصل ممتع فراجعه

٢ — حضارة الدولة العباسية في عهد المأمون :

نتناول في بحثنا هذا وصفا موجزا عن حالة الدولة السياسية في عهد المأمون، وعن كيفية ادارة الشؤون فيها، وعن حالتها العلمية ونهضتها الفكرية من وجهتها البشرية والدينية

أولا: وزراء المأمون :

جرى الخلفاء العباسيون على سنة الاستعانة في إدارة شؤون الدولة بافراد مبرزين في الامور السياسية والحربية، وذلك بسبب اتساع اطراف الدولة وتشعب نواحيها، وكثرة شعوبها واجناسها، وعظم علاقاتها الداخلية والخارجية، ومن ثم نشأت ادارة حكومية مدنية، تنظر في الامور وتصريفها بارشاد الخليفة وتحت اشرافه، فكان الخليفة مصدر السلطان في الدولة ومنبع القوة فيها، ومنه تصدر الأوامر الادارية لمختلف الولاة والعمال، وعنه يتلقى القواد ورؤساء الجند أوامرهم. وكان على رأس هذه الاداة الحكومية الوزير، وكان عضد الخليفة وساعده الأيمن في ادارة الشؤون

وكان المسئول من الوجهة العملية عن حسن سياسة الدولة في الداخل والخارج وكثيرا ما ترك الخلفاء لوزرائهم المسئولية الحكومية ، واطلقوا أيديهم في إدارة الامبراطورية ، فكان الوزير يولى ويعزل الموظفين ، ويسيطر على إيرادات الدولة ومصروفاتها ، ويشرف على مراسلاتها البريدية ، وجمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية ، وكان فوق ذلك مستشار الخليفة . وقد وصفنا فيما مر بنا نفوذ الوزراء في عهد المهدي والهادي والرشد والامين ، وقرأنا شيئا عن سيرة يعقوب بن داود ، والبرامكة ، والفضل بن الربيع ، والآن نذكر بعض وزراء المأمون ونصف مكاتبتهم في عصره

اشتهر من وزراء المأمون الفضل بن سهل واخوه الحسن ، وكان الفضل أول وزراء المأمون ومن رجال جعفر البرمكي ، وكان سخيا كريما حلما بليغا ، عالما بآداب الملوك ، وكان يقال له الوزير الأمير ، وكان يميل الى الشيعة كباقي الفرس ، وكان له نفوذ كبير في الدولة العباسية في العصر المأموني واليه يرجع الفضل في انتصار المأمون على اخيه الأمين ، وهو الذي أشار على الخليفة بأقامة علي الرضا ولي عهد للدولة بعده ، وحسن له الاقامة بمرور وأوقع بينه وبين القائد القدير هرثمه ، ولم يتمتع المأمون بمرز الخلافة تمتعا حقيقيا إلا بعد أن قتل الفضل . أما الحسن بن سهل فيقول عنه ابن طباطبا إنه كان اعظم الناس منزلة عند المأمون ، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته فكان اذا حضر عنده طاوله في الحديث ، وكلما أراد الانصراف منعه ، وهو ثاني وزراء المأمون بعد اخيه ، وقد جاء في كتاب الاغانى إنه هو الذي توسط عند المأمون في العفو عن ابراهيم بن المهدي . ثم اشتهر من الوزراء بعدهما أحمد ابن ابي خالد ، وكان كفتا قديرا ، بصيرا بالامور ، مقتصدا في مكاتبه وسلطانه ويقال إن المأمون دعاه اليه عند ما أراد أن يستوزره وقال له : إني كنت

عزمت ألا استوزر أحدا ، ثم عرض عليه الوزارة ، فتنصل منها وقال :
« يا أمير المؤمنين : أعفني من التسمي بالوزارة ، وطالبنى بالواجب فيها
واجعل بينى وبين العامة منزلة يرجونى لها صديقى ، ويخافنى لها عدوى ،
فما بعد الغايات إلا الآفات » ، ولذلك كان المأمون يحبه جبا عظيما ، وحزن
عليه عند موته وحضر جنازته وصلاته بنفسه ، ورثاه بعد دفنه

واشتهر أيضا من وزراء المأمون أحمد بن يوسف ويحيى بن اكنم التميمي
وكان احمد بن يوسف معروفا بين أهل عصره بسمو المكانة فى العلم والادب
والكتابة والشعر ، « وكان بصيرا بأدوات الملك وآداب السلاطين ، ذكيا
سريع الخاطر ذا مروءة وكرم ، وكان لظرفه وفطنته ، وبصره بالأمر
موضعا لرضا المأمون وعطفه عليه » ، اما يحيى بن اكنم « فقد انخرط فى
سلك القضاة صغيرا لتجربته ، ثم درج فى مناصب القضاء حتى تبوأ أسمى
مناصب الدولة ، تبوأ منصب قاضى القضاة ، ومنصب الوزارة للمأمون
منظورا اليه فى كل ما تولاه من المناصب بالتجلة والاكبار من الخاصة والعامة »

ثانيا : الجيش والقواد العظام فى عهد المأمون :

كان لأهل خراسان شأن كبير فى قيام الدولة العباسية ، ولذلك أصبح
لهم مقام فى الامور العسكرية لا يقل عما كان لقواد العرب فيها ، ولما جاء
عصر المأمون واتخذ مدينة مرو مقرا لحكومته ، ازداد نفوذ الخراسانيين
زيادة كبيرة ، وكان لهؤلاء عند الخليفة حظوة ، لانهم هم الذين ناصروه
وعاضدوه فى الخلاف الذى شجر بينه وبين أخيه الأمين ، وبفضل
معاوتهم اعتلى عرش الخلافة ، ولذلك قدمهم على العرب ، واتخذ منهم الجند
والقواد ، واعتمد عليهم اعتمادا كبيرا فى إدارة الشؤون الحربية ، وفى الإدارة

الحكومية الأخرى ، ونقص شأن العرب في عهده ، ولم يظهر منهم في عهده قائد معروف ، بل ظهر قواد آخرون من الأتراك وغيرهم . وقد روى الطيفوري أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال : يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان . قال اكرثت علي يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ، ولا أحبنتى قط ، وأما قضاة فسادتها تنتظر السفىانى . خروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما شاريا ، إعزب فعل الله بك . »

يقول الخضرى بك : « وهذا تصریح عظیم من المأمون ، وهو يدل على أن تلك القوة العربية التي كان العالم الاسلامي يحس بوجودها ، وتخشى الخلفاء سطوتها وانحرافها قد اتضعت ، فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملاء من الناس ، ولما كان جيش الدولة هو الذى يدل على حقيقة أمرها ، وكان من اله اوضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة ، أما العصية العربية للعنصر العربى فقد اشرفت على الامحاء »

هذا وقد اشتهر من قواد الجيش طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان ، وإليه يرجع الفضل فى انتصار المأمون على جيوش أخيه الأيمن كما تقدم لنا ، وقد عينه المأمون واليا على خراسان ، ويقال إنه اراد الاستقلال بتلك الولاية عن الدولة العباسية . وصعد المنبر فى سنة ٢٠٧ هـ فحمد الله وأثنى عليه ، ولم يدع للمأمون ، فكتب والى البريد الى الخليفة بذلك ، وفى تلك الليلة أصابته حمى وحرارة فوجد ميتا ، واشتهر بعده ابنه عبد الله وهو الذى ضيق الخناق على نصر بن شبث ، وردده إلى طاعة المأمون ثم سار إلى مصر بعد أن فرغ من محاربة نصر ، وكانت ثائرة ، وكان عرب

الاندلس يعيشون فيها فسادا ، فانتصر عبد الله انتصارا باهرا ، «وأصلح الدنيا
وأمّن البرىء ، وأخاف السقيم ، واستوثقت له الرعية بالطاعة»
وكتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون يهئته بذلك الفوز ، ثم
ولاه المأمون الجبال وأرمينية وأذربيجان ، وطلب إليه محاربة بابك
الخرمى ، ولكن والى مصر مات فى سنة ٢١٢ هـ ، فولاه المأمون ولاية
هذه الديار ، واستمر بها حتى مات فى عهد الواثق سنة ٢٣٠ هـ

ثالثا : الحركة العلمية فى عهد المأمون

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم فى العصر العباسى ، وكانت
خلافته أزهى عصور التاريخ العربى من الناحية الفكرية ، «وإن حكمه
الذى دام نحو عشرين عاما قد ترك أثرا خالدا فى التقدم الفكرى للمسلمين
فى جميع نواحيه ، ولم يقتصر تقدمهم هذا على فرع خاص من فروع
العلوم والآداب ، بل تناول كل مظاهر الحركة الفكرية ، فتقدمت
الفلسفة ، وخطت علوم الأدب خطوات واسعة ، كما خطت الرياضيات
والفلك وعلم الطب وغيرها أيضا خطوات واسعة ، وانتقلت هذه العلوم
وتلك الحضارة الى اسبانيا الاسلامية والقسطنطينية المسيحية ومنهما
نقلت الى أوروبا الحديثة ، ولقد رأى المأمون ان السعادة الحقيقية لشعبه
لا تأتى الا عن طريق التربية والتهذيب ، ونشر العلم ، وتشجيع القائمين
بأمرة ، ولذلك رفع مرتبة العلماء والمشتغلين بالعلم ، وربط لهم المرتبات
والمعاشات ، ولم يشأ أن يكونوا عيالا على هبات أمراء الدولة وأشرفها ،
وفتح المدارس والكليات فى جميع النواحي والاقليم ، واجزل لها المنح
والهبات ، فنهضت البلاد نهضة علمية مباركة ، وأطلق للفكر حرته ،
وأرخص لها عنانها ، وفتح صدره وبابه للعلماء والمتكلمين على اختلاف

مذاهبهم وعقائدهم الدينية ، وتسامح مع غير المسلمين تسامحا دينيا عجيبا ،
وشجع البحوث العلمية والأدبية تشجيعا كبيرا ، وبذل جهد طاقته في أثناء
السنين الأخيرة من حكمه في إنهاض البلاد علميا ، وعمل على إدخال العلوم
العقلية ، وعلى تحرير العقل البشرى من قيود المشترعين وفقهاء الدين
ويقول القاضى صاعد بن أحمد الاندلسى - نقلا عن كتاب عصر
المأمون - « إن العرب في صدر الاسلام لم تعن بشيء من العلوم ، إلا بلغتها
ومعرفة أحكام شريعته ، حاشا صناعة الطب . فأنها كانت موجودة عند
أفراد منهم غير منكرة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس طرا إليها . فهذه كانت
حالة العرب في الدولة الأموية . فلما أدال الله تعالى للهاشمية ، وصرف الملك
اليهم ثابت الهمم من غفلتها ، وهبت الفطن من موتها ، فكان أول من عنى
منهم بالعلوم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور ، وكان مع براعته في الفقه ،
كلفا بالفلسفة وعلم النجوم . ثم لما أفضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع
عبد الله المأمون بن هرون الرشيد ، تم ما بدأ به جده المنصور ، فأقبل على
طلب العلم في مواضعه ، وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من
كتب الفلسفة فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس
وابقراط وجالينوس واوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فاستجاد
لها مهرة الترجمة ، وكلفهم إحكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن
ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها . وكان يخلو بالحكام ويأنس
بمناظرتهم ، ويلتذ بمذاكرتهم ، علما منه بأن أهل العلم هم صفوة الله في خلقه
ونخبة من عباده ، وأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة
وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في
دقة الصناعة العملية ، والتباهى باخلاق النفس والتفاخر بالقوى . إذ علموا
أن البهائم تشرکہم فيها وتفضلهم في كثير منها ، فلهذا السبب كان أهل العلم
مصايح الدجى ، وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم »

وكان المأمون يميل إلى الفلاسفة والمنطق فدفعه هذا الميل إلى نقل كتب الفلسفة والمنطق من الامم المجاورة التي سبقت العرب في الحضارة إلى اللغة العربية ، وكان من نتائج إقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة

ومن الكتب التي نقلت وترجمت في عصر المأمون عن اليونانية كتب أفلاطون مثل كتاب السياسة، وكتاب المناسبات ، وكتاب الحس واللذة ، وكتاب أصول الهندسة وغيرها ، وكتب أرسطوطاليس مثل كتاب البرهان ، وكتاب الجدل ، وكتاب الحس والمحسوس ، وكتاب الأخلاق ، وكتاب النفس، وغيرها . ونقل من كتب أبقراط كتاب الامراض الحادة ، وكتاب الماء والهواء ، وكتاب طبيعة الانسان ، وكتاب الاخلاط وغيرها ، وكذلك نقلت كتب جالينوس الستة عشر المشهورة ، ونقلت باقى كتبه الطبية مثل كتاب التشريح الكبير ، وكتاب منافع الاعضاء ، وكتاب تركيب الادوية ، وكتاب مداواة الامراض وغير ذلك . هذا ولم تقتصر حركة النقل والترجمة على نقل كتب الفلاسفة والطب بل نقلت أيضا كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم مثل كتاب أصول الهندسة لاقليدس ، وكتاب المجسطى الشهير لبطليموس الفلوزى

وقد نقلت الكتب عن الفارسية مثل كتاب كلية وذمنة ، وكتاب مزدك ، وكتاب الادب الكبير والادب الصغير نقلها عبدالله بن المقفع ونقلت كتب أخرى عن اللغة الهندية في الطب والنجوم والرياضيات والحساب ، وكانت هذه الكتب تنقل أولا الى الفارسية ثم تنقل الى اللغة العربية . وكذلك نقلت الكتب عن اللغة النبطية مثل كتاب الفلاحة النبطية وهو فريد في بابها ، ونقلت كتب أخرى عن العبرانية واللاتينية والقبطية

« كان لنقل هذه الكتب آثار ونتائج في العقلية العربية أولا ، وفي المدينة العربية ثانيا ، حتي أصبحنا نرى المأمون يضرب به المثل في عظم الحركة العلمية والحق ان المأمون وعصر المأمون كانا متقدمين عن زمنهما ، اذا كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية في ذلك الحين ، أرقى بمراحل من حالة ملوك أوروبا وبمالك أوروبا . »

ونختم كلمتنا هذه عن الحالة العلمية في زمن المأمون بما ورد في كتاب الخلافة للسير موير كما ترجمه الدكتور الرفاعي في كتابه صحيفة ٣٩٩ قال :
« كان حكم المأمون مجيدا عادلا ، وكان عصره مزدهرا بانواع العلوم والفنون والفلسفة ، وكان أديبا مولعا بالشعر متمكنا منه ، ولقد حدث أن شاعرا كان ينشد بين يديه قصيدة من مائة بيت ، فكان الشاعر كلما انشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر ، حتى دهش الشاعر و حار في سرعة بديته وكان مجلسه حافلا بالعلماء والادباء والشعراء والفلاسفة ، اذ كان يقربهم اليه ، ويجزل لهم العطاء . وكما كان عصره عامرا بالعلماء والادباء والنحاة فإنه كان كذلك حافلا بجماعة المحدثين والمؤرخين والفقهاء كالبخاري ، والواقدي الذي نحن مدينون له باوثق السير عن حياة النبي والشافعي وابن حنبل ، وكان المأمون يجلب علماء اليهود والنصارى ، ويحتفي بهم في مجلسه لا لعلمهم فحسب بل لثقافتهم في لغة العرب وحنقهم في معرفة لغة اليونان وآدابها ، ولقد اخرجوا من اديرة سوريا وآسيا الصغرى ، سواحل الشام وفلسطين كتباً خطية في الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلسفتهم ثم ترجموها

وبهذه الوسيلة انتقلت علوم الغرب إلى العالم الاسلامي ، ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهابذة على نقل هذه الكتب القديمة إلى اللغة العربية ، بل توسعوا وأضافوا إليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم . وأقاموا

مرصدا في « سهل تدمر » مجهزا بجميع الآلات التي تمكنهم من النجاح في دراسة علمي الفلك والهندسة والتوسع فيهما. وقد صنفوا كتباً في الرحلات والتاريخ، ولا سيما كتب الطب، وعنوا عناية كبيرة ببعض علوم تافهة، إلا أنها كانت أكثر ذيوغاً وانتشاراً، كالتنجيم والكيمياء. وكان لمجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر في نهضة أوروبا التي كانت غارقة في بحار الجهالة في العصور الوسطى، حيث أيقظتهم من غفلتهم، وأنارت لهم سبل علومهم التي كانوا أغفلوها، وهي علوم اليونان وفلسفتها.

رابعا: الحركة المذهبية في عهد المأمون:

ظهر في عصر المأمون جمهور من فطاحل العلماء ورؤساء المتكلمين توغلوا في البحث في أصول الدين والعقائد، وحكموا في البحث عقولهم مستندين على أصول المنطق ونظريات الفلسفة التي تعلموها واتقنوا فهمها فأنج لهم ذلك اعتقادات تخالف ما عليه عامة المسلمين وجمهور علماءهم المعروفين باهل الحديث وهم الذين يستمدون آراءهم من النصوص السمعية كتاب أو سنة أو أثر من آثار السلف. ودارت بين الفريقين رحى معركة كلامية، وفتح المأمون باب المناظرات بينهما، واشترك فيها اشتراكاً فعلياً، وأراد أن يخرج من هذا الجدل ومن تلك المناظرة بنتيجة حاسمة لتحرير العقل البشري من القيود الدينية التي فرضها على الانسان فريق من العلماء يتجمدون على القديم، ويتمسكون بحرفية النصوص الواردة في الكتاب والأحاديث الشريفة. وقبل أن نصف ما دار في تلك المسائل المذهبية يحسن بنا أن نثبت كلمة موجزة عن مذهب القدرية أو المعتزلة نقلاً عما جاء بكتاب فجر الاسلام صحيفة ٣٣٨

القدرية أو المعتزلة

يدلنا تاريخ الفكر البشرى على أن من أولى المسائل التي تعرض للعقل عند ما يبدأ التعمق في البحث مسألة الجبر والاختيار ، هل ارادتنا حرة تعمل ما تشاء وتترك ما تشاء ، وتشكل عملها كما تشاء . أو انا مجبرون على عمل ما نعمل فلا نستطيع أن نعمل غيره ، وأن ارادتنا معلولة بعلة فاذا حصلت العلة حصل المعلول لا محالة ؟ وهي مسألة شغلت الفلاسفة ورجال الدين جميعا في العصور المختلفة ، تعترضك في الاخلاق ، وفي القانون ، وفي فلسفة التاريخ ، وفي علم الكلام ، وفي الفلسفة على العموم - وقد نشأت الأبحاث الدينية في هذا الموضوع لما نظر الانسان فرأى أنه - من ناحية يشعر بأنه حر الإرادة يعمل ما يشاء ، وأنه مسئول عن عمله ، وهذه المسؤولية تقتضى الحرية ، فلا معنى لأن يعذب ويثاب اذا كان كالريشة في مهب الريح لا بد أن تتحرك بحركته وتسكن بسكونه - ومن ناحية أخرى رأى أن الله عالم بكل شىء ، أحاط علمه بما كان وما سيكون ، فعلم ما سيصدر عن كل فرد من خير أو شر ، وظن أن هذا يستلزم حتما أنه لا يستطيع أن يعمل إلا على وفق ما علم الله ، فخار في ذلك بين الجبر والاختيار ، وأخذ يفكر هل هو مجبر أو مختار

وقد وردت آيات في القرآن قد تشعر بالجبر ، ووردت أخرى تشعر بالاختيار ، ووردت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم إن صححت تدل على تعرضه عليه السلام لمسألة القدر تصريحاً أو تلميحاً ، ولما انتهى المسلمون من الفتح وهدؤوا وأخذوا يفكرون ظهرت هذه المسألة وكان قد تكلم فيها من قبل فلاسفة اليونان ونقلها عنهم السريان يون ، وتكلم

فيها الزرادشتيون كما بحث فيها النصارى ، فظهر في الاسلام قوم يقولون بحرية الارادة معارضين في ذلك الفكرة الشائعة بأن الانسان مسير لا مخير ، وقد سمي هؤلاء الذين يقولون بأن الانسان حر الارادة وبعبارة أخرى أن الانسان له قدرة على أعماله « بالقدرية » . وقد ذكروا أن من اسبق الناس قولاً بالقدر مع عبد الجهنى وغيلان الدمشقى . أما معبد فقد قتله الحجاج صبراً لخروجه مع ابن الأشعث ، وكان يجالس الحسن البصرى أولاً وقد سلك سبيله كثير من أهل البصرة . أما غيلان الدمشقى فقد أمر هشام بن عبد الملك بقطع يديه ورجليه وقلبه وصلبه لأن الناس اكثروا الواقعة فيه والسعاية بسبب رأيه في القدر

انتشر القول في القضاء والقدر في العصر الأموى واشتد الجدل في هذا الأمر بين المتخاصمين ، وقد اختلف الباحثون في منبع هذه الحركة هل هو العراق أو الشام ؟ فيذهب بعضهم إلى أن العراق منبع ذلك ، بدليل أن هذه الحركة تكونت حول الحسن البصرى وهو يسكن البصرة ، وأن منشأ الاعتزال كذلك كان فيها ، ويؤيد ذلك ما رواه ابن نباته من أن منشأ هذا القول في ذلك نصرانى من العراق اسلم وأخذ عنه معبد وغيلان ، ويذهب آخرون إلى أن الحركة ظهرت في دمشق متأثرة بمن كان يخدم من النصارى في بيت الخلفاء . وقد قال ابن تيمية أن أكثر الخوض في القدر كان بالبصرة والشام وبعضه في المدينة

وعلى العكس من هؤلاء القدرية طائفة الجبرية وكان أولهم جهم بن صفوان ، ولذلك تسمى هذا الفرقة الجهمية ، وكان يقول أن الانسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ، وأنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل ، وأن الله قدر عليه أعماله لا يبد أن تصدر منه ، وأن الله يخلق فيه الأفعال

كما يخلق في الجماد . وكان الجهم من أهل خراسان من الموالي وأقام بالكوفة وكان فصيحاً خطيباً يدعو الناس فيجذبهم الى قوله . ولم يشتهر بمسألة الجبر فحسب بل تعرض لشيء آخر لا يقل عنه خطراً وهو القول بنفي صفات الله ، ونفى أن يكون لله صفات غير ذاته ، وقال إن ما ورد في القرآن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره ، بل هو مؤول لأن ظاهره يدل على التشبيه بالمخلوق وهو مستحيل على الله فيجب تأويل ذلك ، وقال لا يصح وصف الله بصفة يو صف بها خلقه لأن ذلك يقضى التشبيه ، وقال إن القرآن مخلوق خلقه الله وكان ذلك نتيجة طبيعية لنفيه الصفات ، فإذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم الاعلى التأويل ، وإنما خلقه الله

وقد نهض كثير من العلماء لمقاومة هذه الحركة ، ونشطوا للرد على الجهمية نشاطاً عظيماً . هذا وقد ذابت القدرية والجهمية في غيرها من المذاهب ولم يعد لها وجود مستقل ، وظهر على أثرهما مذهب المعتزلة ، وكثيراً ما يُسمى المعتزلة بالقدرية لأنهم وافقوا القدرية في قولهم « إن للإنسان قدرة توجد بالفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى » ، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله تعالى وقضائه — وأحياناً يلقب المعتزلة بالجهمية لأنهم وافقوهم في نفي الصفات عن الله وفي خلق القرآن ، وقولهم إن الله لا يرى يوم القيامة . ويذهب بعضهم الى أن اسم المعتزلة أتى من « ان واصل ابن عطاء كان يجلس الى الحسن البصرى ، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر ، وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وفسقوا بالكبائر ، خرج واصل بن عطاء على الفريقين ، وقال إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، منزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن من مجلسه ، فاعتزل عنه ، وجلس اليه عمرو بن عبيد فقبل لها ولا تباعها معتزلون »

ويقفهم من قول المسعودى فى مروج الذهب انهم سموا بالمعتزلة لقولهم بان صاحب الكبيرة اعتزل عن السكافرين والمؤمنين ، فالمعتزلة هم القائلون باعتزال صاحب الكبيرة

كان كثير من المعتزلة لا يرضون عن هذه التسمية ، وانما كانوا يسمون انفسهم أهل العدل والتوحيد ، وأشهر من أوائل الداعين الى الاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، وكان واصل من الموالى ولد فى المدينة سنة ٨٠ هـ ثم انتقل الى البصرة وسمع من الحسن البصرى وغيره وتوفى سنة ١٣١ هـ ، وكان خطيبا بليغا مقتدرا على الكلام سهل الالفاظ ، وأما عمرو بن عبيد فهولى كذلك تتلمذ للحسن البصرى ، واعتنق رأى واصل ابن عطاء فى الاعتزال ، واشتهر بالزهد والورع ، وقد مدحه أبو جعفر المنصور وتوفى سنة ١٤٥ هـ وتخلص تعاليم المعتزلة فى الاصول الآتية :

(١) القول بالمنزلة بين المنزلتين أى ان مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن ، لكنه فاسق ، والفاسق يستحق النار لفسقه . وكانت الخوارج تقول بكفر مرتكبى الذنوب ، والمرجئة يقولون بأنه مؤمن ، وقال الحسن البصرى إنه منافق ، فقال واصل إنه فاسق وله منزلة بين الكفر والايمان ، وقال إنه يخلد فى النار

(٢) القول بالقدر وأن الله لا يخلق افعال الناس ، وانما هم الذين يخلقون أعمالهم ، وانهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون ، ولهذا حده يستحق ان يوصف الله بالعدل

(٣) القول بالتوحيد ، فنفوا أن يكون لله تعالى صفات ازلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ، وليست هناك صفات زائدة على ذاته ، والقول بوجود صفات قديمة

قول بالتعدد، والله واحد لا شريك له من أى جهة كان، ولا كثرة في ذاته البتة

(٤) قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقيح، ولولم يرد بها شرع، وللشيء صفة فيه جعلته حسنا أو قبيحا، فالصدق فيه صفة ذاتية جعلته حسنا، والكذب فيه صفة ذاتية جعلته قبيحا. والشرع لم يجعل الشيء حسنا بأمره به، ولا القبيح قبيحا بنهيه عنه، بل الشرع إنما أمر بالشيء لحسنه، ونهى عن الآخر لقبحه، ولا يستطيع الشرع أن يعكس لأن أمره ونهيه تابعان لما في الشيء ذاته من حسن وقبح

كان علماء الحديث من أشد خلق الله كرها للمعتزلة والعكس، ولما كانت الدولة للمعتزلة في عهد المأمون والمعتمد نكلوا بأهل الحديث تنكيلا في فتنه خلق القرآن، ولما دالت دولتهم نكل بهم المحدثون

هذا وقد نشأ الاعتزال في البصرة وسرعان ما انتشر في العراق، وفي العصر العباسي تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان : مدرسة بالبصرة ومدرسة ببغداد. وكان المعتزلة أسرع الفرق الإسلامية للاستفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة إسلامية، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم، وهم الذين خلقوا علم الكلام في الإسلام، وأول من تسليح من المسلمين بسلاح خصومهم في الدين، وجادلوهم جدالا علميا، وردوا هجمات القائلين بالجبر والمنكرين لله، وما أثار اليهود والنصارى والمجوس من شكوك، ونشطوا لهذا العمل نشاطا بديعا، ويقول المرتضى عن واصل بن عطاء « إنه كان أعلم الناس بكلام غالبية الشيعة، ومارقة الخوارج، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين » فأخذ بعد معرفة أقوالهم يرد عليهم في فصاحة من القول

كان المعتزلة على الرغم من مجهودهم في خدمة الإسلام والمسلمين

مكروهين من كثير من المسلمين لأسباب أهمها : أنهم خالفوا اهل الحديث في كثير من آرائهم فحمل عليهم المحدثون حملات عنيفة ، ومنها أنهم حولوا العقيدة الاسلامية البسيطة الى عقيدة فلسفية عميقة ، ومنها أنهم في أيام سلطتهم في عهد المأمون والمعتمد نكلوا بالناس في القول بخلق القرآن ولم يسيروا سيرة فلسفية في الاكتفاء بتأييد رأيهم بالحجة ، بل حملوا الناس على القول برأيهم بالسيف

دار النزاع في زمن المأمون بين المعتزلة وفقهاء العامة ولم يكن لاصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة قبل زمنه حرية البحث ، واطهار الآراء ، بل كانوا يخشون بأس العامة ، ما لم تكن له قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لأن الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة ، لأن القوة فيها ، فلها جاء المأمون وكان تلميذا ليحيى بن المبارك الزيدى المتهم بالاعتزال ، ومتصلا بتامة ابن اشرس زعيم المذهب التمامي في الاعتزال ، فنشأ معتزل النزعة ، ورأى أن يجمع اليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث ، ويجعل لهم مجالس للمناظرة ، ويظهر أنه كان يرمى الى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأى فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأى ، وتتفق كلمة الامة ولا سيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الامامة ، ولقد ورد في تاريخ بغداد للطيفورى : « قال الثعلبى سمعت يحيى بن اكرم يقول أمرنى المامون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا واحضرتهم ، وجلس لهم المامون فسأل عن مسائل ، وافاض فى فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين ، قال المامون يا أباحمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل اهوائهم ، وتركية آرائهم ، فطائفة

عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن ابي طالب رضى الله عنه ، وظنوا انه لا يجوز تفضيل علي الا بانتقاص غيره من السلف ، — وبعد كلام طويل — قال : واني لارجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده ومعونته على اتمامه سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أَرْضَى وأصلح للدين ، إما شك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعاً ، وإما معاند فيرد بالعدل كرها . »

أباح المأمون الكلام بين المتناظرين لدرجة كبيرة ، فقد تناظر في مجلسه أثنان في الامامة ، ونصر أحدهما الامامية ، ونصر الثاني الزيدية ، وهذان المذهبان كلاهما أن صحا يذهبان بما في أيدي آل العباس . قال بشر المريسي « حضرت عبد الله المأمون أنا وتامة ومحمد بن أبي العباس وعلي بن الهيثم فتناظروا في التشيع ، فنصر محمد بن ابي العباس الامامية ، ونصر علي بن الهيثم الزيدية ، وجرى الكلام بينهما ، الى أن قال محمد لعلي يا نبطي ما أنت والكلام ؟ فقال المأمون — وكان متكئاً في مجلس — الشتم عى والبذاءة لؤم ، إنا قد أبجنا الكلام ، وأظهرنا المقالات ، فمن قال بالحق حمدناه ، ومن جهل ذلك وقفناه ، ومن جهل الامرين حكمنا فيه بما يجب ، فاجعل بينكما أصلاً فأنا الكلام فروع ، فاذا افترعتم شيئاً رجعتم الى الاصول . »

يقول الخضرى بك « كانت قوة فقهاء العامة محكمة العرى ، لأن العامة كانت تجلهم وتحترم آراءهم ، كما أن الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور ويقفون ضد من يعلن مخالفتها »

لم يعتقد المأمون جميع آراء المعتزلة لأن لم يتفق معهم في القول بالقدر وإنما قال بخلق القرآن ، وأظهر رأيه في ذلك سنة ٢١٢ هـ ، فغضب جمهور العلماء والفقهاء ، وقالوا إنه مبتدع ، وغلا بعضهم في ذلك وقال بكفر من رأى خلق القرآن ، واتسع الخرق بين الفريقين ، وحاول المأمون أن يستعمل نفوذه

بصفته خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ليرد جماعة الفقهاء الى رأيه ، فكتب الى عامله على بغداد اسحاق بن ابراهيم كتابا في سنة ٢١٨ يأمره فيه أن يجمع الفقهاء والعلماء ، ويسألهم رأيهم في خلق القرآن ، ويكتب اليه بأجوبتهم ومما جاء في كتابه هذا ، ما يأتي : « فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرا عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن واحدا ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده وبقينه ، فاذا أقرأوا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألهم عن علمهم في القرآن ، وترك اثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ، ولم يره والامتناع من توقيعها عنده ، واكتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألهم والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم ، وتفقد آثارهم ، حتى لا تنفذ أحكام الله الا بشهادة أهل البصائر في الدين ، والاخلاص للتوحيد ، واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك انشاء الله ، » ثم طلب منه أن يشخص اليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور وكان إذ ذاك يحارب الروم ولما مثلوا بين يديه امتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فاجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأشخصهم الى بغداد وأمر اسحاق أن يعلن أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، ففعل ذلك اسحاق ثم أخطى سبيلهم . وكتب المأمون الى اسحاق كتابا ثانيا قال فيه : « وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حقا في الدين ، ولا نصيبا من الايمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة

ولا صدق في قول ولا حكاية ، ولا تولية شيء من أمر الرعية »

جمع اسحاق نحو ثلاثين رجلا من العلماء منهم بشر بن الوليد وعلى بن أبي مقاتل وأبي حسان الزيادي وامتحنهم جميعا وارسل الى المأمون نتيجة الامتحان ، ولقد كان هؤلاء العلماء ينجييون أجوبة غير صريحة ، فاغتاظ المأمون وغضب غضبا شديدا ، وكتب الى اسحاق كتابا ثالثا قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع ، وطلب اليه أن يحمل من لم يقل منهم بخلق القرآن موثقا الى عسكر أمير المؤمنين ، فاحضرهم اسحاق مرة ثانية وسأهم فاجابوا جميعا أن القرآن مخلوق ما عدا أربعة منهم ، فأمر بهم فشدوا في الحديد وفي اليوم الثاني أعاد عليهم المحنة فاجابه واحد من الأربعة فاطلقه ، وفي اليوم الثالث فعل كذلك فاجابه ثان ، وبقي اثنان صمما على عدم الاجابة ، وهما أحمد ابن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما اسحاق الى طرسوس حيث كان المأمون وأرسل فريقا آخر بعدهما ، ولكنهم عند ما وصلوا مدينة الرقة بلغتهم وفاة المأمون فأقامهم الوالي بها ثم أعيدوا الى بغداد . وقد استمرت هذه المحنة قائمة في الدولة العباسية في أثناء حكم المعتصم وابنه الواثق ولكن جاء المتوكل بعدهما فأمر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون

وقبل أن نختم تاريخ هذه المجادلات المذهبية والمناظرات الدينية نرى أن ننقل لك كلمة مورفي في هذا الموضوع كما ترجمها الدكتور الرفاعي صحيفة ٣٩٦ قال : « وفي الحق أن المأمون كان متعصبا لفارس مسقط رأس أمه وزوجه ، شديد الميل الى العلويين ، ونشأ عن ذلك في السنوات الأخيرة من حكمه مزيج من حرية الافكار والتعصب . وكان المأمون في بعض هذه المسائل واسع الحرية حقا لدرجة مدهشة . وقد الغى من بضع سنوات

مضت، الأمر الذي كان أسلافه قد أصدروه ، يحرمون فيه ذكر معاوية
او أحد الأمويين بخير ، وأباح للمسيحيين حرية المناقشة في أى الدينين
أفضل : الإسلام أم المسيحية . غير أن ميوله الفارسية التي كان يمنح اليها
دائماً ، دفعته أخيراً أن يتناقش بحماسة في نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرية
التفكير . ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء وعلماء الدين من كل فئة ، وأباح
لهم المناقشة في حضرته في نظريات كان البحث ممنوعاً فيها كعلاقة الانسان
بخالقه ، وطبيعة الألوهية وغير ذلك . وأخيراً أعلن محوله الى عقائد تخالف
تعاليم الدين الصحيحة فمن ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون
بالاختيار لا بالجبر ، وأن القرآن وإن كان وحياً إلا أنه مخلوق ، بدلا من
العقيدة التي كانت لا تنازع وهي ان القرآن أزلي غير مخلوق . وأعلن
المأمون أيضاً أن عليا اشرف الخلق بعد النبي ، وعلى هذه النظرية بنيت
نظرية الأئمة المقدسة او الزعامة الدينية التي كانت تنتقل من عضو الى
آخر من بيت علي ، وبدأ في تلقين الناس أنه يوجد مصادر أخرى غير القرآن
والحديث يمكن الاسترشاد بها في مسائل الدين ، وفسر القرآن تفسيراً من
غير تقييد بلفظه ، وبذلك ذلت صعوبات كثيرة كانت تعترض حرية التفكير
أو تقف عثرة في تقدم العمران . . . وعلى ممر السنين تحولت فكرة المأمون
في خلق القرآن من مجرد رأى الى اعلانه المشؤم الذي حمل فيه رعاياه
بالاضطهاد والعقوبات على اتخاذه عقيدة لهم . وقد ارسل الى والى بغداد
وهو في حملته الأخيرة على الروم امراً بأن يجمع كبار العلماء والفقهاء
ويمتحنهم في هذه المسألة الخطيرة ويرسل اليه إجابتهم ، وقد تأثر كثير من
العلماء في مجلس المناظرة الذي كان أشبه بمحكمة التفتيش ، حتى أظهروا القول

نلق القرآن ، إلا أن البعض بقي ثابتاً على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق .
كأحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي ، الذي حملوه مكبلاً بالحديد
إلى معسكر الخليفة . ولقد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هُدا
بالقتل (وهما بشر بن الوليد و ابراهيم بن المهدي) ، و أرسل عشرون منهم
تحت خفارة حراس لينتظروا في طرسوس عودة الخليفة من حروبه ،
ولكن جاءتهم الانباء في أثناء سيرهم في الطريق بموت المأمون . ولقد سودت
أمثال هذه الفظائع سمعة المأمون في سنوات كثيرة . »



البيح السبكي

عصر المعتصم والواثق

١ - أبو اسحاق محمد المعتصم

(٢١٨ - ٢٢٧ هـ) (٨٣٣ - ٨٤٢ م)

ولد أبو اسحاق محمد بن الرشيد في سنة ١٧٩ هـ فكان أصغر من أخيه المأمون بتسع سنوات وقد شب شجاعاً فأجبه المأمون وقدمه على ابنه وولاه عهده، ولم يخبرنا المؤرخون عن الأسباب الحقيقية التي حالت بين المأمون وبين وصايته بالخلافة لابنه العباس مع أنه كان محبوباً من الجند ومن القبائل العربية جابجا. وكل ما قيل في هذا الصدد أن المأمون رأى أخاه المعتصم خير وسيط لاتباع السياسة التي رسمها للخلافة العربية لما اشتهر به من الحزم وبعد النظر في تصريف الامور

لما علم الجند بوفاة المأمون ثاروا وانتخبوا ابنه العباس خليفة، ولكن العباس احتراماً لوصية ابيه اعتذر لقواد الجند وسارع وأقسم يمين الطاعة لعمه، فبايع الجميع الخليفة الجديد وتلقب بالمعتصم، وأسرع عائداً الى بغداد فدخلها في أول رمضان سنة ٢١٨ هـ بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانته، وحمل ما كان بها من السلاح والعدد وأحرق ما لم يقدر على حمله، وأمر سكانها بالرجوع إلى بلادهم الاصلية

أحوال الدولة الداخلية في عهده :

يقول موير: «وسار المعتصم على خطة أخيه المأمون في تعضيده لمذهب المعتزلة وتقديم الجند الاثراك على العرب، وسمح للناس بحرية الرأي والكلام في مختلف الامور إلى درجة لم تكن في الحسبان قبل عصر المأمون، ولكنه

شدد النكير على من خالف مذهب المعتزلة ، وفرضه على الناس فرضاً وطلب إلى العلماء والفقهاء الاعتراف بخلق القرآن ، وبأن الله لا يرى بذاته يوم القيامة ، وعاقب من خالف رأيه بالتعذيب والقتل ، وأعاد القبض على أحمد بن حنبل وناقشه في آرائه الدينية ، ولما خالفه ضربه ضرباً مبرحاً وأمر بسجنه ، ومع ذلك كان عصره زاهاً بالحركة العلمية والفلسفية ، وفي عصره كتب الكندي الفيلسوف العربي مؤلفاته التي اشتهرت في أوربا شهرة كبيرة ، ولقد أكثر المعتصم من جند الترك حتى ملأوا بغداد وما حولها واعتدوا على أهل المدينة وعلى نساءهم ، فهب البغداديون ودافعوا عن أعراضهم وأولادهم ، واشتبكوا في معارك دامية مع أولئك الجند

كان الغرض من الاكثار من هؤلاء الأتراك أن يوجد الخليفة سنداً يستند عليه في تنفيذ سياسته ، وعنصرًا جديدًا في الجيش ليحفظ التوازن بين فرقه المختلفة ، إذ كان الخراسانيون يكونون معظمه ، وقامت الدولة العباسية على سواعدهم وكواهلهم ، فكانوا مصدر خطر يهدد الخلافة إذا انحرف الخليفة عن رؤسائهم

تألف جيش الترك من المماليك الذين استقدمهم الخليفة من أواسط آسيا ومن اليمن ومصر ، وكان مثلهم في الدولة العباسية مثل الحرس البريتوري في الإمبراطورية الرومانية وحرس الاسترلديزي في الإمبراطورية الروسية ، والحرس السويسري في عهد ملوك البربون في فرنسا ، وكان لهؤلاء الأتراك شأن كبير في تصريف أمور الدولة وبلغوا من الجاه وعلو المكانة مبلغاً عظيماً ، واحتقروا العرب والفرس احتقاراً شديداً : فالعرب عن الحواضر إلى البادية وبعد أن كانوا عماد الخلافة وسندها انقلبوا مصدر خطر يهدد كيانها

غضب أهل بغداد من تصرفات جيش المعتصم الأجنبي وارتفعت أصواتهم بالشكوى إلى الخليفة، ولما رأى أن الفتنة على الأبواب تجنبها وقرراً به على الرحيل من بغداد إلى مدينة سامرا وهي تقع في الشمال الغربي للعاصمة، وتبعد عنها بنحو ستين ميلاً، وفي سنة ٨٣٦ م رحل إليها هو وجنده من الترك، وبني لنفسه فيها قصراً فخماً وثكنات لجنوده الذين بلغوا إذ ذاك نحو ٢٥٠ ألفاً وبني الأماكن لخيوله التي بلغ عددها ١٦٠ ألفاً وابتنى قواد الأتراك لأنفسهم وحاشيتهم قصوراً لا تقل في فخامتها عن قصر الخليفة، وعمرت هذه المدينة بانتقال مقر الحكم إليها، وغير المعتصم اسمها إلى «سرمن رأى»، وظلت عاصمة للخلافة العباسية نحو خمسين عاماً من سنة ٨٣٦ م إلى ٨٩٤ م وكانت مقراً للخلافة سبعة من الخلفاء

تنفست بغداد الصعداء بخروج جند الأتراك منها، وتخلصت من شرورهم، ولكن الخليفة وقع تحت تأثيرهم. فعظم أمرهم وأصبحوا شراً مستطيروا على الدولة العباسية فيما جاء بعد ذلك من عصور كما سيتبين لنا

ثورة الزط:

سبق أن تكلمنا عن ثورة تلك القبائل الهندية في تاريخ المأمون، ولكن المأمون مات وكانت لا تزال تلك القبائل ثائرة على الخلافة العباسية، وعاثت في البلاد فساداً، وسدت طريق البصرة وحملت الاقوات وروعت الأهليين واخافت السيل، فاهتم المعتصم بأمر هؤلاء الثوار وارسل إليهم في سنة ٢١٩ هـ أحد قواده الأكفاء المسمى عجييف بن عنيسة نخرج إليهم، وعسكر في مدينة واسط وسد الأنهار التي كان الزط يدخلون منها ويخرجون وحاصروهم وحاربهم حرباً عواناً لمدة تسعة أشهر، وقتل منهم خلقاً كثيراً واضطروهم إلى التسليم وأمنهم ثم حملهم في أواخر سنة ٢١٩ هـ إلى دار الخلافة على

سفن، «واقبل بهم وكان عددهم ٢٧ الف انسان بين رجل وامرأة وصبي حتى نزل الزعفرانية، وأقام بها يوماً، وعبأهم في زوارقهم على هيئتهم في الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠ هـ فمروا على المعتصم بتعبثهم ثم عبر بهم الى الجانب الشرقي، فدفعوا الى بشر بن السميدع فذهب بهم الى خانقين ثم نقلوا الى الثغر الى عين زربة» وقد هاجمها البوزنطيون في خلافة المتوكل سنة ٢٤١ هـ وذبخوا افرادها وشتوا شمل من بقى حيا، فنفر قوا في أنحاء اوربا ومنهم تناسلت طوائف الاغجار التي تتجول في سهول وممالك اوربا في الوقت الحاضر ويعرفون بالنورة

القضاء على بابك الخرمي

أوصى المأمون أخاه المعتصم بمحاربة بابك والقضاء عليه، وكان هذا الثائر قد استفحل أمره في ازربيجان، ونشر نفوذه حتى همذان، ودخل في بيعته خلق كثيرين واعتنقوا مذهبه، فشمز المعتصم عن ساعد الجد وعزم على الخلاص من شره بكل ما اوتي من قوة، فاختر أحد قواده الاتراك الذين اشتهروا بالبسالة والاقدام، وسيره اليه في سنة ٢٢٠ هـ، خرج القائد التركي ويسمى حيدر بن كاوس المعروف «بالافشين» لمحاربة الثائر على رأس جيش منظم، وعسكر في مدينة برزند، ورم الحصون فيما بين برزند واردييل، واستعد للقتال استعدادا كبيرا. ووزع قواده على الحصون والمعاقل لحراسة القوافل والسابلة، واطلق عيونه وجواسيسه حتى يعرف خطوات الثائر وحركاته، واشتبك معه في القتال، واستمر يحاربه لمدة سنتين وانتصر عليه في النهاية في الربيع من سنة ٢٢٢ هـ ٨٣٧ م وفر بابك الى ارمينيا فقبض عليه احد امرائها وسلبه الى الافشين، فرجع به الى

الخليفة ومعه أخوه عبد الله ، وكان رجوعه الى سامرا فوزا مينا له ، إذ أراح المسلمين من شر ثائر روع البلاد والعباد مدة عشرين عاما ، ولما قرب من المدينة كان فرح الخليفة شديدا حتى أنه كان يرسل اليه في صبيحة كل يوم حلة شرف ومعها الهدايا الثمينة ، وخرج اليه هو واشراف الدولة واستقبله استقبالا باهرا ، وبعد أن رأى الخليفة الثائر أمر بقتله ، وصلب جسمه ، وقطع رأسه وأرسلها الى مدن خراسان ، أما عبد الله فقد أرسل الى بغداد حيث قتل وصلب بعد القتل على شاطئ النهر . ويقال إن بابك قد تغلب على ستة من القواد العباسيين ، وأنه ذبح ٢٥٥ الفا وحمل ٣٣٠٠ رجلا و ٧٦٠٠ امرأة أسراء ، وظلوا في قبضته حتى خلصهم الأفشين من الأسر

العلويون في عهده :

توفي محمد الجواد بن علي الرضا في أول خلافة المعتصم فتولى إمامة الفرقة الاثني عشرية بعده ابنه أبو الحسن علي الهادي ، وفي هذا العهد خرج من الزيدية محمد بن أبي القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين ، وكان مقيا بالكوفة ثم خرج منها الى خراسان ، ودعا الناس الى بيعته ، فاجتمع اليه ناس كثيرون ، فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر أمير خراسان وحاربه وقبض عليه ، وأرسله الى المعتصم في سنة ٢١٩ هـ فسجنه بسمارا ، ولكنه تمكن من الهرب بعد قليل ولم يعرف له خبر بعد ذلك ، وقد انقاد إلى أمامته كثيرون من الزيدية « ومنهم خلق كثير يزعمون أنه لم يمت ، وأنه حي يرزق ، وأنه يخرج فيملا الأرض عدلا كما ملئت جورا ، وأنه مهدي هذه الامة »

مؤامرة عجيف بن عنبسة :

كان عجيف من قواد العرب الذين اشتهروا بالقوة والحزم ، وقد أدى للدولة خدمات جليلة الشأن وانتصر على الزط ، وأبلى بلاء حسناً في الحروب ضد الروم ، ولكنه غضب على الخليفة لتقدمه قواد الترك عليه ، وأراد أن يثار لنفسه ولجنده ، من هؤلاء الدخلاء الذين احتقروا وأساءوا إليه وإلى جنده ، فأغرى العباس بن المأمون على التطلع إلى عرش الخلافة الذي كان قد رفضه قبل ذلك ، ولما قبل العباس الفكرة انضم إليه قواد كثيرون من العرب وبعض الأتراك الناقين على بني جنسهم ، واتفق الجميع على الخروج على الخليفة يوم تسقط عمورية إحدى مدن الروم الذين كان الخليفة يحاربهم إذ ذاك ، واتفقوا أن يغتالوا المعتصم وهو يوزع الغنائم والأسلاب بين الجند ، ويغتالوا معه قائديه الإفشين وأشناس

عرف الخليفة خبر المؤامرة ، وهاجم المتآمرين بنفسه ، وشتت شملهم ، وقبض على عجيف وقتل هو ومن معه . أما العباس فقد سلمه الخليفة إلى الإفشين بعد أن اعترف له بكل دقائق المؤامرة وتفصيلاتها وقتله الإفشين . « كان من نتائج تلك المؤامرة كما يقول موير أن ارتقى الخليفة في أحضان القواد الأتراك لحمايته ، وأبعد عنه بالتدريج قواد الفرس والعرب . » فارتكب بذلك خطأ جسيماً ظهرت عواقبه بعد ذلك

خيابة الإفشين وسقوطه ٢٢٥ هـ :

خرج على الخلافة أمير من أمراء طبرستان يسمى مازيار بسبب تنافسه مع عبد الله بن طاهر أمير خراسان . فانتهم الإفشين تلك الفرصة وكان يحقد على عبد الله بن طاهر ، ويرغب في حرمانه من ولاية المشرق ليحل محله ،

وشجع الثائر بمختلف الوسائل ، وكان يتطلع إلى قيادة الجيوش لمحاربة الثائر ، حتى اذا ما انتصر عليه ، أعجب به الخليفة وولاه خراسان ، ولكن الخليفة ترك لعبد الله أمر محاربة الثائر ، ونهض عبد الله لمحاربة ما زيار وأرسل اليه جيشا قويا بقيادة عمه الحسن بن الحسين بن مصعب فاستطاع بمساعدة الجيوش الأخرى التي أرسلها المعتصم أن يضيق الخناق على الثائر ، وحاصر طبرستان من كل جانب فرأى ما زيار بعد ذلك أن يستأمن إلى الحسن بن الحسين فأمنه وسلمه إلى محمد بن إبراهيم بن مصعب قائد الخليفة ليسير به إلى المعتصم ، ولما مثل بين يدي الخليفة اعترف بتحريض الأفشين له ، واطلع الخليفة على الكتب التي أرسلت اليه من قبله . فغضب المعتصم وأمر بالقبض على القائد الخائن وسجنه ، ثم أخرج من السجن وأهم بالكفر والكيد للاسلام . وطلب إلى وزيره محمد بن عبد الملك الزيات للتحقيق معه ومناظرته وسؤاله عن التماثيل التي كان يجمعها في منزله ، وقد أرسل إلى بعض الامراء من صغد للشهادة على ما ارتكبه الأفشين من المخالفات وعلى ما كان يكتنه من العداة نحو المسلمين والاسلام ، وبعد محاكمة طويلة أعيد الأفشين إلى سجنه ومات في سجنه سنة ٢٢٦ هـ على أثر أكلة فاكهة أرسلت اليه من قبل الخليفة ، فأخرج جسمه من السجن وصلب ثم أحرق ، أما ما زيار فقد ضرب ضربا أليما مات بسببه

يقول موير « إن محاكمة الأفشين أضاعت أمام الخليفة وحاشيته الطريق ، وأظهرت له ما كان هؤلاء الجوس يضمرون نحو الاسلام ، وأن غالبية الفرس كانت تعتنق هذا الدين ظاهريا ، وكانت تترقب الفرصة للرجوع إلى دينهم ، وما ثورة بابك والمبرقع الخراساني وغيرهما إلا دليل واضح على هذا الميل . »

ثورة أبي حرب المبرقع اليماني بفلسطين

كان جند الأتراك لا يحترمون حقوق الأفراد ولا يراعون حرمة المنازل، فنشأ عن ذلك أن خرج على الدولة أبو حرب المبرقع اليماني، وسبب ذلك أن دخل أحد جند الترك منزله وهو غائب فمنعته زوجته، فضربها بسوط على يدها، فلما جاء زوجها وعرف الخبر حمل سيفه وذهب إلى الجندی وقتله، ثم فر إلى جبل من جبال الأردن، وألبس وجهه برقعا كيلا يعرف وكان يظهر بالنهار ويدعو الناس إليه، ونشر أمره بينهم، فالتف حوله جماعة من رؤساء اليمانية وكبر شأنه، وعلم المعتصم بخبره، فأرسل إليه رجاء بن أيوب الخضاري أحد قواده، فتغلب عليه، وشتت شمل أنصاره، وقبض عليه، وحمله إلى المعتصم أسيرا

أحوال الدولة الخارجية في عهده :

انتهز البوزنطيون فرصة اشتغال الدولة بمحاربة بابل، وأغار توفيل أمبراطورهم على أملاك المسلمين، ودخل زبطرة وملطية، وأحرق المنازل وقتل من فيها من الرجال وسبي النساء والذرية، وعذب الأهلين عذابا ألما، ومثل بهم أفضع تمثيل، وتقدم حتى دخل سوريا، ووصلت أخبار تلك الفظائع إلى مسامع الخليفة، ويقال إنه أخبر ببناء سيدة هاشمية تستنجد به من ظلم الروم وقسوتهم، فهب من فوره يستعد للقتال، واستعد استعدادا كبيرا وفي الربيع من سنة ٢٢٣ هـ خرج بجيشه إلى طرسوس. وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق على رأسها قواد من الأتراك، فكان على المقدمة اشناس ويتلوه محمد بن إبراهيم المصعبي، وعلى الميمنة ايتاخ وعلى الميسرة جعفر بن دينار، وأمر الأفضشين أن يمضوا فيدخل بلاد الررم، وحدد له

يوما أمره أن يكون وصوله فيه إلى أنقرة، وسار الأفسخين والتقى بجيش
الإمبراطور وهزمه بعد حرب ضروس، وكان المعتصم قد دخل هو
واشناس أنقرة من غير أن يلقي حربا لتفرق الجنود التي كانت قد جمعت
لمحاربة الخليفة، وعند ذلك عزم المعتصم على الزحف على مدينة عمورية
وهي مسقط رأس الإمبراطور، وزحف عليها بجيشه وكانت المدينة
محصنة تحصيناً قوياً فقاومت جيوش الخليفة مدة ٥٥ يوماً، وأخيراً ضيق
عليها المعتصم الحصار وأمر أسوارها وأبلا من الحجارة فالتفتها، واستطاع
جنده الدخول إلى المدينة، وانتقم الخليفة من أهل المدينة انتقاماً مراراً
لضحايا زبطرة وملطية وأسر وغنم، ثم أحرق المدينة وعاد إلى طرسوس
واضطر توفيل إلى طلب الهدنة فهادنه الخليفة في سنة ٨٤١ م ورجع إلى
سامرا منتصراً، وكان رجوعه بعد ذلك الظفر يوماً مشهوداً، وامتدحه
الشعراء ومنهم أبو تمام حبيب بن أوس فقد قال إذ ذاك قصيدته المشهورة
التي أولها

السيف أصدق أبناء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب

الوزارة في عهد المعتصم :

كان الفضل بن مروان هو أول وزير استوزره المعتصم، وهو الذي
أخذ له البيعة على الناس في بغداد عندما بلغه خبر وفاة المأمون، وظل
وزيراً نحو سنتين استبد في أثناءهما بالأمر، واستقل بإدارة الشؤون
دون الخليفة، فكثرت حساده وأوقعوا به عند الخليفة فغضب عليه، وعزله

وأمر بسجنه ، ثم استوزر بعده الفضل أحمد بن عمار الخراساني وكان
وزيرا أميا ، لا يحسن القراءة والكتابة ، فعزله الخليفة ، واتخذ مكانه محمد
ابن عبد الملك المعروف بابن الزيات . فقام بأمر الوزارة خير القيام ، واستمر
وزيرا حتى توفي المعتصم ، وكان عالما أدبيا يجيد خدمة الملوك وكان يقول
الشعر ولكنه كان شديدا في معاملة الولاة ، الذين يصادرهم لارتكابهم
الخيانة في شؤون وظائفهم ، وقد اشتهر في هذا العهد أحمد بن أبي دؤاد الايادي
وكان من المعتصم ، كيجي بن أكتم من المأمون ، ولاد قضاء القضاة ، واختص
به ، حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه . « فكان له في حياة المعتصم
مركز لا يدانيه فيه أحد » وكان ممن يحبون الخير للناس وله شرف
نفس وجمال خلق عربي حتى عرف بالمروءة وكان يحمل في سبيلها مالا
يحملة أحد . « وكان وجود ابن أبي دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه لانه
شجاع شديد عجول ، فكان إذا أسرع اليه الغضب هدا ابن أبي داود حدثه
وأراه وجه الاثناة والعتو فلا يسعه إلا أن يسير في سبيلها ، وكان له
عليه من الدالة وعلو المركز ما يستعين به على تنفيذ غرضه . »

وفاة المعتصم وأخلاقه :

مات المعتصم يوم الخميس ثمان ليال مضت من ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ
وترك ولاية العهد لابنه هارون ، ولقد امتاز بالشجاعة والاقدام ، وشدة
الناس ، وكان رحيفا ، طيب القلب غيورا على الاسلام والمسلمين ، ولكنه
لم يكن بعيد النظر في العواقب ، وعليه وحده تقع تبعة ما حل بالعباسيين
بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلاطينهم وما حل بالامة العربية من
تغلب العنصر التركي على أمورها

٢ - هارون الواثق بالله

(٢٢٧ - ٢٣٢) هـ (٨٤٢ - ٨٤٧) م

ولد ابو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم في سنة ١٨٦ هـ ، وكانت أمه من سبايا الروم تسمى قراطيس ، وبايعه الناس بالخلافة عقب وفاة أبيه ، واعتلى عرش الدولة في شهر ربيع الاول سنة ٢٢٧ هـ ، وقد ورث عن والده ميوله الفارسية ، وسار على خطته في المسائل الدينية ، وأجبر القوم على اعتناق مذهب المعتزلة ، وكان مستبدا ضعيفا في إدارة الشؤون ، ولكنه كان شجاعا في الأمور الحربية ، وكثيرا ما قاد الجيوش بنفسه في ميادين القتال ، وقد اشتهر بحبه للعلويين ، فانه أكرمهم وأحسن اليهم ، وأجرى على أهل الحرمين أرزاقا كثيرة . وقد اختلف الكتاب في تقدير صفاته اختلافا كبيرا ، فبينما نرى الكتاب الذين يناوئون الحركة الفكرية والنهضة المنهية يحملون عليه حملات شديدة ، ويصفونه بالاستبداد والعجز ، وضعف الارادة ، وسوء الادارة ، نرى الفريق الآخر يمجده ، ويعلى من شأن حكومته ، ويصف عصره بعصر الحزم والعرفان ، وأنه كان محبا للأدب وأهله ، ميالا للشعر والموسيقى ، وكان محسنا لدرجة تفوق حد الوصف ، ويستشهد كتاب الفريق الأول على استبداده ، بالنكبة التي نكب بها الكتاب والعمال متهما إياهم بالخيانة وأخذ منهم الأموال التي ظن انهم اختانوه فيها ، ويروى عن سبب ذلك أنه كان يجلس ذات ليلة بين فريق من سمّاره فسأل عن اسباب نكبة الرشيد للبرامكة ، فأجابته أحدا الجلساء ان سبب النكبة يرجع الى أن هؤلاء البرامكة ، استهلكوا الاموال ، وتعللوا في انفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع له بها فلما علم الرشيد بذلك وثب عليهم ، وأزال نعمتهم متمثلا بقول القائل « إنما العاجز من لا يستبد »

فقال الواثق صدق والله جدى ، انما العاجز من لا يستبد وأخذ يتهم كتابه بالخيانة ، وحصل منهم على مبالغ كبيرة من المال ، بلغت نحو مليونين من الدينار ، ودل ذلك على ما وصلت اليه الدولة من سوء الادارة المالية ، وانتشار الرشوة بين طبقات الموظفين والعمال ، وجشع الوزراء والولاة

حالة الدولة الداخلية في عهده :

اولا : الحركة المذهبية

اتبع الواثق سياسة المأمون والمعتمد الدينية . ومال إلى الاعتزال وعمل على نشره ، فقاومه فريق الفقهاء وأهل السنة ، واشتدت حركة المعارضة . وغضب أهل بغداد ، وتآمروا على الحكمة ورأس المعارضين احمد بن نصر ابن مالك بن الهيثم الخزاعي ، وكان فقيها اشتهر بالورع والتقوى ، وكان أبوه نقييا من نقباء الدولة العباسية . والتف حول احمد خلق كثير وكبر شأنه واتفق الجميع على ان يتظاهروا بالأعلام والطبول محتجين على تصرفات الخليفة الدينية معلنين سقوطه . ودمربوا لهذا الخروج يوما معينا . ولكن خبر المؤامرة اكتشف قبل نفاذها بيوم ، وقبض رجال الشرطة على أحمد بن نصر وزعماء المتآمرين ، وحملوهم إلى الواثق بسامرا « فجلس لهم الواثق مجلسا عاما لامتحانهم ، ولما حضروا إليه لم ينظر الواثق احمد بن نصر في الشغب ، ولا فيما رفع اليه من ارادة الخروج عليه لكنه سأله ما تقول في القرآن ؟ قال هو كلام الله ، ولم يزد على ذلك . وبعد أخذ ورد أقبى الحاضرون بقتله ، فقام الواثق إليه بنفسه وقتله ، وصلب جسمه بسامرا وحمل رأسه الى بغداد فنصب بها في الجانب الشرقى ، وجعل في اذنه رقعة فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو احمد بن نصر بن مالك ، ممن قتله الله على يدي عبد الله هارون الامام الواثق بالله امير المؤمنين ، بعد ان أقام عليه الحججة

في خلق القرآن ونفى التشبيه ، و عرض عليه التوبة وممكنه من الرجوع الى الحق ، فأبى الا المعاندة والتصريح ، والحمد لله الذي عجل به الى ناره وأليم عقابه ، وأن أمير المؤمنين سأله عن ذلك فأقر بالتشبيه ، وتكلم بالكفر ، فاستحل امير المؤمنين دمه ولعنه . »

وقد اشتهر ايضا ابو يعقوب بن يوسف بن يحيى من علماء مصر وكان من اصدقاء الامام الشافعى ، وعلم بخبره الواثق فأرسل الى عامله ان يمتحنه فامتحنه فلم يجب . وامتنع ، فأرسل الى الواثق فأمر بسجنه ، وسجن ببغداد وظل مسجوناً حتى مات في سجنه سنة ٢٣١ هـ

هذا وقد استمرت هذه الاضطهادات الدينية طوال حكم الواثق ، ولكنها ابطت في عهد المتوكل الذى حكم بعد الواثق فإنه امر برفع المحنة ، وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون ، وقد حمد الناس له هذه المكرمة وذلك التسامح وأثنوا عليه ثناء عظيماً ، وتجاوز له عما كان من هفواته ثانياً : قامت الثورات عمّت بلاد الخلافة ، فقام الخوارج بثورة في بلاد الموصل ، وثار جموع الكرد في فارس ، وساءت الحال في الشام وبلاد العرب ، و كانت الثورة في تلك الاصقاع مما يهدد سلامة الدولة وينذر بسوء العاقبة ولذلك يحسن ان نورد شيئاً عن أسبابها وسيرها ونتائجها

ثارّت بلاد العرب بين سنتى ٢٣٠ و ٢٣٢ هـ وترجع أسباب تلك الثورة الى الاعتداءات التي قام بها بنو سليم من قيس عيلان في المدينة المنورة وغيرها من مدن الحجاز ، وكانوا يسلبون الناس أشياءها وقطعوا الطريق بين مكة والمدينة ، فوجه اليهم حاكم المدينة محمد بن صالح بن العباس قوة بقيادة حماد بن جرير الطبرى ، فقاتلهم بالقرب من المدينة فهزموه وقتلوه ، وعظم أمرهم بعد ذلك ، فوجه اليهم الواثق أحد قواده المسمى بغا الكبير ، فسار اليهم حتى وصل الى حرة بنى سليم وهناك قاتلهم قتالاً عنيفاً ، وتغلب

على قواتهم وشتت شملهم ، فطلب رؤسائهم الأمان فأمن بعضهم ، وقبض على من اشتهر منهم بالشر والفساد ، وحملهم الى المدينة في شهر ذى القعدة سنة ٢٣٠ هـ وحبسهم فيها ثم سار الى مكة وأدى فريضة الحج ، وخرج بعد ذلك لمقاتلة عرب بنى هلال ، وبعد قتال طلبوا اليه أن يؤمنهم كما أمن اخوانهم من بنى سليم ففعل ، ولكنه أيضا قبض على أهل الشر منهم ورحل بهم الى المدينة وضمهم الى باقي المسجونين ، وبلغ عددهم جميعا نحو ١٣٠٠ رجل ، وسار هو الى محاربة بنى مرة ، وانهز المسجونون هذه الفرصة ونقبوا جدار السجن وحاولوا الهروب فقاومهم أهل المدينة ، واجتمعوا عليهم ومنعواهم الخروج ، وقام عبيد الاشراف وذبحوا المسجونين جميعا ، ولما علم بغا بخر ذبحهم حزن لذلك حزنا شديدا

استمر بغا يطارد الثوار والخارجين على الدولة من بنى مرة وفزارة وبنى كلاب ، واستطاع أن يشتت شملهم ويفرق جموعهم بعد أن قبض على كثيرين منهم ، ورجع بهم الى المدينة في شهر رمضان سنة ٢٣١ هـ وحبسهم أيضا بها ثم خرج حاجا . وفي السنة التالية أرسل اليه الخليفة أن يخرج إلى غزو بنى نمير ويقضى على شرورهم . فمضى نحو اليمامة والتقى بجماعة منهم بموضع يقال له الشريف وحاربهم ، وقتل منهم عددا وأسر عددا آخر ، ثم تقدم يطارد باقي الثوار حتى اجتمع بهم في مكان يقال له روضة الأبان وبطن السر وطلب اليهم الخضوع والدخول في طاعة الخليفة فامتنعوا فقاتلهم وانتصر عليهم في النهاية ، وأمن الباقي من جموعهم ولما جاءوا اليه قبض عليهم وحملهم ورجع بهم الى البصرة ، فوصلها في شهر ذى القعدة سنة ٢٣٢ هـ ، وطلب الى صالح بن العباس أمير المدينة أن يسير اليه بالمسجونين بالمدينة ، وتقابل الاثنان في بغداد وسارا بمن معهما من الأسرى الى سامرا ، وهدأت الاحوال بعد ذلك في سوريا وبلاد العرب وغيرها من أقاليم الدولة

حالة الدولة الخارجية في عهده :

كانت الحروب لا تنقطع بين الدولة العباسية والدولة البوزنطية وقد سبق أن وصفنا تلك الحروب في عصور الخلفاء العباسيين التي مرت علينا وكان المسلمون يأسرون من البوزنطيين، وهؤلاء يأخذون من المسلمين عددا كبيرا من الأسرى، ولما كانت تقف رحى القتال وتعقد الهدنة بين الطرفين « كان يهيم كلتا الدولتين أن تخلص أسراها حذرا من الاسترقاق » فكاتبنا تتفقان على المفاداة، كل أسير بمثله . وقد وقع هذا الفداء في زمن هارون الرشيد، ولما جاء زمن الواثق أرسل إليه أمبراطور الروم رسلا يسألونه أن يفادي بمن في يده من أسارى المسلمين، فقبل الواثق الطلب، وقامت عملية الفداء في يوم عاشوراء سنة ٢٣١ هـ على نهر اللامس قريبا من طرسوس وكان عدد من فوذي به من المسلمين ٤٦٠٠

« ومن غريب ما حصل في هذا الفداء أن احمد بن ابي داود القاضي أرسل مندوبا من قبله يمتحن الاسرى في ميولهم الدينية حتى لا يفدى منهم من لا يقول بخلق القرآن، وهذا غلو قد وصل الى نهايته . »

وفاة الواثق وأخلاقه :

مات الواثق بعد حكم قصير دام خمس سنين وتسعة أشهر واياما في شهر ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ . وبموته انقضى عصر الدولة العباسية الذهبي ودخلت في دور اضمحلالها وانحلالها، ولقد كان الواثق آخر من قاد الجيوش العسكرية في ميادين القتال من الخلفاء العباسيين . وكان « واسع المعروف متعظفا على أهل بيته ، متفقدا لرعيته مكرما لاهله مبغضا للتقليد وأهله . » ولكنه كان متعصبا لمذهبه، فأخذت مسألة خلق القرآن في عهده شكلا حادا مما أدى الى الاضطهادات الدينية التي مر ذكرها

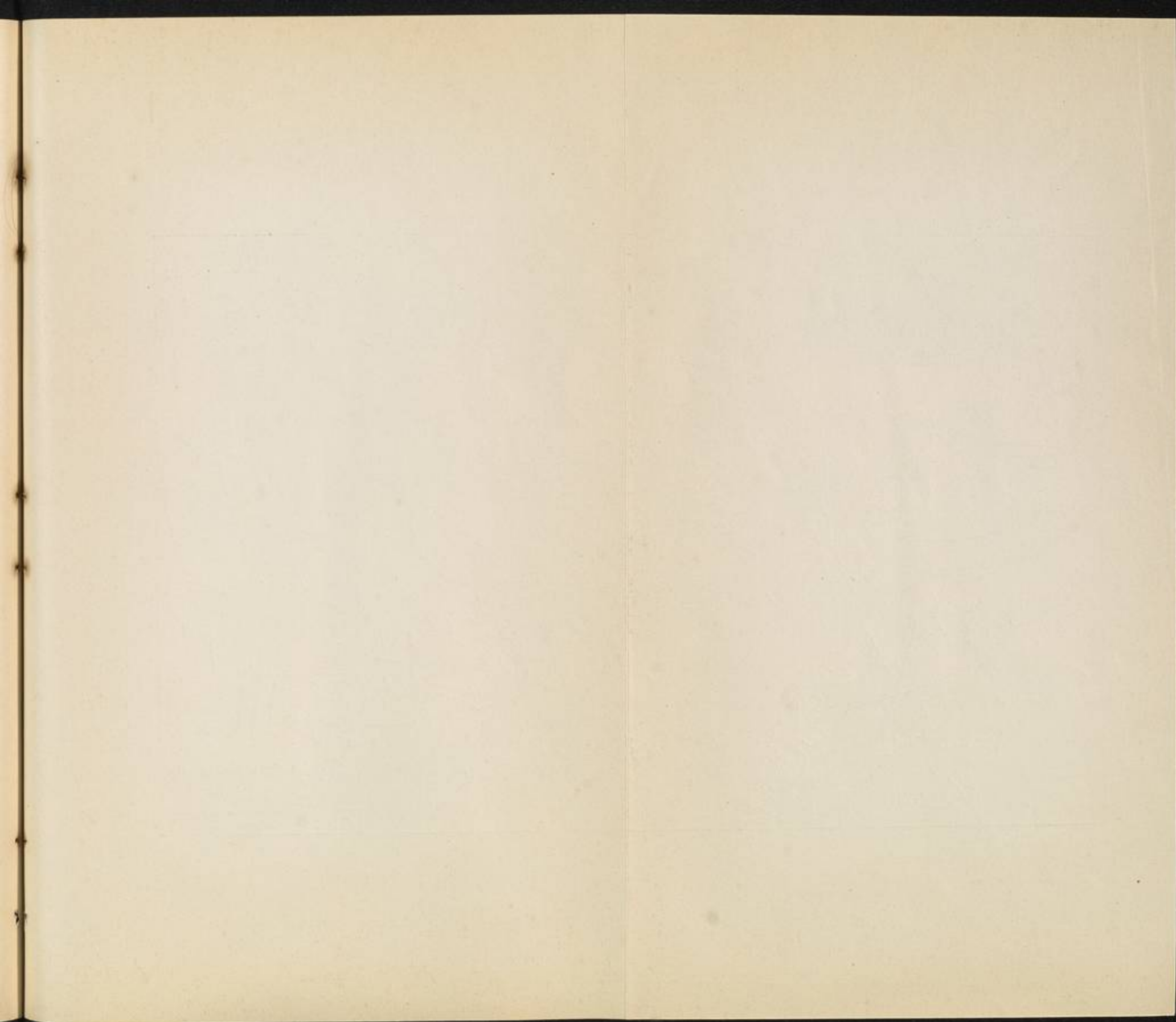
ولم يستوزر غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه، وكانت له الكلمة العليا في ادارة الشؤون، واشتهر من قواده بغا واشناس، وفي عصره ثبت قدم الاتراك واصبحوا أصحاب نفوذ ورأى في أمور الدولة

الباب السابع

عصر نفوذ الأتراك

(٢٣٢ - ٣٣٤) هـ (٨٤٧ - ٩٤٦) م

امتاز هذا العصر بأزدياد نفوذ الأتراك وقوادهم ورؤساء جندهم ،
واصبحوا اصحاب الحول والطول في الدولة وشؤونها : يولون من الخلفاء
من شاءوا ويعزلون من شاءوا . ويسيطرون على الادارة الحكومية في
الداخل والخارج ، ويدبرون الشؤون العسكرية ويقومون بتدبير المسائل
المالية يساعدهم في ذلك رؤساء الكتاب ووزراء السوء ، وضعف الخلفاء
أمامهم ضعفا جعلهم يستأثرون بالنفوذ والسلطان في الدولة ، واستعان بهم
أعضاء البيت المالك للوصول إلى عرش الخلافة ، والتغلب على منافسيهم ،
فكانوا مصدرا للقلق ومنبعا للفتن والدسائس ، وبدل أن يكونوا عوننا
للدولة ، وسياجا يصد عنها غارات المغيرين انقلبوا اعداء لها وجروها الى
الاضمحلال والانحلال ، فكان مثلهم فيها كمثل الانكشارية في الدولة
العثمانية ، إذ كانوا سببا في قيامها ونهضتها وسببا في اضمحلالها وسقوطها ،
ولذلك أطلق المؤرخون على هذا العصر اسم العصر التركي تمييزا له عن
العصر الفارسي الذي سبقه والذي كان في أثنائه نفوذ الفرس كبيرا . وفي
أثناء ذلك العصر تولى عرش الخلافة اثنا عشر خليفة ، كان أولهم جعفر
المتوكل على الله بن المعتصم ، وآخرهم ابراهيم المتقي لله بن المعتمد ، وقد
قتل منهم اثنان وخلع خمسة وتوفي الباقيون . وفي أيام خلافتهم عمّت البلاد



الفن والاضطرابات، وتناثرت عنها بعض اجزائها وظهرت فيها دويلات
كان لها شأن كبير في التاريخ واليك البيان

١ — المتوكل

(٢٣٢ — ٢٤٧) هـ (٨٤٧ — ٨٦١) م

ولد جعفر المتوكل على الله في شوال سنة ٢٠٦ هـ بقم الصلح، وتولى
عرش الدولة في اليوم الذي توفي فيه أخوه الواثق سنة ٢٣٢ هـ، ولقد كان
الواثق غير راض عنه في أيام خلافته، وابعده عنه، ووظف بمراقبته رجلين
يحصيان عليه حركاته وسكناته، ويخبران الخليفة عنها في كل وقت، ولما
توفي الواثق فجأة ولم يكن قد عهد بأمر الخلافة إلى أحد، اجتمع رجال
الدولة الكبار ومعهم قواد الاتراك العظام، وتباحثوا في أمر الخليفة،
فأقترح فريق منهم أن يولى العرش ابن الواثق، ولكن قواد الترك لم
يوافقوا عليه لصغر سنه فأقترح ابن إبي دواد اسم جعفر بن المعتصم ليكون
الخليفة بعد الواثق، فاتفق رأيهم عليه واحضروه وسلموا عليه بأمرة
المؤمنين، وبإيعه الناس، ولقد كان قاسى القلب ظالما حتى أطلق عليه
المؤرخون اسم زيرون المسلمين، وفي عهده ابتدأ اضمحلال الدولة العباسية، إذ
ترك أمور الدولة لقواده وكتابه، وانغمس في اللذات والشراب، وانتشرت
الرشوة بين الولاة والموظفين، وساءت الأحوال، وفي عهده أبطلت
المناسبات الدينية، وأعاد إلى الفقهاء وأهل السنة نفوذهم ومقامهم، وطردهم
أهل الاعتزال من الوظائف العامة، وأوقف القاء المحاضرات العلوية
والفلسفية، واضطهد الطوائف الأخرى، وابعدهم عن وظائف الدولة،
وطاردهم مطاردة عنيفة، والزهمهم في ٢٣٥ هـ أن يلبسوا لباسا خاصا بهم
ومن كان عندهم من العبيد، وحرّم عليهم ركوب الخيل، وأن يضعوا على

وجهاً منازلهم صورة لأبليس، والآن ترتفع قبورهم عن سطح الأرض،
والآن يرسلوا أولادهم إلى مدارس المسلمين، وأمر بهدم الكنائس التي
كانت قد بنيت حديثاً في أنحاء الدولة، وحرّم على المسلمين أن يعلموا أولاد
النصارى أو اليهود، وكتب بذلك منشوراً عاماً أرسله إلى عماله في الآفاق
وكان ذلك بين سنتي ٢٣٥ و ٢٣٩ هـ

أحوال الدولة الداخلية في عهده:

أولاً: وزراء الدولة

بقي محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الأول في الدولة في بدء حكم
المتوكل، ولكنه كان يحقد عليه لما فعله معه في حياة أخيه، وترقب الفرصة
للخلاص منه، وبعد شهرين من اعتلائه العرش أمر فقبض عليه في شهر
صفر سنة ٢٣٣ هـ، وصادر جميع ماله من عقار ومنقول، وصادر ضياع
أهل بيته حيث كانت، وعذبه عذاباً ألماً، وظل هذا الوزير البائس يعذب
حتى مات موتة شنيعة، وبعد ذلك بخمسة أشهر أمر الخليفة بالقبض على
عمر بن فرج وأخيه محمد بن فرج، وصادر أملاكهما وامتعتهما وضياعهما
وحصل منهما على مبالغ طائلة من الأموال ثم استوزر أحمد بن خالد،
ولكنه غضب عليه بعد قليل وأمر بمحاسنته وأخذ منه مبلغاً كبيراً من
المال، وحبس بسببه جماعة من الكتاب، وأغرّموا من المال قدراً كبيراً،
واتخذ بعده محمد بن الفضل الجرجاني وزيراً له فظل في وزارته إلى
سنة ٢٣٦ هـ، وفيها صرفه عن العمل لكبر سنه واختار بعده عبيد الله
ابن يحيى بن خاقان، وقد بقي وزيراً له إلى أن مات، وكان مشهوراً بالكرم
وحسن الخلق وكان الجند يحبونه لذلك. أما أحمد بن دواد فقد ظل يشغل

وظيفة قاضى القضاة حتى سنة ٢٣٣ التى مرض فيها، وعجز عن العمل فأناب ابنه عنه فى القضاء وولاية المظالم، ولكن المتوكل غضب عليهما وعزلهما، وولى مكانهما يحيى بن اكثم . وفى سنة ٢٣٧ هـ أمر الخليفة بحبسهما ومصادرة أملاكهما وأملاك باقى الأسرة، وقدمات احمد فى السجن هو وابنه فى سنة ٢٣٩ هـ ويقال أن أحد أبناء القاضى الكبير اشترى حريته من الخليفة بدفع ستة عشر الف الف درهم

ثانيا: سقوط ايتاخ القائد التركى :

كان ايتاخ من قواد الدولة العظام، وقد أبلى بلاء حسنا فى الحرب ضد الروم فى حصار عمورية فى زمن المعتصم، وكان له فضل كبير فى مطاردة بابك الخرمى، والقضاء عليه وكان له سلطان واسع فى الدولة ونفوذ كبير فحقد عليه المتوكل، وأراد الخلاص منه، ويقال إنه غضب عليه بسبب تطاوله عليه فى مجلس شراب، ورأى أن الفتك به فى سامرا وهو بين جنده وقومه قد يؤدى الى نتائج لا تحمد عقباهما، فدس اليه من أشار عليه بالاستئذان فى الحج، ففعل وأذن له الخليفة، وولاه امارة كل بلد يدخله وخلع عليه خلع الشرف، وركب معه جميع القواد حتى اطمأن القائد التركى الى جانب المتوكل وأدى فريضة الحج ورجع الى العراق، فأمر الخليفة اسحاق ابن ابراهيم المصعبى رئيس الشرطة ببغداد أن يلقى القائد ويخبره بأن أمير المؤمنين أراد أن يدخل بغداد، ويستقبل بنى هاشم ووجوه القوم ويأمر لهم بالجوائز فدخل ايتاخ دار خزيمة بن خازم لينفذ أمر الخليفة وحجز رئيس الشرطة عنه غلبانه وقبض عليه وحمله الى داره، وهناك قيده وأثقل بالحديد فى عنقه ورجليه ورماه فى السجن . فظل به بضعة اشهر ومنع عنه

الماء قنات عطشا في سنة ٢٣٥ هـ وأمر الخليفة بالقبض على أبنائه وكتابه
وسجنهم وظلوا بالسجون حتى مات المتوكل

ثالثا: العلويون :

كان المتوكل يكره على بن أبي طالب هو وآل بيته كراهية شديدة ،
وكان جلساؤه وندماؤه يحقرون من شأن على وذريته . ويحسنون له الواقعة
في أسلافهم ، ويشيرون عليه بأبعاد العلويين والاعراض عنهم والاساءة اليهم
وازدادت تلك الكراهية حتى أنه أمر في سنة ٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين
ابن علي بكر بلاء ، وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر
ويستقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من زيارة ذلك الموضع ، وهدد من
خالف أمر الخليفة بالسجن ، فخاف الناس بطش الخليفة وعماله ، وامتنعوا
عن التبرك بالقبر وموضعه ، وقد غضب الناس لذلك غضبا شديدا

ويقول المؤرخون إن تلك المعاملة القاسية كانت سببا من الاسباب
التي دفعت ابنه المنتصر على قتله فيما بعد . وكان أبو الحسن على الهادي
ابن محمد الجواد بن الرضا اماما للأمامية في عهده ، وكان يقيم بالمدينة فوشى
به الواشون فأمر الخليفة باستقدمه الى سامرا وأمره بالإقامة فيها ، فأقام
ولكن السعيات لم تنقطع وأمر المتوكل بمهاجمة منزله ليلا . فلما هوجم المنزل
وجد الإمام منفردا يصلي ويدعو الله ، ووجد المنزل خاليا من كل مابلغ
الخليفة ، وحمل الامام الى المتوكل في جوف الليل ، وادخل عليه وهو
يشرب فأجلسه المتوكل الى جنبه وعرض اليه الكأس فاستغنى فأعفاه ،
ثم طلب اليه أن ينشده شعرا فأنشده

باتوا على قلال الاجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلمهم فأودعوا حفرا يابئسما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا أين الأُسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تقرب الاستار والكلل
إلى أن قال

وطالما كنزوا الأموال وادخروا تخلفوها على الأعداء وارتحلوا
اضحت منازلهم قفرا معطلة وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا
فبكى الخليفة حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له
بأربعة آلاف دينار يقضى بها دينه وورده إلى منزله مكرما

رابعا : الاضطرابات والفتن في الدولة :

اضطربت أحوال الدولة في عهد المتوكل ، وانتشرت الفتن في أنحاءها ،
فقامت الثورات في سجستان وفي أذربيجان ولم تخمد تلك الثورات إلا بعد
أن كلفت الدولة رجالا وأموالا طائلة ، وكان رأس الفتنة في أذربيجان
محمد بن البعيث بن حلبس ، ثم اختل النظام وفسد الأمن بالديار المصرية ،
وأغار الروم على الوجه البحري ودخلوا الاسكندرية واحتلوها زمنا
كبيرا ، وساءت الأحوال في الوجه القبلي ، واعتدى المعتدون على قراه
ومدنه ، وأرسل المتوكل الجيوش والقواد لاختاد تلك الفتن ، فاستطاعت
اخمادها بعد عناء في سنة ٢٤١ هـ وحمل الجيش المنتصر زعيم الثوار في القطر
المصري ويسمى على بابا إلى دار الخلافة . وهناك استقبال استقبالا عظيما
وعفائه الخليفة وعهد اليه بالمحافظة على طريق الحج بين مصر ومكة
قامت الثورة في أرمينية بين سنتي ٢٣٧ و ٢٣٨ هـ بسبب هياج
البطارقة فيها وخروجهم على والي الخليفة وهو يوسف بن محمد فقد خرجوا
عليه في ٢٣٧ هـ وقاتلوه وقتلوه وقتلوا معه عددا كبيرا من أصحابه ، ولما بلغ

الخبر المتوكل أرسل اليهم بغا الشراي وهو من قواد الترك مطالباً بالثار فأحمد الثورة وقتل من الاهلين نحو ثلاثين الفا ، وسبى منهم خلقا كثيرا ثم سار محققا بلاد أرمينية لارهاب عصاتها ، وزحف على تفليس لاختضاع اسحاق ابن اسماعيل مولى الامويين ، وكان قد ثار على الخلافة العباسية ، وأقام نفسه أميراً مستقلاً في تلك الجهة ، وحاصر بغا المدينة في سنة ٢٣٨ ، واحرقها واحرق من سكانها ما يقرب من الخمسين الفا وقبض على الثائر وضرب عنقه ، ثم زحف بعد ذلك على شواطئ بحر قزوين والبحر الاسود لاختضاع باقى امراء ارمينية الذين ثاروا على الدولة ، ورجع الى سامرا يحمل معه كثيرا من بطارقة اذربيجان واران وبعضا من أمراء أرمينية ، ويقال إن الخليفة أمر بضرب أعناقهم عند ما رفضوا اعتناق الاسلام .

ثارت البلاد في شمال سوريا بين سنتي ٢٤٠ و ٢٤١ وقامت الفتنة في حمص ، وطرده الثوار حاكمها فأمر الخليفة الجنود المرابطة في دمشق والرملة بالزحف لاختضاع الثوار وقمع الفتنة ، ونجحت الجيوش في اخماد الفتن وعاقبت المسيحيين الذين اشتركوا في الثورة عقابا صارما ، وهدمت كنائسهم وأخرجتهم من المدينة

نقل عاصمة الخلافة الى دمشق :

أراد المتوكل أن يتقرب الى السوريين فعزم على ترك سامرا بعد أن مكث بها اثني عشر عاما ، وخرج الى عاصمة الأمويين ليتخذها مقرا لحكومته حتى يتخلص من شر الأتراك وقوادهم . وفي شهر صفر سنة ٢٤٤ هـ وصل إلى دمشق وابتدأ يشيد الاماكن والدور للمصالح الحكومية المختلفة ، ولكنه وجد أن حالة الطقس في دمشق لا تناسب صحته ، فعدل عن رأيه ورجع الى سامرا ، وفي ضواحيها ابنتى ضاحية جديدة سماها الجعفرية ،

وبنى له قصرا فيها سماه «اللؤلؤة»، وانفق على تلك العمارة مبالغ طائلة واحاط قصره بالبساتين والحدائق، وأجرى اليه الجداول وملاه بكل أنواع الترف والنعيم

قيام الدولة اليعفرية :

اضطرب أمر اليمن في خلافة المأمون اضطرابا شديدا فأرسل اليها محمد بن ابراهيم بن عبيد الله بن زياد بن ابيه فأخضع الثورة فيها وملكها ، وفي سنة ٢٠٤ هـ بنى مدينة زبيد ، وولى مولاه جعفر أعلى الجبال فعرفت بمخلاف جعفر ، وملك اليمن بعده ابنه ابراهيم بن محمد ، ثم زياد بن ابراهيم وتولى غيره أمر تلك البلاد التي خضعت لآل زياد حتى أوائل القرن الخامس الهجرى ، وبعد ذلك انتقل ملك البلاد الى ملوك الأسرة الزيدية ، وبقي الأمر لهم حتى سنة ٥٣١ هـ ، واستولى على البلاد بنو مهدى وحكموها حتى انتزعها منهم توران شاه أحد ملوك الدولة الأيوبية بمصر فى سنة ٥٦٩ هـ ، وقد قام فى تلك البلاد فى أواخر حكم المتوكل حكم جديد وهو حكم الدولة اليعفرية التى قامت بصنعاء ومؤسسها هو يعفر بن عبد الرحيم بن ابراهيم الحوالى ، ولقد كان يعفر فى بدء أمره نائبا لآل زياد فى صنعاء ، وكان يهابهم ويدفع لهم الخراج ولكنه استقل بالأمر فى سنة ٢٤٧ هـ وخلفه أعقابه فى صنعاء يملكونها ويستقلون بأمرها وظلوا كذلك حتى سنة ٣٨٧ هـ .

أحوال الدولة الخارجية فى عهد المتوكل :

كانت الحرب بين المسلمين والروم متصلة فى تلك العصور ، وكانت الاغارات على الحدود من الجانبين لاتقطع ، وكان كل فريق ينتهز الفرصة

السائحة حتى يعتدى على الآخر ، فقد أغار الروم في سنة ٢٣٨ هـ على مصر بطريق البحر ، ودخلوا دمياط وأحرقوا دورها ومساجدها وسبوا كثيرا من نساءها ، ونهبوا وسلبوا ثم رجعوا الى بلادهم سالمين ، وقام المسلمون وثأروا لنفسهم ، وأغاروا على أملاك الروم في آسيا الصغرى ، وفي سنة ٢٤١ هـ حصل فداء بين الطرفين على نهر اللامس ، وأطلق سراح الأسرى من الجانبين ، ولكن الروم اعتدوا على أملاك الدولة في السنة التالية ، ونهبوا عدة قرى وأسروا عددا عظيما من الأهليين ، ووجه اليهم المتوكل قائده بغا في سنة ٢٤٤ هـ ، فخرج من دمشق في شهر ربيع الآخر وغزا الصائفة وافتتح صملة . ورجع الروم إلى غزوه وأغاروا على سميساط . وقتلوا ونهبوا ، وخرج اليهم على بن يحيى الأرمني أمير الثغور الشامية وطاردهم ، وفي سنة ٢٤٦ هـ كان الفداء السادس بين المسلمين والروم على يد ذلك القائد ، ففدى بالفين وثلثمائة وسبعة وستين نفسا

تقسيم الدولة بين أولياء العهد :

عقد المتوكل ولاية عهد الدولة لاولاده الثلاثة تشبها بجده الرشيد وقسم بلاد الدولة وأقاليمها بينهم في أواخر سنة ٢٣٥ هـ ، فولى المنتصر اكبر اولاده أفريقية والمغرب كله من عريش مصر الى بلاد المغرب ، وولاه العواصم والثغور السورية وديار مضر وربيعة بالموصل ، وكور دجلة والحرمين واليمن ، وحضر موت واليمامة والبحرين وغيرها من الاقاليم في غرب الدولة . وولى ابنه المعتز شرق الدولة فولاه كور خراسان وما يضاف اليها ، وطبرستان والرى وأرمينية ، واذريجان وكور فارس وضم اليه في سنة ٢٤٠ هـ خزائن بيوت الأموال في جميع النواحي ودور

الضرب ، وأمر بضرب اسمه على الدراهم . وولى ابنه الثالث المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الاردن وفلسطين ، « وكتب بينهم كتابا يشبه الكتاب الذى كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون والقاسم . وقد جعل المتوكل لأبيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال فى أعمالهما اذا آلت الخلافة للمنتصر ، بحيث لا يجوز أن يشرك فى شىء من أعمال أحدهما أحدا ، ولا يوجه عليه أمينا ولا كاتبا ولا بريدا ، ولا يضرب على يده فى قليل ولا كثير ، وكذلك جعل على المعتز للمؤيد اذا آلت الخلافة للمعتز ، وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ حفظت أحداها بخرائن أمير المؤمنين وأخذ كل من أولياء العهد نسخة . »

ولقد كان هذا التقسيم من أقوى الاسباب التى أثارت الفتن والقلقل فى الدولة ، التى جعلت المنافسة بين الاخوة على أشد ما يكون ، وشجعت الدسائس بينهم ، واتخذ كل منهم البطانة والأعوان حتى يتغلب على الآخرين

قتل المتوكل وأخلاقه :

تغير قلب المتوكل على بعض قواده من الأتراك وعمل على تدبير المكاييد حتى يتخلص منهم الواحد بعد الآخر ، فشعر الأتراك بذلك ، وأخذوا حذرهم والتفوا حول المنتصر ولى العهد ، وحرصوه على الفتك بأبيه ، لأنه كان يقدم أخاه المعتز عليه فى أمور الدولة ، وفى الصلاة بالناس ، وكان وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان ، ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر ، فأخذوا يزينان للخليفة تقديم المعتز على أخيه ، فانتهز وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك فرصة غضب المنتصر وعملوا على الخلاص من المتوكل واقامة صديقهم على عرش الخلافة ، وفى ليلة الأربعاء

خلون من شوال سنة ٢٤٧ هـ دخل جند الترك على الخليفة وهو في مجلس الشراب، وقتلوه وقتلوا معه الفتح بن خاقان. وكانت هذه الحادثة « أول ثمرة لغرس المعتصم فانه ملك الخلافة قوما لا حلوم لهم، وليس لهم من الأخلق ما يمنعهم مما فعلوا، ولا من العصية ما يجعل جانبهم مأمونا، واجل من ذلك أن يكون ولي العهد شريكا في دم أبيه . »

اختلف المؤرخون في تقدير صفات المتوكل واخلاقه، فذمه فريق الشيعة والمعتزلة والكتاب الذين ينتمون اليهم، ومدحه فريق الفقهاء واهل الحديث وجماعة النفعيين والشعراء مثل أبي عبادة البحتري الشاعر المشهور وإبراهيم بن العباس الصولي وغيرهما، وقال المسعودي : « وكانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمّد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء . »

٢ — محمد المنتصر

(٢٤٧—٢٤٨ هـ) (٨٦١—٨٦٢ م)

ولد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم سنة ٢٢٢ هـ. وتولى ولاية العهد سنة ٢٣٥ وهو في الثالثة عشرة من عمره، وبويع بالخلافة عقب قتل أبيه في شهر شوال سنة ٢٤٧ هـ. ولقد كان للآثارك وقوادهم اليد الطولى في اعتلائه العرش، ولذلك كبر شأنهم في الدولة، وازداد نفوذهم، واخذوا يملون ارادتهم على الخلفاء فلا يستطيع هؤلاء أن يعصوا لهم أمرا، أو ينقضوا لهم رأيا : ومن ذلك اشاروا على المنتصر أن يخلع المعتز والمؤيد عن ولاية العهد وعمل بمشورتهم، وترك لهم الحرية في تنفيذ ما أمر به، فأحضر كل منهما وكتب كتابا يعترف فيه بعجزه عن تدبير شؤون الدولة، وبضعفه عن

القيام بخلافة المسلمين ، ويحل الناس من البيعة التي كانت في اعناقهم له . ثم توجه الاثنان إلى المنتصر في مجلسه واخبروه بأمرهما ، فقال لهما والآن اترك وقوف : « أترياني خلعتكما طمعا في أن أعيش حتى يكبر ولدى وابيع له ؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ، واذا لم يكن في ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبي أحب الي من أن يليها بنو عمي ، ولكن هؤلاء (وأوما إلى سائر الموالي ممن هو قائم وهو قاعد) الحوا على في خلعتكما ، فنخفت إن لم أفعل أن يضربكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما ، فما ترياني صانعا ؟ أقتله ؟ فوالله ما تقى دماؤهم كلهم بدم بعضكم ، فكانت اجابتهم الى ما سألوا اسهل على » وهذا تصريح من جانب الخليفة خطير الشأن يدل دلالة واضحة على ما وصلت إليه الخلافة من ضعف

يقول الخضرى بك : « فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ماعقده المتوكل واكده بالايان والمواثيق والعهود ؟ » كانت مدة المنتصر قصيرة لأنه مات في شهر ربيع سنة ٤٨٤٢ بعد أن شغل كرسى الخلافة نحو ستة أشهر . ويقال إنه ندم ندما شديدا على اشتراكه في قتل أبيه ، وأنه كان لا يهنا لا في يقظة ولا في منام حتى اعتلت صحته وانتابته الأمراض ، وتوفي متأثرا بسقامه . ووصفه سيد أمير على بأنه كان واسع الاحتمال ، صبورا ، كثير المعروف ، يميل الى الخير والسخاء ، كريم الأخلاق ، حسن المعاشرة ، يحب الرعية ، ويعمل على اسعادها . ولقد أزال عن العلويين ما كان قد اصابهم في زمن أبيه ، وأعاد بناء ضريح الحسين ، رضى الله عنه ، وأباح للناس زيارته وزيارة غيره من قبور آل أبي طالب ، وأرجع للطالبيين ما كان قد صادره أبوه من أملاكهم وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم . « وقد أظهر الانصاف في الرعية فمالت اليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له »

ويقول موير «إنه أول من كان قبره ظاهراً من خلفاء العباسيين ، فقد شيدته له امه وكانت من سبايا الروم اسمها حبشية لأن الخلفاء الذين سبقوه رغبوا في أن يدفنوا في قبور لا يعرفها الناس خشية نبشها»

٣ — أبو العباس أحمد المستعين بالله

(٢٤٨ — ٢٥٢) هـ (٨٦٢ — ٨٦٦ م)

اجتمع قواد الأتراك ورؤساء الجند منهم بعد موت المنتصر ، وعقدوا مجلساً ضمهم وباقي الموالى من المغاربة والاشروسنية وتذاكروا فيما بينهم ، من يكون خليفة للمسلمين ؟ وبعد مناقشة اجتمع رأيهم على ألا يولوا أحداً من أولاد المتوكل لثلاث أسباب : وانتخبوا للخلافة حفيداً من أحفاد المعتصم : وهو أحمد بن محمد بن المعتصم . فأعلى العرش ، وتلقب بالمستعين بالله ، وبايعه الناس بالخلافة في ٥ ربيع الآخر سنة ٥٢٤٨ هـ . وكان في الثانية والعشرين من عمره ، ولم يكن له من الخلافة إلا اسمها ولقبها ، وكانت السلطة الحقيقية في أيدي الأتراك : يفعلون ما يشاءون في أمور السلطنة ، وكان الخليفة لا حول له ولا قوة حتى مثله بعض الشعراء بقوله

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالاً له كما تقول البيغا

وقد استوزر المستعين «اتامش» أحد قواد الأتراك : فأستأثر بالسلطان ، وتصرف في مالية الدولة تصرفاً أثار غضب باقي رؤساء الترك ، فاجتمعوا عليه بقيادة وصيف وبغا ، وهجموا عليه . وكان في الجوسق مع المستعين ، وقتلوه في سنة ٥٢٤٩ هـ وقتلوا معه شجاع (كاتبه) ونهبوا داره ، وأخذوا ما كان بها من الأموال والمتاع والفرش ، واستوزر المستعين بعده أباصالح

عبد الله بن محمد، وكان أبوه وزيرا للأُمون، ولكنه ترك منصبه وفر إلى بغداد بعد ثلاثة أشهر من توليته، لأن بغا الصغير غضب عليه وأراد الفتك به. ولم يستوزر الخليفة بعده غيره، وترك للاتراك الجبل على الغارب فقتلوا، وحسد بعضهم البعض، وكثرت الدسائس بينهم وكان وصيف وبغا صاحبي الخطوة عند المستعين، فحقد عليهما باغر التركي — الذي تولى قتل المتوكل — وعمل على قتل المستعين وقتلها. فعرف الخليفة الخبر، واتفق مع قائديه على قتل باغر، وقد كان، فغضب أتباعه، وهاجوا هياجا شديدا، فخاف المستعين سوء العاقبة. وترك سامرا. إلى بغداد ووصلها في شهر المحرم سنة ٢٥١ هـ، ونزل بدار محمد بن عبد الله بن طاهر وكان معه وصيف وبغا فنهض جند الاتراك في سامرا وعلى رأسهم «بايكباك» وتوجهوا إلى بغداد، وتوسلوا إلى الخليفة ليرجع إلى مقر ملكه الأول، فأبى. وغضب الاتراك ورجعوا إلى سامرا، واتفقوا على إقامة خليفة غيره، وأخرجوا المعتز والمؤيد من سجنهما، وبايعوا المعتز بالخلافة والمؤيد بولاية العهد

الخليفةان :

كان المستعين خليفة في بغداد، يناصره محمد بن عبد الله بن طاهر. وكان المعتز خليفة في سامرا، يعاضده الاتراك. وأخذ كل من الخليفين يصدر الأوامر إلى الناس والولاية في مختلف الأقطار والأقاليم باتباعه والخروج على غيره. وأخيرا قامت الحرب بينهما، وأرسل المعتز الجيوش إلى بغداد تحت إمرة أخيه أبي أحمد بن المتوكل. وظلت الحرب قائمة طول سنة ٢٥١ هـ. وكانت بغداد في أثناءها مسرحا للفتن والقلاقل، وفي نهاية

تلك السنة انحرَفَ ابن طاهر عن المستعين ، وفلوض المعز في أمر الصلح على شريطة أن يتنازل المستعين عن العرش ، وقبل المعز ما اشترطه المستعين لضمانته حياته وراحته ، وبايع المستعين المعز في بغداد في شهر المحرم سنة ٢٥٢ هـ ، وخرج من بغداد الى مدينة واسط ، وفيها قتل قبل أن تنتهي السنة ، واختلف المؤرخون في كيفية القتل . ويقول الطبرى : « وأتى سعيد بن صالح المعز برأسه وهو يلعب بالشطرنج ، فقبل هذا رأس المخلوع ، فقال ضعوه هناك ، ثم فرغ من لعبه ، ودعا به فنظر اليه ، ثم أمر بدفنه ، وأمر لسعيد بخمسين الف درهم ، وولى معونة البصرة . »

الأحوال الداخلية الأخرى في عهد المستعين :

ساءت أحوال الدولة الداخلية في عصر المستعين ، واضطربت الأحوال اضطراباً شديداً ، وثار في وجهه التأترون في كل جهة ، وابتدأت أجزاء الدولة تتناثر عنها ، وتكون دويلات مستقلة : فثار أحد العلويين بالكوفة ، وثار علوى آخر في جهة طبرستان ، وقامت الثورة في سجستان وثار ثورة في بلاد العرب ، وكانت الأحوال مضطربة في الموصل ، وفلسطين ، وحمص ، واصبهان ، وفي غيرها من البلدان والاقليم . ونقتصر على ذكر الثورات التي قام بها العلويون لخطورة شأنها

الدولة الزيدية (٢٥٠ — ٥٣٥٥) :

اشتهر من الزيدية في عهد المستعين إثنان : أحدهما يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن على بن الحسين — وكان من الحاقديين على العباسيين لأنهم لم يقضوا له حوائجه ويصلحوا من شأنه — فخرج بالكوفة ثائراً

والتف حوله خلق كثير من العرب، واستولى على الكوفة. ولما استفحل أمره وجه إليه محمد بن عبد الله بن طاهر جيشا بقيادة الحسين بن ابراهيم ابن مصعب - وكان قائدا قديرا عالما بفنون الحرب - فخدع يحيى وقتله وقتل كثيرا من اتباعه وقتله أيضا وكان ذلك في شهر رجب سنة ٥٢٥ هـ، ثم أرسل رأسه الى ابن طاهر فحملها الى الخليفة بسامرا، فأمر بنصبها على أحد أبواب المدينة، فتذمر الناس واحتجوا، فردها الى بغداد لتنصب بها. فثار البغداديون أيضا معلنين استيائهم لتلك الوحشية التي ارتكبت في أحد احفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الرأس وحفظ في صندوق في بيت السلاح في دار ابن طاهر

أما العلوى الثانى فكان الحسين بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن ابن زيد بن الحسن بن علي، فإنه ثار على الدولة العباسية في شهر رمضان من تلك السنة عينها في جهة طبرستان. وقال الطبرى عن سبب ثورته ما يأتى: إن المستعين أقطع محمد بن طاهر قطائع من صوافى السلطان بطبرستان، وذلك بعد أن انتصر على يحيى بن عمر ورجاله، وكان من جملة تلك القطائع قطعة قرب ثغرى طبرستان من نواحى الديلم وهما كلار، وسالوس. وكان لأهل تلك الناحية أرض فيها مراعى لمواشيهم تقع بجذاء تلك القطيعة، ووجه ابن طاهر جابر بن هارون لحيازة ما أقطع من تلك الأراضى، وأراد جابر أن يستولى على القطيعة وعلى ما جاورها من أرض، فغضب أهل تلك الناحية، وهبوا فى وجهه، وانضم اليهم الديلم بسبب غضبهم من عامل طبرستان، وهو سليمان عبد الله بن طاهر - وسوء تصرف رجاله فى تلك الجهة واتفق الجميع على محاربة من أساء اليهم ومن قصدهم بحرب، ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه، واختاروا الحسن بن زيد، «وكان مقبلا

بالرى ودعوه اليهم وبايعوه . وزحف الحسن ومن معه على مدينة (آمل)
حاضرة طبرستان واستولى عليها ، فكبر شأنه ، ومال اليه كل طالب نهب
ومريد فتنة . وزحف من آمل الى سارية - حيث كان سليمان بن عبد الله -
وتغلب عليه وطرده ، فقم له الاستيلاء على بلاد طبرستان . ثم أرسل من
استولى على مدينة الرى بعد أن طردت عنها عمال ابن طاهر ، وبذلك نجح
الحسن بن زيد فى اقامة دولة زيدية بطبرستان ، واقتطع من ملك بنى العباس
وعمالهم آل طاهر طرفا عظيما تحميه جبال طبرستان والديلم ، واستمرت
هذه الدولة نحو قرن كامل »

استمرت الدولة الزيدية قائمة حتى سنة ٣٥٥ هـ ، ولكنها كانت
عرضة لاغارة المغيرين ، وهجمات الفاتحين : فقد استولى على املاكها آل
سامان وحكموها من سنة ٢٧٩ هـ الى سنة ٣٠١ هـ ، واستردها الحسن
الاطروش بن على ولكنه قتل فى بعض حروبه مع السامانية . فقام بعده
الحسن بن القاسم ونازعه اولاد الاطروش ، ولم يزل الخلاف قائما حتى
انتهى أمر الدولة فى سنة ٣٥٥ هـ كما تقدم

أحوال الدولة الخارجية فى عهد المستعين :

كانت الحرب متصلة بين المسلمين والروم فى تلك الايام - كما
سبق أن بينا - وكانت الكفة راجحة فى جانب المسلمين حتى زمن
المستعين ، فان الروم انتصروا فى آسيا الصغرى على قائدين من أمهر قواد
المسلمين : وهما عمر بن عبيد الله الأقطع ، وعلى بن يحيى الأرمي ،
وقتلوهما وقتلوا معهما ثلاثة آلاف من جند المسلمين فى سنة ٢٤٩ هـ
ولما وصلت أخبار تلك الهزيمة الشنيعة الى بغداد ثارت المدينة معلنة

الجهاد ، وفتحت أبواب السجون ، وأخرج العامة من فيها ، وأحرقوا الجسور ، وجمعوا جموعهم للزحف على أعداء الدين ، وأمدهم الأغنياء والموسرون في كل من بغداد وسامرا بالأموال والعدد . ولكن الخليفة وجنده الأتراك أهملوا الأمر واشتغلوا عن الجهاد بما كان يدور حولهم من الدسائس والمؤامرات ، فأخفقت الحملة ولم تنل الغاية التي قامت من أجلها

٤ — أبو عبد الله المعتز

(٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) (٨٦٦ — ٨٦٩ م)

ولد المعتز بن المتوكل في سنة ٢٣١ هـ وكان أبوه قد عينه وليا للعهد بعد أخيه المنتصر ، ولكن المستعين خلعه وسجنه . وظل مسجوناً حتى خلع المستعين وأخرج من السجن وبويع بالخلافة في رابع شهر المحرم سنة ٢٥٢ هـ وقد انحطت الخلافة في زمنه وصغر شأن الخليفة ، ولم يعد له من الأمر شيء حتى كان لا يستطيع تولية وزير أو عزل كاتب ، بل كان الأمر للأتراك وكبار قوادهم يولون من شاءوا ويعزلون من شاءوا . وكانت أحوال الجند والأتراك على شر ما يكون إذ كانوا فيما بينهم مختلفين ، وبسبب اختلافهم كثرت حوادث الاغتيال ، واشتغل الخليفة بأمر الدسائس من غير أن يلتفت الى تدبير أمور الملك وشؤون الخلافة

طلب الأتراك من المعتز في أول خلافته أن يعفو عن وصيف وبغا فعفا عنهما مكرها ، واستقدمهما من بغداد الى سامرا ، ورد اليهما ضياعهما ومتاعهما وأصبح لهما من النفوذ والسلطان ما كان لهما في زمن المستعين . وقد اشتهر من الأتراك في عصره القائد بايكباك . وقامت القلاقل والفتن في

كل من بغداد وسامرا بسبب النزاع الذي قام بين جند المغاربة وجند الأتراك وقتئذ. إذ طلب جند المغاربة ومن انضم إليهم أن يكون لهم من النفوذ والوظائف في الدولة ما كان لقواد الأتراك وجندهم، ونجح المغاربة في نيل ما طلبوا بعد أن تغلبوا على الأتراك، وانتزعوا من أيديهم بيت المال، ولكن الأتراك تمكنوا من استرداد سلطانهم وقتلوا محمد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة. وفي سنة ٢٥٣ هـ اجتمع الجند من المغاربة والأتراك والفرس وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر، فخرج إليهم وصيف وبغا وكلمهم وصيف بشيء من الشدة فوثب عليه بعضهم وضربوه بالسيف وقتلوه، وأقام المعتز ببغا مكانه في إدارة الشؤون، ولكنه ما لبث أن قرب منه بايكباك، وأمر بقتل ببغا فقتل ونصب رأسه في سامرا ثم في بغداد. فصارت الكلمة العليا بين جند الأتراك لصالح بن وصيف وبايكباك، واستولى الاثنان على الخليفة وأدارا شؤون الدولة

الشغب في بغداد:

كان محمد بن عبدالله بن طاهر واليا على بغداد وكان رجلا مهيب الجانب اشتهر بالحزم والعزم والكرم، ولكن الجند خرجوا عليه في رمضان سنة ٢٥٢ هـ وطلبوا منه أرزاقهم واستعدوا لمحاربتة، فوجه إليهم قواده والجند المواليين له ودارت رحى القتال بين الفريقين، وانتصر المشاغبيون في بدء الحرب، ولكن فسد نظامهم بعد ذلك، فتغلب عليهم ابن طاهر وقبض على زعماء المشاغبيين وقتلهم، فهدأت الأحوال، ورجع الأمن الى بغداد، وظل سائدا بها حتى مات ابن طاهر في شهر ذي القعدة سنة ٢٥٣ هـ واستخلف على إمارته في بغداد أخاه عبيد الله بن طاهر

قيام الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤-٢٩٢ هـ) (٨٦٨-٩٠٥ م)

كان بايكباك هو القائم بإدارة شؤون الدولة بعد سقوط بغا، وكان قد أضاف إليه الخليفة ولاية مصر وترك له الحرية في اختيار من ينوب عنه في ادارتها، فاختر بايكباك في سنة ٢٥٤ هـ أحمد بن طولون نائبا عنه على الفسطاط، وهو ابن طولون التركي الذي أرسله الى بغداد حاكم بخارى «أحمد الساماني» عام ٨١٥ م ٢٠٠ هـ ليكون في حاشية المأمون، وقد ترقى طولون بجده ونشاطه حتى شغل وظيفة رئيس الحرس، وكانت من الوظائف العالية في الدولة، وفي سبتمبر سنة ٨٣٥ م سنة ٢٢٠ هـ ولد له أحمد ابنه بسامرا، فرباه تربية حسنة اذ علمه القرآن والسنة والأدب. ولما شب كان ينتقل الى طرسوس في آسيا الصغرى من وقت الى آخر للتعلم في مدارسها فوق اشتغاله بوظيفة في قصر الخلافة، فزادت معارفه وتجاربه

وفي سنة ٨٦٨ م اختاره بايكباك لولاية الفسطاط عاصمة مصر إذ ذاك فجاء أحمد الى هذه الديار، وأخذ يعمل بجد وإخلاص حتى قوى نفوذه وخدمه الحظ بموت بايكباك في خلافة المهدي إذ تولى مكانه اماجور أحد قواد الأتراك وكان صهرا لابن طولون فجعله نائبا عنه على مصر كلها، وستكلم عن باقي سيرته وسيرة أفراد أسرته عند التكلم على تاريخ من جاء من خلفاء الدولة العباسية

خلع المعتز وموته:

كان المعتز ألعوبة في يد الأتراك وجندهم كما مر بنا، وكانت خزانة الدولة في عهده خاوية على عروشها، فلم يستطع دفع مرتبات الجند، فخرجوا عليه بقيادة صالح بن وصيف التركي، ودخل عليه صالح ذات يوم وقال له: «يا أمير المؤمنين ليس للأتراك عطاء، ولا في بيت المال مال، وقد ذهب

ابن اسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا». فأجابه أحمد بن اسرائيل بشيء من الشدة وكان وزيراً للمعتز، ولما بلغ الخبر مسامع أصحاب صالح، دخلوا على المعتز مصليتين سيوفهم، فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم، وأخذ صالح ابن وصيف أحمد بن اسرائيل والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم المعتز وأبا نوح عيسى بن ابراهيم فقيدهم، وظالمهم بالمال، فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم: «هب لي أحمد فانه كاتبى وقد ربانى، فلم يفعل ذلك صالح وبعثت اليه أم المعتز ترجوه فى ابن اسرائيل أيضا فلم يفد هذا ولا ذلك شيئاً» وطلب هؤلاء الاثراك المرتبات من الخليفة فلم يستطع إجابة ما طلبوا وأرسل إلى والدته يطلب مساعدتها، فأبت إعطائه شيئاً من مالها، فاتحدت كلمة الجند من أتراك وفراغنة ومغاربة على خلع المعتز. ودخل عليه صالح ابن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا والسلاح بأيديهم وجروا برجله إلى باب الحجر وتناولوه كما قيل ضرباً بالدبابيس، فخرج وقيصه مخرق فى مواضع، وآثار الدم على منكبيه، «فأقاموه فى الشمس فى الدار فى وقت شديد الحر، فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى أقيم فيه، ثم بعثوا الى قاضى القضاة فحضر، وأمر المعتز أن يمضى على كتاب خلع كتب له، فأمضى وشهد عليه الحاضرون، ويقال إنه بعد الخلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب حسوة من ماء البئر فنعه حتى مات»

٥ — محمد المهتدى بالله

(٢٥٥ — ٢٥٦) هـ (٨٦٩ — ٨٧٠) م

ولد محمد المهتدى بالله بن هارون الواثق بن المعتصم فى سنة ٢١٨ هـ وببيع له بالخلافة بعد خلع المعتز فى شهر رجب سنة ٢٥٥ هـ، ولقد كان

في بغداد حينما خلع المعتز، فأحضره الاتراك وعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع كلامه، فأبى بالمعتز وقال له: « أنت في حل من بيعتي »، فقبلها المهتدي واعتلى العرش، وقد اشتهر بالصلاح والتقوى وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وحرم الشراب وطرد المغنين والمغنيات واقتصد في أموال الدولة، وأعاد للخلافة شيئاً من رونقها، وكان عادلاً متشبهاً بعمر بن عبد العزيز، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويؤدى الصلاة إماماً بالناس، وقد اشتهر من وزرائه سليمان بن وهب بن سعيد، « وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابة، وأحد عقلاء العالم وذوى الرأي منهم »، وقد مدحه الشعراء لفظته وحزمه ويقظته في تصريف شئون الدولة، فمدحه كل من أبى تمام والبحترى بأبيات رقيقة تم عن اعتبارهما بفضله

علاقة المهتدي بالأتراك وقوادهم:

شمر صالح بن وصيف عن ساعد الجند عقب خلع المعتز ومبايعة المهتدي، وأخذ يطارد حاشية الملك المخلوع ويصادر أملاكهم ويعذبهم عذاباً ألماً حتى يخرجوا ما عندهم من الأموال، وطارده فيمن طارده السلطنة قبيحة والددة المعتز، وأخذ ما عندهما من الأموال والأحجار الكريمة من الياقوت واللؤلؤ، ثم نفاها إلى مكة، ولما بلغ موسى بن بغا أخبار تلك المصادرة أسرع في العودة إلى سامرا، وكان يحارب أحد العلويين في بلاد الديلم في عهد المعتز، وكتب إليه الخليفة أن يبقى هو وجنده بموضعه، فلم يطع الأمر وحضر إلى سامرا، ودخل على الخليفة وهو جالس للمظالم وأقامه من مجلسه وحمله إلى معسكره، وأخذ عليه العهود والمواثيق الإيمانية، صالحاً ففعل فجدد له موسى وجنده البيعة في شهر المحرم سنة ٢٥٦ هـ

اختفى صالح عند اقتراب موسى ، وأرسل إلى الخليفة كتابا يطلب فيه أن يحاكمه على ما اقترفه من آثام، فقبل المهتدي الطلب وأرسل له أن يظهر فاتهم اتباع موسى الخليفة باخفائه ، وأرادوا خلعه فنارت العامة في وجههم ووزعت المنشورات في بغداد تدعو الناس إلى نصرته خليفتهم ، فخاف الجند عواقب ما اعتزموه ، وأعلنوا ولاءهم للمهتدي وشكوا له سوء حالهم وتأخر ارزاقهم بسبب ما صار من الاقطاعات إلى قوادهم . « وكانت هذه الشكوى في الحقيقة بدء انقلاب جديد لو وجدت خليفة قويا ينتفع بها ، لائنها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذين أقطعوا ضياعا كثيرة لم يلتفتوا إلى اصلاحها فخربت ، وأدى ذلك إلى نقصان الخراج حتى لم يكن عند الخليفة ما يسد به حاجة الجند . »

استمر الجند يبحثون عن صالح حتى عثروا على مكانه وقبضوا عليه وقتلوه في شهر صفر سنة ٢٥٦ هـ ، وهدأت الأحوال في الدولة بعد ذلك زمنا قصيرا ، ثم قامت الفتن في بغداد إذ ثار الجند يطلبون المتأخر لهم من المرتبات والأرزاق ، وقدموا للخليفة بعض طلبات وتوسلوا إليه أن يجيبها ، وكان منها أن يزرع الخليفة قيادة الجيش من القواد الأتراك وغيرهم من الموالى ، وأن يعين قوادا من اخوته وأقاربه حتى تستقيم الأمور ، ولقد كان أمام المهتدي فرصة سانحة للخلاص من سيادة الأتراك ، ولكنه لم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ، وأراد استعمال الحيلة في الخلاص منهم ، وكان موسى وبايكباك مشغولين بمحاربة أحد الخارجين على الدولة في بلاد الموصل ، فأرسل المهتدي كتبا إلى كل منهما على انفراد يأمر كلا منهما بالفتك بزميله ، ولكنهما عرفا نيات الخليفة ، ورجعا إلى سامرا ومع ذلك تمكن المهتدي من القبض على بايكباك ، وأمر بضرب عنقه

فضرب عنقه وتخلص الخليفة من شره، وهاج الأتراك، استعدوا لقتال الخليفة واتباعه من مغاربة وفراغنة ودارت رحى الحرب بين الفريقين وظهر المهتدى شجاعة نادرة المثال، ولكنه غلب على أمره في النهاية وخسر المعركة وهرب إلى دار رئيس الشرطة، ولكن الأتراك اقتفوا أثره وقبضوا عليه، وحملوه إلى داره مهانا في شهر رجب سنة ٥٢٥٦ هـ، وخلعوه ومات بعد أربعة أيام من ذلك موتة غامضة

يقول الطبري: «وكانت خلافة المهتدى كلها إلى أن انقضى أمره احد عشر شهرا وخمسة وعشرين يوما وعمره كله ثمان وثلاثون سنة»
ويقول موير: «ولولا استسلام المهتدى ومقابلته الغدر بمثله لعددناه من أفاضل الخلفاء العباسيين»



البحر النيران

عصر المعتمد والموفق والمعتضد والمكتفي

١ - أحمد المعتمد على الله

(٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) (٨٧٠ - ٨٩٢ م)

ولد أحمد المعتمد على الله بن المتوكل سنة ٢٣١ هـ ، واعتلى عرش الخلافة بعد خلع المعتز في شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ ، وقد كان مسجوناً قبل أن يتولى العرش ، فاجتمع كبار القواد ورجال الدولة وأجمعوا رأيهم بعد أن خلعوا المعتز وأخرجوا أحمد من السجن وبايعوه بالخلافة . فقبل المنصب وتلقب بالمعتمد على الله ، واما علم موسى بن بغا الخبر - وكان يحارب الخوارج في الاهواز - أسرع بالعودة إلى سامرا وبايع الخليفة ، وقلب صحيفة جديدة من صحف حياته ، وأظهر الولاء والطاعة لخليفة المسلمين ، وخدم الدولة بجد وأمانة في ميدان الحرب والسياسة ، فأحببه المعتمد وعهد اليه بالوصاية على ابنه وولى عهده ، وكان قد أقامه والياً على الغرب ، وقد استزدت الخلافة في عهده شيئاً من رونقها السالف ، ووقف الأتراك وقوادهم عند حدهم وتحسنت الأحوال ، ولم يجرؤ الأتراك أن يمسوا شخص الخليفة بسوء كما كانوا يفعلون في العهود التي مضت ، ويرجع الفضل في ذلك إلى الهمة التي بذلها أخو المعتمد أبو أحمد طلحة بن المتوكل الملقب بالموفق ، اذ انتهز فرصة ضعف المعتمد وميله إلى اللهو وسماع الموسيقى والغناء واستأثر بالسلطان الفعلي في البلاد ، وادار شؤون الخلافة العسكرية

والمدينة ادارة حازمة ، وتولى قيادة الجيش بعد أن انتزعها من قواد الأتراك
ورؤسائهم

هذا وقد اشتهر من وزراء المعتمد عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير
المتوكل ، وسليمان بن وهب وزير المهتدى ، وأبو الصقر اسماعيل بن بلبس
وكان عربيا ينتسب إلى شيبان ، وكانت أحوال الوزارة مضطربة في
أثناء ذلك الحكم ، وكثيرا ما غضب المعتمد أو الموفق على أفرادها وطردهم
من وظائفهم وصادروا أموالهم وممتلكاتهم

أحوال الدولة الداخلية في عصر المعتمد :

أولا : العلويون :

توفي في عهد المعتمد الإمام حسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد
ابن علي الرضا في سنة ٢٦٠ هـ ، وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الامامية
الأثني عشرية ، وقد خلفه في الامامة ابنه محمد العسكري وكان طفلا في
الخامسة من عمره ، ويقال إنه خرج من أحضان أمه يبحث عن أبيه ، وكان
مسجوناً بسامرا - ودخل سردابا قريبا من منزله ولم يخرج منه ، فحزن عليه
اتباعه حزنا عميقا ولقبوه بالمنتظر ، لأنهم ينتظرون خروجه من ذلك
السرداب ليملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا . وكان الشيعة يجتمعون على
باب السرداب في المواسم والأعياد ويدعون إمامهم للخروج اليهم ،
وكانوا يمكثون وقتا غير قصير في كل اجتماع وهم يكررون دعواتهم إلى
الإمام ثم يرجعون إلى منازلهم والحزن يملأ أفئدتهم وجوانحهم ، لأنهم
لم يظفروا برجائهم ، وقد ظل الشيعة يعقدون هذا الاجتماع حتى
القرن الرابع عشر الميلادي

ثانيا : ثورة الزنوج

ظهر رجل فارسي في البحرين سنة ٥٢٤٩ هـ ، وادعى أنه من نسل سيدنا علي ، ودعا الناس إلى طاعته وكان إباحيا في مذهبه ، فالتف حوله عدد كبير من الاثصار ، وكبر شأنه ، ثم شخص إلى البصرة ونزل بها في سنة ٥٢٥٤ هـ ونشر دعوته فطارده عاملها محمد بن رجاء الحضاري ، فتركها إلى بغداد ونزل بها وظل محتفيا فيها حتى عزل ابن رجاء ، فرجع إليها في سنة ٥٢٥٥ هـ ، وأخذ يجهر بآرائه ، وازداد عدد مريديه بانضمام الأرفاء والعبيد اليه لأنه دعاهم إلى الخروج على ساداتهم ، ووعدهم الحرية والسيادة والتملك ، ولما قوى أمره رفع راية العصيان على الدولة العباسية ، وخرج عليها في رمضان سنة ٥٢٥٥ هـ ، وأرسلت اليه الدولة القوات لاختضاعه فأتتصر عليها نصرا مبينا ، وأخذ يعيث في تلك الجهات وينهب الأموال ويستكثر من الرجال وفي مدة سنتين أصبح يسود دال الفرات . وفي سنة ٥٢٥٧ هـ هاجم البصرة واستولى عليها ، وقتل من أهلها خلقا كثيرا ، وأحرق عددا كبيرا من دورها ومساجدها ، واستفحل أمره وذعر الخليفة وطلب الى الموفق أن يخرج اليه بنفسه ، فجمع جيشا كبير العدد كامل العدة ، وزحف لملاقاة الثائر والقضاء عليه ، وكان الخبيث - وهو اللقب الذي أطلق عليه - قد استطاع في أثناء ذلك أن يستولى على الاهواز ومدينة واسط ، وبسط نفوذه على المقاطعات التي بينها ، واستمرت رحى الحرب قائمة بين الزنوج وبين جند الدولة لمدة عشر سنوات ، وتمكن الموفق بمعاونة ابنه المعتضد وباقي قواده الأكفاء أن يخمد تلك الثورة العنيفة ، وطرده الثوار من معاقلم الحصينة بعد كبير عناء ، وأمن من أراد منهم الرجوع الى حظيرة الدولة ، وفي شهر صفر ٥٢٧٠ هـ أرسل الموفق الى زعيم الثوار يؤمنه .

ويطلب اليه الخضوع والولاء ، فأبى الخبيث وامتنع ، وحاول الهروب ولكن الجند قبضوا عليه ، وقطعوا رأسه وتخلصت الدولة من شر مستطير هز أركانها وأقلق بال سكانها لمدة أربع عشرة سنة ونصف تقريبا

ثالثا : الأحوال في المشرق :

كان نفوذ الخليفة العباسي لا يزال معترفاه في الاقاليم الشرقية للدولة ، وكان اسمه لا يزال يذكر في الدعاء على المنابر في مساجد تلك الاقاليم ، ولكن حدث أن وجدت قوى أخرى في تلك الازمنة المضطربة نازعت آل طاهر — أمراء خراسان وما وراءها من بلاد ماوراء النهر وما إليها من بلاد الري وطبرستان وجرجان وكرمان — سيادتهم ، تلك السيادة التي كانوا يستمدونها من الخلافة العباسية ، والتي كانوا يرهبون بها الأعداء والخارجين على الدولة أيام كانت القوة المركزية فيها مهيبة الجانب ، نافذة الكلمة ، مستعدة بجيوشها لتأديب العصاة والثوار ، فظهرت الدولة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد مر ذكرها ، وظهرت دولة أخرى ، وهي الدولة الصفارية فاستولت على خراسان وقضت على حكم الطاهريين منها واليك البيان :

قيام الدولة الصفارية :

قامت الدولة الصفارية باقليم سجستان ، وتنسب الى يعقوب بن الليث الصفار وأخيه عمرو ، وقد كانا يشتغلان وهما صغيران بعمل الصفر ، ولما كبرا اشتهرا بالزهد وبالورع والتقوى ، ثم اتصلا باحد المتطوعين لقتال الخوارج واسمه صالح بن النضر السكناني فكان لهما شأن كبير معه ، ولما مات صالح آلت الزعامة بين المتطوعين الى درهم بن الحسين ، فاتخذ يعقوب قائدا لجنده ، ولما عزل درهم تولى يعقوب الزعامة ، واشتهر أمره واشتدت

شوكته ، وبسط نفوذه على سجستان وهرات ويوشنج وما إليها ، وانتصر على
الترك الذين اعتدوا على سجستان ، فرهبه الملوك الذين حوله ، وأذعنوا له
بالطاعة ، ولما ثبت قدمه أخذ يتطلع إلى إمارة خراسان ليحكمها باسم الخليفة
وأرسل للبعث هدية سنوية ، وسأله أن يوليه بلاد فارس وعليه هو اخراج
الثأر العلوي منها ، وقد برهن للخليفة على قوته بأن زحف على شيراز حيث
كان علي بن الحسين ، ودخلها عنوة في شهر جمادى الأولى سنة ٢٥٥ هـ ،
وأخذ علي بن الحسين أسيرا ، ثم عاد إلى سجستان فارتفع شأنه وعلا قدره
في تلك الأصقاع ، وفي سنة ٢٥٩ هـ قصد نيسابور ودخلها ، وهناك قدم له
بنو طاهر الخضوع ، « لما رأوا أنه لا قبل لهم بمقاومته ، وأن قوة الخلافة
ضعفت عن إعانتهم . » . وقبض على محمد بن طاهر وآل بيته وسجنه ، فأنهت
دولة آل طاهر من خراسان وبلاد المشرق

كتب يعقوب إلى الخليفة يخبره بأمره في خراسان ، فغضب الموفق
وأرسل إليه أن يترك البلاد لآل طاهر ويرجع إلى مقر نفوذه حيث أقامه
الخليفة ، فامتنع يعقوب عن اجابة ما طلب الموفق ، ورأى المعتمد بعد ذلك
أن يسالم يعقوب فولاه خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس
والشرطة ببغداد ، وكان يعقوب قد تغلب في سنة ٢٦٠ هـ على القوة
الزيدية في طبرستان وهزم الحسن بن زيد ، واستولى على سارية وآمل

طمع يعقوب في الاستيلاء على بغداد والعراق ، وعرف المعتمد
نياته فخرج إليه بجيش كبير ، وفي مدينة واسط تقابل الجيشان وانتصر
الخليفة بفضل مهارة الموفق في سنة ٢٦٢ هـ ، وغنم غنائم كثيرة من يعقوب
وجيشه ، ورجع يعقوب بعد الهزيمة إلى فارس ، واتهم محمد بن طاهر
الفرصة وتخلص من سجنه وحضر إلى بغداد فخلع المعتمد عليه الخلع ،

وأعاده الخليفة الى عمله ، وقد كاتب الخبيث زعيم الزنوج يعقوب الصفقارى يعرض عليه معاوته والتحالف معه ضد الخليفة ، فأبى يعقوب ورد عليه بقوله : « قل يأبها الكافرون الى آخر السورة » ، وتوفى يعقوب بعد ذلك فى سنة ٢٦٥ هـ بمدينة الاهواز

يقول أبو الفداء : « وكان المعتمد قد أرسل اليه رسولا وكتابا يستميله ، ويعقوب مريض ، فأحضر الرسول وجعل عنده سيفا ورغيفا وبصلا ، وقال للرسول قل للخليفة . إن مت فقد استراح منى واسترحت منه ، وإن عوفيت فليس بينى وبينه الا هذا السيف ، وإن كسرتنى وأفقرتنى عدت الى أكل هذا الخبز والبصل . »

بايع الجند أخاه عمرو بن الليث بعد وفاته فكان حسن التدبير والسياسة ، وكتب الى الخليفة بطاعته فولاه الموفق خراسان وأصفهان وسجستان والسندوكرمان ، وسير اليه الخلع مع الولاية ولكن الخليفة غضب عليه فى سنة ٢٧٢ هـ ، ولما استرضاه عمرو بالمال رضى عنه ، وظل والياً على تلك الأقاليم حتى انتهى عزه على يد اسماعيل بن احمد أحد أفراد الدولة السامانية كما سيحىء بعد ،

يقول موير : « كان قيام الدولة الصفارية الخطوة الأولى فى استرداد الفرس استقلالها القومى . »

علاقة المعتمد بالدولة الطولونية :

عظمت منزلة أحمد بن طولون فى مصر فى خلافة المعتمد ، وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولاً ثم لأماجور ثم لأحمد بن طولون . ولما مات أماجور سنة ٢٥٨ هـ استقل أحمد بن طولون بمصر ودعى له بها وحده بعد الدعاء للخليفة ، وأدار البلاد ادارة حسنة . ونظم ثروتها تنظيماً

بديعا ، وأعاد الى هذا القطر رخاه ، وضرب على أيدي المفسدين . وأخذ
يعمر البلاد فبنى الجسور وشق الترع وبنى مسجده العظيم ، وهو أثر خالد
وشجع العلم والعلماء ونظم الجيوش فانتعشت مصر واسترجعت بعضا
من مقامها السالف ، وأصبح مركز ابن طولون قويا ، فحقد عليه الموفق
وأرسل اليه موسى بن بغا على رأس جيش لاختصاصه ، فلما بلغ الرقة أقام
بها زمنا ولم يستطع التقدم لقلّة الأموال وطالبتة الجند بالمرتبات فلما عجز
ثاروا عليه ، فاضطر أن يعود الى العراق ، استراح احمد بن طولون من شره ،
وكانت علاقة ابن طولون بالمعتمد أفضل من علاقته بأخيه الموفق . وفي ٢٦٤ هـ
طلب اليه الخليفة أن يسير الى آسيا الصغرى لاسترجاع طرسوس من
الروم ، وكانوا قد انتزعوها من المسلمين ، ففرح ابن طولون بالطلب
وأناج ابنه نهارويه على حكومة مصر ، وخرج هو غازيا الروم ، ودخل
الشام واستولى على دمشق وانطاكية ، وتقدم نحو طرسوس ولكنه
استقبل فيها استقبالا رديئا فتركها ورجع الى الشام ، وزحف نحو الشرق
ودخل حران ، ولكنه رجع الى مصر بعد ذلك . وفي سنة ٢٦٨ هـ أرسل
دعوة الى الخليفة يدعوه فيها الى مصر ، وأجاب المعتمد الدعوة وترك سامرا
راحلا الى مصر ، ولكن الموفق عرف أن انتقال الخليفة الى مصر وتعاونه
مع ابن طولون يرجعان على نفوذه بالضرر ، فبذل جهده حتى يمنع المعتمد
من الاتصال بوالى مصر ، وأرسل الى عامل الموصل أن يقف سير الخليفة
فنفذ الأمر وأرجع الخليفة ومن معه الى سامرا ، فغضب ابن طولون
واتسع خرق الخلاف بينه وبين الموفق ، وقطع اسمه من الخطبة ، واسقط اسمه
من الطراز ، وطلب الموفق من الخليفة أن يأمر بلعن ابن طولون فى مساجد
الدولة ففعل على كره منه ، ولما طلب ابن طولون أن يتولى أمانة الحج

رفض طلبه ، وظلت العلاقات متوترة بينهما حتى توفي ابن طولون في سنة ٥٢٧٠ هـ ٨٨٤ م ، وخلفه ابنه خمارويه في ولاية مصر والشام والثغور وبقي ملك الطولونيين قائماً في مصر حتى سنة ٥٢٩٢ هـ

علاقة المعتمد بالدولة البوزنطية :

انتهم الروم قيام الفتن والفتن في أنحاء الدولة العباسية وأغاروا على حدودها السورية في زمن عاهلهم العظيم باسيل الصقلي (٨٦٧-٨٨٦ م) واستطاع قواد الروم أن يستولوا على حصن لؤلؤة المنيع ، فانتصروا على المسلمين وقواتهم في اسيا الصغرى ، وأسروا قائداً من قواد الخلافة وحملوه إلى القسطنطينية ، ولكن لما تولى أمر محاربتهم احمد بن طولون رجعوا على أعقابهم ، وظلوا يترقبون الفرصة ليعيدوا كراتهم على أملاك الدولة ، ولولا أن نشط الجند المتطوعة وقاموا لصددهم لاستطاعوا أن ينتزعوا أملاكاً كثيرة من أملاك الدولة في الجزيرة وسوريا

وفاة الموفق والمعتمد وولاية العهد بعدهما :

مرض احمد الموفق وهو في ميدان القتال في الشمال ، وحمل إلى سامرا ، ولما شعر بدنو أجله عزم على أن ينقل السلطة التي كانت في يده إلى ابنه المعتضد ولقد كان أميراً محبوباً جداً بين الجند وأفراد الشعب ، وقبل أن يلفظ نفسه الأخير في سنة ٥٢٧٨ هـ فعل ما أراد ، وأصبح ابنه المعتضد صاحب الأمر والنهي في أمور الدولة كما كان أبوه من قبل ، وفي أواخر شهر رجب سنة ٥٢٧٩ هـ مات المعتمد على أثر شراب شربه بعد أن شغل كرسي الخلافة نحو ثلاث وعشرين سنة ، كان في أثناءها خليفة بالاسم ،

ولم يكن له من الأمر شيء، وقضى وقته في أحاديث الغنا، والرقص والندامى وهىئة المجالس، ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبئة مجالس الندما.

٢ — ابو العباس احمد المعتضد

(٢٧٩ — ٢٨٩) هـ (٨٩٢ — ٩٠٢) م

كان ابو العباس احمد بن أبي احمد الموفق عضدا لأبيه في حروبه وأعماله وقد تولى ولاية العهد بعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض ابن المعتمد سنة ٢٧٩ هـ، واعتلى عرش الخلافة في اليوم الذى توفى فيه عمه المعتمد على الله وقد اشتهر بالشجاعة والاقدام، وكان ميالا لسفك الدماء حتى أطلق عليه المؤرخون لقب السفاح الثانى، واستطاع بهمته ونشاطه أن يعيد إلى العباسيين شيئا من مجدهم القديم، وأرجع إلى حظيرة الدولة كثيراً من الولايات والاقاليم التى خرجت عنها فى العهود السابقة، وحارب البوزنطيين حروبا موفقة، واسترد كثيرا من المدن والمعاقل التى كان الروم قد انتزعوها من المسلمين، وقضى على ثورة الايراد وطردهم من الجزيرة، وأخذ الفتن والقلاقل التى أثارها أمير حمدان فى بلاد الموصل، وفى عهده ظهر بالجزيرة خارجى اسمه هارون الشارى وتغلب على قوات الدولة، فأرسل اليه المعتضد حسين بن حمدان بن حمدون جد الأسرة الحمدانية الذى تغلب عليه الخليفة وأسره، وقد وفق حسين أن ينتصر على الخارجى، وقبض عليه وأحضره إلى المعتضد، ففرح فرحا كبيرا، وخلع على الحسين وأطلق سراح أبيه، وأمر له بالهدايا والعطايا فاسترجع بنو حمدان نفوذهم السابق وكان هذا بدء قيام الأسرة الحمدانية

قام المعتضد باصلاحات كثيرة في الدولة ، فانه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوى الارحام فأدخل بذلك عنصراً جديداً على قانون المواريث ، وأبطل ديوان المواريث ، وكان أصحاب التركات يلقون عناء كبيراً من موظفى هذا الديوان ، فاكسب المعتضد بذلك ثناء العامة والخاصة ، ومن أهم اصلاحاته ما يعرف بالتقويم المعتضدى ، فانه غير أوائل السنة من مارس إلى يونيه ، وأبطل الاحتفالات التي كانت تقام في عيد النيروز وهو سنة القديم ، وكان الناس يحتفلون به احتفالا عظيماً ، فاستقام الأمر في جباية الخراج وأصبحت مواعيد الجباية ثابتة في شهور الثمار والغلات

الحالة في خراسان وقيام الدولة السامانية :

كان عمرو بن الليث الصفارى قائماً بأمر خراسان في زمن المعتضد ، وكان نفوذه كبيراً في تلك الجهات والاقليم ، وفي سنة ٢٨١ هـ دخل نيسابور وتغلب على رافع بن هرثمة الذي خرج على الدولة وأعلن خضوعه لمحمد ابن زيد العلوى ، ولما هرب رافع الى طوس وخوارزم أرسل عمرو جنداً ليلحقوا به ففعلوا ، وانتصروا عليه وقتلوه ، وأرسل عمرو كتاباً إلى الخليفة يبشره بذلك النصر ، وأرسل رأس الثائر مع الكتاب ، ففرح المعتضد وأرسل إليه الخلع ولواء الولاية على الرى ، فاتسع سلطانه وقوى أمره وطمع في الولاية على بلاد ما وراء النهر ، وطلب الى الخليفة أن يعقد له الولاية على البلاد التي يحكمها اسماعيل بن احمد السامانى فقبل المعتضد ، وأرسل اليه عهد الولاية ، وخرج عمرو ليمتلك تلك البلاد فقاومه اسماعيل السامانى واستعد لقتاله

ينتسب اسماعيل الى اسرة فارسية عريقة في المجد ، وكان أفرادها يحكمون بلاد ما وراء النهر من زمن المأمون تحت أشرف أمير خراسان ، فكان

نوح بن أسد بن سامان يتولى أمر سمرقند ، واحمد بن أسد يتولى الأمر في
فرغانة ، ويحيى بن أسد الأمر في الشاس واشروسنة ، ويتولى أخوه الياس
الأمر في هراة ، ولما توفي احمد أمير سمرقند خلفه في الحكم ابنه اسماعيل ،
وقام بالأمر على وجه مرضى ، وعلى يديه سقطت الدولة الصفارية ، وذلك
أنه طلب الى عمرو بن الليث أن يقنع بما في يديه من الاملاك ، والاي تعرض
الى البلاد التي تخضع له ، فأبى عمرو وخرج لقتاله ، فقايله اسماعيل وانتصر
عليه ، وأخذة أسيرا وأرسله الى الخليفة في بغداد فسجن بها ، وظل مسجوناً
حتى قتل في أول خلافة المكتفى

خرج محمد بن زيد من طبرستان بعد سقوط عمرو بن الليث طالبا
خراسان ، وظن أن الفرصة سانحة لتملكها ، ولكن اسماعيل الساماني تعرض
له في الطريق وأرسل اليه جندا لمقاتلته ، فقايلته على باب جرجان وتغلبت
عليه ، وجرح في الحرب ومات بعد ذلك بقليل ، أما ابنه زيد فإنه أسر وحمل
الى اسماعيل فسجنه ، وبذلك سقطت الدولة الزيدية في طبرستان أيضا على
يد اسماعيل الساماني ، فكبر شأنه وعظم أمره ، وفرح به المعتضد وأرسل
اليه الخلع والهدايا الثمينة ، وخضعت له البلاد ، وأصبحت القوة في المشرق
لأسرته فقامت بالأمر وحكمت البلاد والاقاليم ، وظل لها النفوذ والسلطان
التام حتى سنة ٣٨٩ هـ ، وكان عدد ملوكها عشرة أولهم نصر بن احمد بن
سامان وآخرهم عبد الملك بن نوح

علاقة المعتضد بالدولة الطولونية :

كانت علاقة المعتضد بخارويه بن احمد بن طولون حسنة ، وكان
خمارويه يتقرب الى الخليفة ، فأرسل اليه الهدايا وعرض عليه أن يتزوج

ابنته قطر الندى، فقبل الخليفة وتزوجها، واحتفل خمارويه بزواجها احتفالا كبيرا، وزفها الى المعتضد في جهاز سارت بذكره الركبان وأصبح مضرب الأمثال، اذ بنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر افيا بين مصر و بغداد « وأخرج معها أخاه شيبان في جماعة، فكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد، فاذا وافت المنزل وجدت قصرا قد فرش فيه جميع ما يحتاج اليه، وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الإقامة، فكانت في سيرها من مصر الى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس الى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة ٢٨٢ هـ .»

انغمس خمارويه في اللذات والملاهي، وأنفق أموال الدولة حتى خوت خزائنه، وضعفت حالة الدولة فتآمر عليه بعض خدمه فذبحوه وهو على فراشه بدمشق، فنقل الى مصر ودفن فيها عام ٢٨٣ هـ، وقامت بالبلاد قن داخلية، اضعفتها وسبيت خروج طرسوس من أيدي بني طولون ورجوعها الى الدولة العباسية، وتنازل هارون الذي تولى الأمر في مصر عن قنسرين والعواصم، وقصر أمره على مصر والشام، وتعهد بأن يحمل الى بيت المال ببغداد كل سنة نحو نصف مليون من الدنانير، ومن ثم اشتد نفوذ الخليفة في مصر ورجع له فيها شيء من مقامه السابق

وفاة المعتضد :

ترك المعتضد سامرا واستبدل بها بغداد، «فضاعت أبهتها وخربت بعد أن كانت تضارع بغداد، بل لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا منها» وحكم المعتضد حكما موفقا نحو عشر سنين، وفي شهر ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ توفي

يقول الطبري: « وفي ربيع الآخر من سنة ٢٨٩ هـ في ليلة الاثنين توفي المعتضد ، فلما كان في صديحتها أحضر دار السلطان يوسف بن يعقوب وأبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز وأبو عمر بن محمد بن يوسف بن يعقوب وحضر الصلاة عليه الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان ولسبع بقين من شهر ربيع الآخر من هذه السنة جلس القاسم بن عبيد الله بن سليمان في دار السلطان في الحسيني واذن للناس فعزوه بالمعتضد وهنئوه بما جدد له من أمر المكتفى ، وتقدم إلى الكتاب والقواد في تجديد البيعة للمكتفى بالله فقبلوا . »

٣ — علي المكتفى بن المعتضد

(٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) (٩٠٢ — ٩٠٧ م)

اعتلى المكتفى عرش الخلافة بعد وفاة أبيه وكان في الرقة عند الوفاة ، فلما وصل الخبر إليه أمر الحسين بن عمرو كاتبه يومئذ بأخذ البيعة علي من في عسكره ، ووضع العطاء لهم ، ففعل ذلك الحسين ، ثم خرج شاخصاً من الرقة إلى بغداد ، ودخل إلى داره بالحسيني ، فلما صار إلى منزله أمر بهدم المطامير التي كان أبوه اتخذها لأهل الجرائم ، وجعلها مساجد لإقامة الصلاة ، فأحبه الناس حباً جما ، وقد اشتهر بالكرم ، وفي عهده قامت الفتن والقلاقل في أنحاء الدولة ، ولكنه قبلها بعزم وحزم ، وتغلب على الخارجين والثوار ، وارجع مصر والشام إلى حظيرة الدولة العباسية بعد أن قضى علي حكم الطولونيين فيها ، وكان الفضل في ذلك إلى قائده القدير محمد بن سليمان الذي جاء إلى مصر وحارب شيبان بن أحمد بن طولون وهزمه ، ودخل القطائع عاصمة الطولونيين وخربها ، وهدم

القصور ونهب البيوت ودمرها ، ونقل ثروة الطولونيين وعددا من أفراد الأسرة إلى بغداد ، وكان ذلك في سنة ٢٩٣ هـ ، وفي عهد المكتفى أقلق القرامطة بال الدولة ، وحاربهم الخليفة حربا عوانا مما سنذكر تفصيله بعد واعتدى الروم على حدود الدولة ونهبوا وسلبوا ، وحملوا الأسرى ولكن المكتفى حاربهم وردهم على اعقابهم خاسرين ، وانزع منهم مدينة اضايا وكانت معقلا حصينا لهم ، وخلص عددا كبيرا من الأسرى المسلمين ، وفي آخر عهده حصلت مفاداة بينه وبين الروم وكان عدة من فودى به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس ، وفي سنة ٢٩٥ هـ توفي اسماعيل بن أحمد الساماني أمير خراسان والمشرق فتولى بعده ابنه أحمد ابن اسماعيل ، وعقد له المكتفى بيده لواء وأرسله اليه . وفي هذا العهد انقرضت دولة الاغالبة في افريقية إذ تغلب عليها أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين بالمغرب ، وقامت الدولة الفاطمية في المغرب ومصر ، وامتد نفوذها واتسع سلطانها وقد مر ذكرها وقرأنا شيئا عن تاريخها فنتركها ونتكلم على القرامطة

القرامطة :

يقول الطبرى : « في أواخر دولة المعتمد سنة ٢٧٨ هـ ، وردت الاخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة ، فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة ومقامه بموضع منه يقال له النهرين يظهر الزهد والتقشف ، ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة ، فأقام على ذلك مدة ، فكان اذا قعد اليه انسان ذا كره أمر الدين ، وزهده في الدنيا وأعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس خمسون

صلاة في كل يوم وليلة ، حتى فشا ذلك عنه بموضعه ، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى امام من أهل بيت الرسول ، فلم يزل على ذلك يقعد اليه الجماعة فيخبرهم من ذلك بما تعلق قلوبهم . وكان يزداد نبلا في أعين الناس بما يظهره من الزهد ثم مرض فمكث مطروحا على الطريق

وكان في القرية رجل يحمل على اثار له احمر العينين شديدة حمرتها وكان أهل القرية يسمونه كرميته لحرمة عينيه ، وهو بالنبطية احمر العينين ، فحمل هذا العليل الى منزله ووصى أهله بالاشراف عليه والعناية به ، ولم يزل مقيا عنده حتى برى فكان كرميته يدعو الناس الى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكررة ، وكان يأخذ من كل من دخل في مذهبه دينارا يزعم أنه للامام ، واتخذ من أهل القرية نقباء اثني عشر ، فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التي أخبرهم أنها مفروضة عليهم . وكان للهيصم في تلك الناحية ضياع ، فوقف على تقصير اكرته في العمارة ، فسأل عن ذلك ، فأخبر ان انسانا طرأ عليهم فأظهر لهم مذهبا من الدين وأعلمهم ان الذي افترضه الله عليهم خمسون صلاة في اليوم والليله فشغلوا بها عن أعمالهم ، فوجه في طلبه فأخذ وجيء به اليه ، فسأله عن أمره فأخبره بقصته ، فحلف أن يقتله ، فأمر به فحبس في بيت وأقفل عليه الباب ، ووضع المفتاح تحت وسادته وتشاغل بالشرب ، وسمع بعض من في داره من الجوارى بقصته فرقت له جارية ، فلما نام الهيصم أخذت المفتاح من تحت وسادته ، وفتحت الباب وأخرجته ، واقفلت الباب وردت المفتاح الى موضعه ، فلما اصبح الهيصم دعا بالمفتاح ففتح فلم يجده وشاع ذلك الخبر ، ففتن به أهل تلك الناحية وقالوا رفع ثم ظهر في موضع آخر ، ولقي جماعة من اصحابه وغيرهم ، فسألوه عن قصته ، فقال ليس يمكن أحدا أن يبدأني

بسوء ، ولا يقدر على ذلك منى ، فعظم في أعينهم ثم خاف على نفسه فخرج الى ناحية الشام ، فلم يعلم له خبر وسمى باسم الرجل الذى كان فى منزله صاحب الاثوار كرميته ثم خفف فقالوا قرمط . »

مذهب القرامطة :

يعتق القرامطة مذهب الشيعة الاسماعيليه ، نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم امامية يتفقون مع الامامية الاثنى عشرية فى المبدأ العام للتشيع الامامى ، وهو أنه لا بد للناس من امام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان الشريعة لا تؤخذ بالرأى ، ويتفقون معهم على امامة الستة من على بن أبى طالب الى جعفر الصادق ، ومنه يتبدى الاختلاف ، فالاثنا عشرية ذهبوا الى فرع موسى الكاظم والاسماعيلية ذهبوا الى فرع اسماعيل ، وكان من أشهر دعاة هذه الفرقة عبد الله بن ميمون القداح الذى ظهر فى اورشليم فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة (٨٧٣ — ٨٧٤) م ونشر مذهباً دينياً غربياً ، أراد به أن يدمج كل الأديان السماوية فى دينه الجديد ، وأطلق عليه الدين السابع وهو آخر الأديان المنزلة . « ولقد نشأ عن المذهب الاسماعيلي قوتان عظيمتان كتاتهما ضد الدولة العباسية ، إحداهما منتظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص ، وهى موئل الدولة الفاطمية العبيدية وجمع أسرارها ، كما كانت قرية الحميمة موئل الدولة العباسية وجمع أسرارها والثانية قوة ذات فوضى وجور ونكوب عن حسن السياسة ومركزها كان لأول ظهورها بالعراق وهى القرامطة »

انتشار مذهب القرامطة في خلافة المعتضد :

فشا مذهب القرامطة أولاً في سواد الكوفة في أواخر خلافة المعتمد كما مر بنا ، ثم انتقلت منها إلى البحرين ، وأخذ أبو سعيد الحسن الجنابي — وجنابة من سواحل فارس — ينشر مذهب القرامطة ويستميل العرب إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها ، وقوى أمره وفي سنة ٢٨٧ هـ في خلافة المعتضد زحف على البصرة فأرسل إليه الخليفة جيشاً فانتصر عليه ، وأسر قائده واستولى على ما كان معه وقتل الأسرى ، انتشر هذا المذهب في سواد الكوفة وكثر أتباعه ، وأرسل المعتضد جيشاً يقوده شبيل غلام أحمد بن محمد الطائي فظفر بهم ، وقبض على رئيس من رؤساء القرامطة يعرف بأبي الفوارس وحمله إلى المعتضد فسأله الخليفة في مذهبه وناقشه ورد عليه أبو الفوارس رداً جريئاً فأمر به فقتل

ظهر داعية آخر من دعاة القرامطة يسمى زكرويه بن مهرويه ، « وسعى في استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم ، وبايعوا سنة ٢٩١ هـ ابن زكرويه المسمى يحيى المسكني بأبي القاسم ، ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وزعم لهم أن له في البلاد مائة ألف تابع ، وسمى أتباعه الفاطمية فقصدهم شبيل مولى المعتضد من ناحية الرصافة ، فاغتروه فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة ، واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا بلاد الشام ، وكانت إذ ذاك في حوزة خمارويه بن أحمد بن طولون ، وينوب عنه فيها طنج بن جف فقاتلهم مراراً فهزموه »

« هذا ما كان من أمر القرامطة في حياة المعتضد ظهر واثلاثة مواضع
بالبحرين والعراق والشام وبدوا بخروجهم شعلة النار المحرقة التي آذت
المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق الى بيت الله المقدس . »

القرامطة في عصر المكتفى بالله :

عاش القرامطة في بلاد الشام فسادا ، وكتب الشاميون الى الخليفة
يشكون بما ألم بهم من الحسين بن زكرويه ، وكان يلقب بذي الشامة لوجود
شامة في وجهه ، فإنه قتل وسبي وخرّب البلاد ، وخرج المكتفى اليه بنفسه
وسار حتى نزل الرقة ، وسير الجيوش بقيادة محمد بن سليمان لقتال القرمطي
والتحم الفريقان في معارك شديدة انتصر في نهايتها قائد الخليفة ، وأسر
القرمطي بوساطة أحد رجال المكتفى ، وأخذ الى الخليفة بالرقة في شهر
الحرم سنة ٢٩١ هـ ، فحمل الى بغداد هو ومن أسر من رجاله ، وأعدموا
بعد أن شهر بهم الخليفة تشهيرا كبيرا

ظهر زكرويه من مخبئه عندما بلغه خبر قتل ابنه يحيى ، وجمع الانصار
وزحف على بلاد الشام وهدد دمشق ، ولما عرف الخليفة خبره أرسل اليه
الحسين بن حمدان ، وكان القرامطة قد دخلوا طبرية ، فطاردهم الحسين من
بلد الى بلد حتى شتت شملهم وتفرقوا في البادية ، وفي سنة ٢٩٣ هـ أغاروا
على الكوفة وألقوا بأهلها خسائر فادحة ، وسلبوا ما استطاعوا أن يسلبوه
ثم قلوبهم سكان الكوفة وعاونهم جند الخليفة ، فتفرقوا الى الصحراء وفي
سنة ٢٩٤ هـ أغاروا على قوافل الحج الآتية من مكة الى المشرق ، وسلبوا
أفرادها وذبحوهم رجالا ونساء وأطفالا ، واستولوا على ما كان معهم من
الأموال ، فغضب الخليفة غضبا شديدا ، وندب أحد قواده الاتراك ، وأمره
بإقتفاء أثر هؤلاء الاشرار ، فخرج اليهم على رأس جيش كبير وقتلهم ، فقتل

منهم كثيرا وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصته، وسار بهم الى بغداد
ولكن زكرويه مات متأثرا بجروحه قبل أن يصل الى العاصمة، فاستراحت
الدولة من شره، واستمر الحسين بن حمدان يطارد من بقي من قوات
القرامطة في الشام حتى مزق شملهم وأوقع بهم

وفاة المكتفى بالله :

في ذى القعدة لاثنتي عشرة ليلة خلت منها توفي المكتفى بالله بعد حكم
مضطرب دام ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما وكان يوم توفي ابن
اثنتين وثلاثين سنة، وقد ترك الدولة والخلافة لأخيه القاصر فتولى عرشها
وهو يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وعشرين يوما وتلقب
بالمقتدر بالله



الباب السابع

عصر المقتدر والقاهر والراضى والمتقى

١ - جعفر المقتدر بالله

(٢٩٥ - ٥٣٢٠) (٩٠٧ - ٩٣٢ م)

ولد جعفر المقتدر بالله في سنة ٢٨٢ هـ، واعتلى عرش الخلافة بعد وفاة أخيه في سنة ٢٩٥ هـ، وكانت سنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة وكان الفضل في اعتلائه العرش للعباس بن الحسن وزير المكتفى بالله، إذ جمع أهل الرأى في الدولة، وتشاوروا فيما بينهم على من يكون خليفة، فاجتمع رأيهم على تولية المقتدر على الرغم من صغر سنه، تحقيقاً لرغبة الخليفة المتوفى واتباعاً لمشورة أبى الحسن على بن محمد بن الفرات أحد رؤساء الدواوين في دار الخلافة. ولما أعلن خبر البيعة للناس ثاروا وعلى رأسهم القواد والقضاة، وطلبوا خلع المقتدر، وتولية عبد الله بن المعتز، فقاومهم الوزير فقتلوه في ٢٠ ربيع الأول سنة ٢٩٦ هـ، وخلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز، وتخلف عن البيعة ابن الفرات وخواص المقتدر وبعض القواد مثل مؤنس الخادم ومؤنس الخازن، وأراد المقتدر أن يترك بغداد ويسلم الأمر للخليفة الجديد فامتنع أصدقاؤه، وأشاروا عليه بالقتال، وفي مساء تلك الليلة سعدوا إلى الدار التي فيها ابن المعتز وهجموا عليه فنفرق عنه أصحابه، وكان الحسن بن حمدان أحد القواد الذين علونوه قد فارق بغداد وترك سيده من غير نصير، فلم ير ابن المعتز بدا من الخروج من

بغداد، وخرج معه وزيره محمد بن داود بن الجراح، ورجع المقتدر إلى العرش، وما لبث أن ظفر بابن المعتز فسجنه وعذبه حتى مات وقبض على أعوانه وقتلهم جميعا، وفي تلك الاثناء اضطربت الأمور في دار الخلافة واختل الأمن، وكثر النهب والقتل، ودخل اللصوص الدور واعتدوا على الأموال والأعراض

استوزر المقتدر أبا الحسن علي بن محمد الفرات، وقلد أمر الشرطة مؤنسا الخازن، وقد قضى ابن الفرات في وزارته الأولى ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما، ثم غضب عليه المقتدر فعزله وصادر أملاكه، واستوزر محمد بن عبيدالله بن خاقان، وفي عهد وزارته أهملت أمور الدولة وانتشرت الرشوة وانغمس الخليفة في اللذات، وترك الأمور للوزير الأول، وكثر العزل والتولية فاضطرب أمر الولاية اضطرابا شديدا، ونقصت الإيرادات العامة نقصا ظاهرا، وأثرى أفراد على حساب أفراد آخرين، وسقطت هيئة الحكومة ولم يبق للخليفة أدنى سلطان ولا احترام، ويصور لنا ابن الأثير الحالة أدق تصوير عند ما أورد ذكر القبض على ابن الفرات ووزارة الخاقاني إذ قال:

« ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين وفي هذه السنة قبض المقتدر على الوزير أبي الحسن بن الفرات في ذى الحجة، وهناك صرعه ونهب ماله، ونهبت دور أصحابه ومن يتعلق به، واقتنت بغداد لقبضه، ولقى الناس شدة ثلاثة أيام ثم سكنوا، وقلد أبو علي محمد بن يحيى بن عبد الله بن يحيى ابن خاقان الوزارة، فرتب أصحاب الدواوين وتولى مناظرة ابن الفرات أبو الحسين أحمد بن يحيى بن أبي البغل، وكان أخوه أبو الحسن بن أبي البغل مقيما بأصبهان فسعى أخوه له في الوزارة هو وأم موسى القهرمانة، فأذن المقتدر في حضوره ليتولى الوزارة فحضر، فلما بلغ ذلك الخاقاني انجلت

أموره فدخل على الخليفة وأخبره بذلك ، فأمره بالقبض على أبي الحسن وأبي الحسين أخيه ، فقبض على أبي الحسن وكتب في القبض على أبي الحسين ، فقبض عليه أيضا ، ثم خاف القهر مائة فأطلقهما واستعملهما ، ثم أن أمور الخاقاني انحلت لأنه كان ضجورا ضيق الصدر مهملا لقراءة كتب العمال وجباية الأموال ، وكان يتقرب إلى العامة والخاصة ، ففزع خدم السلطان وخواصه أن يخاطبوه بالعبد ، وكان إذا رأى جماعة من الملاحين والعامة يصلون جماعة ينزل ويصلى معهم ، وإذا سأله أحد حاجة دق صدره وقال نعم وكرامة ، فسمى « دق صدره » إلى أنه قصر في إطلاق الأموال للفرسان والقواد فنفروا عنه ، واتضعت الوزارة بفعله ما تقدم ، وكان أولاده قد تحكّموا فيه فكل منهم يسعى لمن يرتشى منه . وكان يولى في الأيام القليلة عدة من العمال حتى أنه ولى بالكوفة في مدة عشرين يوما سبعة من العمال ، فاجتمعوا في الطريق فعرضوا توقيعاتهم ، فسار الأخير منهم وعاد الباقيون يطلبون ما خدمهم به أولاده ، فقبل فيه :

وزبر قد تكامل في الرقاعة يولى ثم يعزل بعد ساعه
إذا أهل الرشا اجتمعوا لديه نخير القوم أو فرهم بضاعه
وليس يلام في هذا بحال لأن الشيخ أفلت من مجاعه

ثم زاد الأمر حتى تحكّم أصحابه فكانوا يطلقون الأموال ويفسدون الأحوال ، فانحلت القواعد وخبثت النيات واشتغل الخليفة بعزل وزرائه والقبض عليهم ، والرجوع إلى قول النساء والخدم ، والتصرف على مقتضى آرائهن فخرجت الممالك وطمع العمال في الأطراف .

استوزر المقتدر غير هذين الوزيرين وزراء آخرين ، اشتهر منهم على ابن عيسى ، وكان رجلا متدينا عارفا بالاعمال حافظا للأموال بعيدا عن

التبذل والهزل ، ولكن السعاية عملت عملها ولم تتركه حكومة النساء هادىء
البال ، فغضب عليه الخليفة وقبض عليه وأعاد ابن الفرات الى الوزارة ،
ولكن عزل وتولى أمرها غيره ، وكان أبو علي بن مقله من الذين تولوا
الوزارة فى ذلك العهد ، وكما كانت له يد ماهرة فى الكتابة حتى ضرب بها
المثل كانت ماهرة فى أخذ الرشا على التولية والعزل ، واستمر الخليفة يغير
ويبدل فى الوزراء حتى تولى الوزارة فى عهده اثنا عشر وزيرا ، « وكانت
الوزارة تنال بالرشوة ودخل فى أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية ،
ولم يكن الصالح منهم يبقى فى العمل كثيرا لأن مدار طول المدة كان على
رضا ام المقتدر وقهر مائه وخدم الدار ، وهؤلاء لا يرضون الا إذا حوبوا
بالأموال الكثيرة التى تفسد بها الثروة وتحتل موازنتها ، فمضى حصل
التقصير فى ذلك وقدم رجل آخر رشوة فسرعان ما يقبض على الأول
ويصادر ويعين الثانى ، وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت حرمتها ،
حتى لم يكن لها فى نظر العامة ولا فى نظر متغلبى الأطراف حرمة . »

أمر القرامطة فى زمن المقتدر :

ازداد نفوذ القرامطة فى عهد المقتدر ، وعملوا على الاخلال بالأمن فى
العراق والحجاز ، وكان زعيمهم بالبحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى
قد استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر البلاد ، ولما قتل فى
سنة ٣٠١ هـ تولى الأمر بعده ابنه أبو طاهر سليمان الجنابى وقد حاول
الاستيلاء على البصرة وغزاها غزوات متتالية ، ودخلها فى سنة ٣١١ هـ ،
وقتل حاميتها ووضع السيف فى أهلها ، ثم خرج منها وتوجه الى طريق
الحاج ليلتقى بالحجاج عند رجوعهم الى مكة ، وقابلهم ونهب ما كان عندهم ،
وأسر عددا كبيرا وترك الباقي ، فمات أكثرهم جوعا وعطشا من حر

الشمس ، فغضب أهل بغداد غضبا شديدا عند ما علموا بالخبر وهاجوا
وتناولوا على الخليفة ووزيره ، واضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر
يطلب منه أن يطلق من عنده من اسرى الحاج فأطلقهم ، وطلب ولاية
البصرة والأهواز فلم يجبه المقتدر ، وأرسل الى جعفر بن ورقاء الشيباني
عامل الكوفة لمقابلة القرمطي ومحاربتة ، فخرج إليه ولكن غلب على أمره ،
ودخل أبو طاهر الكوفة وأقام بها ستة أيام وحمل منها ما قدر على حمله من
الأموال والثياب . ثم عاد إلى هجر ، وفي سنة ٣١٥ هـ أرسل الخليفة قائدا
آخر لمحاربة أبي طاهر ولكن غلب على أمره أيضا ، وانتصر القرامطة
وهددوا بغداد وما حولها من البلدان والمدائن ، واستولوا على مدينة الأنبار
وخضعت لزعيمهم الجزيرة ثم عاد إلى الكوفة وزاد عدد أنصاره ودخل
خلق كثير في مذهب القرامطة بسبب تلك الانتصارات ، وفي سنة ٣١٧ هـ
سار أبو طاهر إلى مكة في موسم الحج ونهب وسلب أموال الحجاج وقتل
من في المسجد الحرام ، وقلع الحجر الأسود وحمله إلى هجر ، وأخذ كسوة
البيت وقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة ،

يقول الخضرى بك : « ولم يحصل في التاريخ ان اتهمت حرمة هذا
البيت الى هذا الحد حتى أن المهدي عبيد الله العلوي لما علم ذلك كتب إلى
أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقم عليه القيامة ، ويقول ، قد
حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والاحاد بما فعلت ، وإن لم
ترد على أهالي مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر
الأسود الى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا برى منك في الدنيا والآخرة .
فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود ، واستعاد ما أمكنه من
أموال أهل مكة فردده وقال : إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال
الحجاج ولا أقدر على منعهم . »

علاقة المقتدر بالدولة البوزنطية :

انتهز الروم فرصة اضطراب الأحوال في الدولة العباسية بسبب ضعف الخليفة وأغاروا على أطرافها إغارات متتالية ، فأغاروا عليها سنة ٣٠٣ هـ وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه ، وفي سنة ٣٠٥ هـ حصل فداء بين المسلمين والروم اجابة لطلب زوا ملكة الروم التي أرسلت إلى بغداد رسولين فأكرم المقتدر وفادتهما اكراما كبيرا ، وسير مؤنسا الخادم ليحضر الفداء وجعله أميرا على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج منه ، ولكن لم يدم الصفاء طويلا بين الدولتين ، وفي سنة ٣١٣ هـ ، طلب ملك الروم إلى أهل الثغور الاسلامية أن يحملوا الخراج اليه ، ولما رفضوا خرج اليهم في السنة التالية ودخل ملطية وخرّب دورها وسلب أموال أهلها ، وفي سنة ٣١٥ هـ ، اغار الروم على مدينة ديبيل وهي قاعدة ارمينية ، وقابلهم المسلمون ودافعوا عن أوطانهم دفاعا مجيدا ، ونجحوا في صد الروم واتخذ المسلمون خطة المهجوم بعد ذلك بربع سنوات ، وغزوا بلاد الروم وهددوا عمورية وانقرة ، وكان قائدهم يسمى ثمل ، وكان من غلمان المقتدر ووالى الثغور ، وقد اشتهر بالشجاعة والاقدام ، واليه يرجع الفضل في استعادة هيبة الدولة في آسيا الصغرى

الشغب في بغداد وقتل المقتدر :

اشتهر رجلان من قواد المقتدر وهما مؤنس المظفر ، وكان القائد العام للجيش ، ومحمد بن ياقوت وكان ينافس مؤنسا في جاهه ومرتبته ، وفي سنة ٣١٧ هـ ، اجتمع بعض رجال الدولة وتآمروا على خلع المقتدر ،

وخلعوه، وأعلنوا انضمامهم إلى القاهر أخيه، ولكن مؤنسا تغلب على المتآمرين وأعاد الخليفة إلى عرشه، وغضب مؤنس بعد ذلك بسبب دسائس الحسن بن القاسم وزير المقتدر وقتئذ، وخرج إلى بلاد الموصل واستولى عليها بعد أن انتزعها من يد أمراءها بني حمدان، وقوى نفوذه في تلك البلاد، وزاد عدد أنصاره وجنوده. وساءت الأحوال في بغداد فاستدعاه الخليفة ليعاونه في إدارة الشؤون، فلبى مؤنس الطلب ورجع إلى العاصمة، ولكن قبل أن يصلها تغير قلب الخليفة عليه، وخرج لمحاربتة هو ومن معه فانتصر مؤنس وقتل الخليفة في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ، وكان مؤنس في الراشدية لم يشهد الحرب، فلما حمل رأس المقتدر إليه بكى ولطم وجهه ورأسه وقال: يامفسدون ما هكذا أوصيتكم. ثم تقدم إلى الشامية وانفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب. يقول ابن الأثير:

« وكان ما فعله مؤنس سببا لجرأة الأطراف على الخلفاء وطمعهم فيما لم يكن يخطر لهم على بال، وانحرفت الهيبة وضعف أمر الخلافة، حتى صار الأمر إلى ما نحكيه. على أن المقتدر أهمل من أحوال الخلافة كثيرا وحكم فيها النساء والخدم وفرط في الأموال وعزل الوزراء وولى ما أوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب وخروجهم عن الطاعة، وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيرا وتضييعا في غير وجه نيفا وسبعين الف دينار سوى ما أنفق في الوجوه الواجبة، وإذا اعتبرت أحوال الخلافة في أيامه وأيام أخيه المكتفى ووالده المعتضد رأيت بينهم تفاوتاً بعيداً. »

يقول موير: « قد جر حكم هذا الخليفة البائس الطويل الخلافة إلى أحط الدرجات، وكان الخليفة في بغداد العوبة في أيدي الحرس الأجنبي

وكانت النساء لها الكلمة العليا في شؤون الدولة، وأصبح العرش موضع سخرية في الداخل، وهدفا لطمع المغيرين من الخارج، ولم تعد بغداد المدينة القادرة على صد هجمات المغيرين بل تدهورت الأخلاق فيها ولعبت الدسائس والاضطرابات فيها دورا خطيرا .»

٢ — أبو منصور محمد القاهر

(٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) (٩٣٢ — ٩٣٤ م)

اعتلى عرش الخلافة أبو منصور محمد بن المعتضد بعد قتل أخيه، وتلقب بالقاهر بالله، وكان مؤنس يرى اجلاس ابن المقتدر على العرش بعد أبيه، ولكن كبار رجال الدولة أرادوا أن يروا رجلا كاملا على العرش، يدبر نفسه ويدبر أمر الرعية، فأجمعوا رأيهم على انتخاب القاهر وبايعوه، واستقرت له الخلافة، وبايعه الناس واستوزر أبا علي بن مقله، واستحجب علي بن بليق، وقد ساءت أحوال الدولة في عهده، وطار دال القاهر رجال المقتدر مطاردة عنيفة، وصادر أملاكهم، وعامل والدة المقتدر ونساءه وأهل بيته معاملة قاسية، وأخذ منهم الأموال وسلبهم المتاع، وقرب إليه محمد بن ياقوت منافس مؤنس، فغضب القوم ودبروا مؤامرة لخلعه، ولكن الخليفة علم بخبر تلك المؤامرة وقبض على رؤساء المتآمرين ومنهم مؤنس وأمر بقتلهم فقتلوا جميعا، واستمر القاهر في شدته وقسوته حتى أغضب الجميع، ونجح ابن مقله في اكتساب قواد الجند الى جانبه، وأراد الخلاص من الخليفة، فاتفق مع القواد على خلعه، ودخلوا عليه ذات ليلة وكان مخمورا وطلبوا اليه التنازل عن العرش، ولما امتنع قبضوا عليه وسموا عينيه وسجنوه، فانتهت مدة خلافته في أوائل جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ بعد أن حكم سنة وستة اشهر وثمانية أيام.

٣ — أبو العباس أحمد بن المقتدر الراضى

(٣٢٢ — ٥٣٢٩) (٩٣٤ — ١٠٩٤٠ م)

ولد أبو العباس أحمد بن المقتدر فى سنة ٢٩٧ هـ، وبويع بالخلافة بعد خلع القاهر فى ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ، وأعلى العرش وتلقب بالراضى، وقد أخرج القواد من السجن وباعوه بالخلافة، وقد ازدادت الحالة اضطرابا فى عهده وضعفت الخلافة العباسية ضعفا كبيرا، وتضاءلت قوة الخليفة حتى أصبحت لا تتعدى بغداد وما جاورها من البلدان القريبة وانتهز حكام الأقاليم والولاة فرصة هذا الضعف والاضطراب، ووسعوا سلطانهم، وقووا نفوذهم، واستقلوا بأماراتهم، وبعد أن كان لقب أمير المؤمنين مقصورا على خلفاء الدولة العباسية أصبح حكام الأندلس من الأمويين يطمعون فى نيل هذا اللقب الرفيع، وأعلن عبد الرحمن الناصر الأموى نفسه أميرا للمؤمنين فى بلاد الأندلس وشمال أفريقيا، ونشطت الدولة العبيدية فى بلاد المغرب، وزحفت نحو مصر تحاول الاستيلاء عليها وظهر بنوبويه فى بلاد الديلم واستولوا على كثير من بلاد الجبال والأهواز، وهدد الروم الثغور الإسلامية وغزوا البلاد واقتطعوها من أيدي المسلمين استوزر الراضى ابن مقله، واستحجب محمد بن ياقوت فكان لهما الحل والعقد فى أمور الدولة، ولكنهما ما لبثا أن تنافسا، وأوقع ابن مقله بمحمد بن ياقوت وبأخيه المظفر، فقبض الخليفة عليهما وأودعهما السجن فمات محمد بن ياقوت فى السجن، ثم عفا عن أخيه بعد ذلك وأطلق سراحه، فأخذ يدس لابن مقله حتى غير قلب الخليفة عليه، وتمكن من القبض عليه وسجنه وصادر أملاكه، واضطربت الأحوال وازدادت سوءا، وقلت الأموال

وخلت الخزينة العامة، وهاج الجند، وقطع محمد بن رائق والى البصرة ما كان يرسله إلى بغداد من الأموال وتبعه البريدى والى الأهواز، وعظم أمر ابن بويه فى بلاد فارس، ورأى الخليفة أن يخرج من المأزق، فبعث الى ابن رائق يعرض عليه ولاية بغداد فأجاب الطلب وحضر الى بغداد، وقلده الراضى الولاية ولقبه بأمر الامراء، «وولاه الخراج والمعاون فى جميع البلاد والدواوين، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر، وأنفذ اليه الخلع، فانتقل السلطان ببغداد اليه، ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من الأمور، وإنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها، وكذلك كل من تولى إمرة الامراء بعده، وصارت الأموال تحمل الى خزائنها فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون، وبطلت بيوت الأموال، وتغاب أصحاب الاطراف وزالت عنهم الطاعة، ولم يبق للخليفة غير بغداد واعمالها، والحكم فيها جميعها لابن رائق، ليس للخليفة حكم.»

المنافسة بين ابن رائق والبريدى :

ازداد نفوذ أبى عبد الله البريدى فى بلاد الأهواز، واستفحل أمره فى تلك الجهات، فحقد عليه ابن رائق وأرسل جندا لقتاله فى الأهواز، واختار لقيادتها قائدين من أمهر قواد الدولة، وهما بدر الخرشنى وبجكم الديلى، وسار بجكم ومن معه لقتال البريدى وأخيه أبى يوسف البريدى الذى كان واليا على البصرة، ونجح بجكم فى الاستيلاء على معقل البريدى فى الأهواز فسار البريدى الى الأبله وانضم اليه أعيان البصرة، وقاوم قوات الدولة مقاومة عنيفة، فخرج اليه ابن رائق بنفسه ووصل الى مدينة واسط، وطلب الى بجكم أن يلحق به فجاءه، ولكن البريدى ومن معه تغلبوا عليهما

وانتصروا على رجالهما ، وكتب البريدى إلى أمير آل بويه المسمى عماد الدولة يطلب معاونته وأطمعه في العراق والاستيلاء عليه ، فسير معه أخاه معز الدولة وحارب بحكمه استرد بلاد الأهواز ، ورجع بحكم إلى مدينة واسط

المنافسة بين بحكم وابن رائق :

ضعف نفوذ ابن رائق في بغداد ومنع عنه بحكم الأموال التي كان يرسلها من واسط ، وفعلت الدسائس فعلها في دار الخلافة ، وتمكن ابن مقله من تغيير قلب الخليفة على أمير الأمراء ، وحسن له إقامة بحكم في إمارة الأمراء مكانه ، وقبل الخليفة الفسكرة ، فكتب ابن مقله إلى بحكم بما استقر عليه الأمر فترك واسط وأتى إلى بغداد ، وفي منتصف ذى القعدة سنة ٣٢٦ هـ ، دخل العاصمة بعد الانتصار على ابن رائق وجنده ، واختفى ابن رائق ، وأقام الخليفة بحكم أميراً للأمراء مكانه وخلع عليه ، وفي أوائل سنة ٣٢٧ هـ ، ثار على الدولة أمير بني حمدان ببلاد الموصل ومنع الأموال التي كان يرسلها إلى دار الخلافة ، فخرج إليه الراضى وبحكم وتركا بغداد ، فأنهز ابن رائق تلك الفرصة وظهر من مخبأه واستولى على بغداد ، فأسرع الخليفة وأميره بالعودة إليها بعد أن صالحا ناصر الدولة ابن حمدان ، ولما قربا من العاصمة طلب ابن رائق الصلح فأجيب إلى طلبه ، وعين واليا على سورية والشمال ، وقلد طريق الفرات وديار مضر والرها وجند قنسرين والعوامم

قيام الدولة الأخشيدية بمصر :

اضطربت الأحوال في مصر بعد سقوط حكم الطولونيين منها ، وعادت ولاية تابعة للخلفاء كما كانت من قبل ، ولكن الخلفاء لم يستطيعوا بسط

نفوذهم فيها لضعفهم، فصار جنود الأتراك يسيرون أمورها، وكانت الجيوش التي ترسل لتوطيد النظام هي صاحبة النفوذ المطلق فعمت الفوضى وتخرج الموقف، وأخذ الفاطميون يهددون سلامة البلاد، وأغاروا عليها المرة بعد الأخرى، وفي زمن المعتضد تعين محمد بن طغج الأخشيد وهو من أسرة ملوك فرغانة القدماء الذين أطلق عليهم اسم الأخشيد، وفي عصر الراضى تولى محمد الأخشيد إدارة الشؤون في مصر، فأعاد الأمن إلى نصابه، وأخرج الفاطميين من الاسكندرية، فعظم نفوذه وأصبح شبه أمير مستقل في مصر، ولما تولى ابن رائق أمر سورية والشام زحف على حمص ودمشق، وأخرج منهما قوات محمد الأخشيد، واضطر الأخشيد لمصالحته وتنازل له عن الجزء الشمالى من بلاد الشام، ولما مات ابن رائق استرد الأخشيد ما فقدته فعظم نفوذه، وولاه الخليفة حكم مكة المدينة، وتمكن من جعل الحكم وراثيا في أسرته وأخذ البيعة لابنه واستدرت أسرته تحكم مصر وتوابعها حتى سنة ٣٥٨ هـ، ٩٦٩ م، وفي تلك السنة كان الفاطميون قد ازدادوا شوكة ونفوذا واتسع سلطانهم، وأغاروا على الصعيد، وتمكن جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى من الدخول إلى عاصمة البلاد وقضى على ملك الأخشيديين بعد أن استمر ٣٤ سنة، واشتهر من هؤلاء الأخشديين غير أولهم أبو المسك كافور مولى الأخشيد (٣٥٥ - ٣٥٧ هـ) وكان آخرهم أبو الفوارس أحمد ابن على الأخشيد

قيام الدولة البويهية:

استفحل أمر آل بويه أمراء الديلم في أثناء خلافة الراضى، وازداد نفوذهم في المشرق، وأصبحوا مصدر خطر عظيم يهدد كيان الخلافة

العباسية ، وعظم جاههم واتسع سلطانهم حتى استولوا على بغداد في خلافة المكتفى في شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ كما سنين بعد ، وقد قام هؤلاء الأمراء في بلاد الديلم ، وهى بلاد واقعة في الجنوب الغربى من شاطئ بحر الخزر ، ولقد كانت قديما احدى الايالات الفارسية ودخلت في حوزة المسلمين في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وخضع الديلم للحكم الاسلامى مع بقائهم على وثنياتهم ، وظلوا كذلك حتى أسلم منهم خلق كثير على يد الحسن بن على الملقب بالأطروش ، الذى أقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام ، فاجتمعوا عليه وبنى في بلادهم المساجد وازدادت بهم شوكته ، واستولى على طبرستان وجرجان بمعاونة رئيسين من رؤساء الديلم وهما ليلى بن النعمان و « ما كان بن كالى » ، وفى سنة ٣٠٤ هـ توفى الأطروش وكان يلقب بالناصر لله ، فتولى الأمر بعده في طبرستان ولدان من أولاده وخرجت جرجان من أيديهما ، اذ استولى عليها أمراء الدولة السامانية ، وظلت تلك البلاد ميدانا للفتن والقلاقل حتى ظهر فيها أحد رؤساء الديلم المسمى مرداوىج بن زيار الجبلى وملكها ، والتفت حوله الجنود لحسن سيرته ، واتسعت رقعة ملكه ، وخضعت له الديلم ، وذهب الى همذان واستولى عليها من يد جنود الخليفة فتم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها ، وبلغت عساكره الى نواحي حلوان وهى أول حدود العراق ، ثم ملك بعد ذلك أصبهان والاهواز ، وأرسل الى المقتدر رسولا يقرر على نفسه مالا على هذه البلاد كلها فأجابه الخليفة الى ذلك ، فاستقرت قدمه وثبت نفوذه ، وقدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم وهم الحسن وعلى وأحمد أولاد بويه وكانوا قبلا من قواد « ما كان بن كالى » وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الاُسرة البويهية « التى امتلكت ناحية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الاسلامية ، وهى التى تكون الدور الثانى من أدوار الخلافة العباسية . »

يقول أبو الفداء في الجزء الثاني صحيفة ٧٨ : « كان بويه رجلا متوسط الحال من الديلم وكنيته أبو شجاع ، ولما عظمت مملكة بني بويه اشتهر نسبهم . . . وكان لبويه المذكور ثلاثة أولاد وهم عماد الدولة أبو الحسن علي ، وركن الدولة الحسين ، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد ، وكانوا في خدمة ما كان بن كالي الديلمي لا يفارقونه ، فلما رأوا ضعفه وعجزه عن مقاتلة مرداويج فارقوه ولحقوا بمرداويج ، وتبعهم في ذلك جماعة من قواد « ما كان » فأحسن اليهم ، وقلد عماد الدولة علي بن بويه كرج ، ولما استقر عماد الدولة في كرج قوى وكثر جمعه ثم قصد أصفهان وانتزعها من ابن ياقوت فعظم في عيون الناس وقويت هيئته ، وأقام بأصفهان شهرين وجي أموالها وارتحل عنها إلى أرجان واستولى عليها في ذى الحجة سنة عشرين وثلثمائة ، ثم سار إلى النوبندجان واستولى عليها في ربيع الآخر من سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، ثم أرسل أخاه ركن الدولة إلى كازرون وغيرها من أعمال فارس فاستخرج أموالها »

ثبت ملك عماد الدولة أبي الحسن علي بن بويه ، وأرسل إلى الرازي وإلى وزيره ابن مقلة يعرفها أنه على الطاعة ، ويطلب أن يقاطع على ما يده من البلاد وبذل ألف ألف درهم فأجيب إلى ذلك ، وأنفذت إليه الخلع واللواء ، وقد غضب مرداويج لما ناله ابن بويه من الحظوة عند الخليفة وهب لمقاتلته وانتصر عليه في شوال سنة ٣٢٢ هـ ، ثم تصالحا على أن يخطب ابن بويه لمرداويج وأهدى له هدية جميلة وأنفذ له أخاه الحسن رهينة وفي سنة ٣٢٣ هـ ، تمرد بعض جند الأتراك في جيش مرداويج وقتلوه فتخلص ابن بويه من شره ، وخلا له الجو في تلك الاضطجاج ، وتخلص الحسن بن بويه من الأسر وسار إلى أخيه بفارس ، وأصبحت بلاد المشرق تخضع لثلاث قوات فكان آل بويه في فارس ، والسامانيون في

خراسان وما وراء النهر ، وشمكير بن شيرويه أخو مرداويج في بلاد الري ، وكانت القوة النامية بينها هي قوة آل بويه ، فقد استطاع الحسن بن بويه أن ينزع من وشمكير البلاد التي كانت معه ، وخطر ببال علي بن بويه أن يمد سلطانه إلى الأهواز والعراق لما علمه من ضعف قوة الخليفة ، فأرسل أخاه الأصغر أحمد إليها . وحارب بحكم وانتصر عليه بجمه واسط ، واستولى على الأهواز ، ثم استعد آل بويه لازحف على العراق وبينما هم يجهزون انفسهم كاتب قواد الخليفة ببغداد أحمد بن بويه يطلبون اليه المسير للاستيلاء على بغداد ، فسار إليها ووصلها في ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ والخليفة بها هو المكتفى بالله

فتنة الحنابلة ببغداد في أيام الراضى :

ظهرت المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة في أوئل حكم الراضى وقويت شوكة الحنابلة وازداد نفوذهم واستعانوا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد ، وكانوا إذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعضهم حتى يكاد يموت ، ويقول أبو الفداء : « عظم أمر الحنابلة على الناس وساروا يكبسون دور القواد والعامه فان وجدوا نبيذا اراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا في البيع والشراء وفي مشى الرجال مع الصبيان ونحو ذلك ، فهام صاحب الشرطة عن ذلك ، وأمر أن لا يصلى منهم امام إلا اذا جهر بيسم الله الرحمن الرحيم فلم يفد فيهم ، فكتب الراضى توقيعا ينهاهم فيه ويونجهم باعتقاد التشبيه ، فنه انكم تارة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين ، وهيتكم على هيئته وتذكرون له الشعر القطط والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا ، وعدد فيه قبائح مذهبهم ، وفي آخره أن أمير

المؤمنين يقسم بالله قسما جهدا يلزمه الوفاء به لأن لم تنتهوا عن مذموم
مذهبكم ومعوج طريقكم ، ليوستنكم ضربا وقتلا وتبيدا ، وليستعملن
السيف في رقابكم ، والنار في منازلكم ومالككم »
وقد أحدثت هذه الفتنة في البلاد اضطرابا كان له أسوأ العواقب في
قوة الدولة العباسية

وفاة الراضى واخلاقه :

في منتصف ربيع الأول من سنة ٣٢٩ هـ مات الراضى بالله ، وكانت
خلافته ست سنين وعشرة أيام ، وكان أدبيا مشاعرا فن شعره الرقيق
يصفر وجهى إذا تأمله طرفى فيحمر وجهه خجلا
حتى كأن الذى بوجنته من دم وجهى اليه قد نقل
« وكان الراضى سخيا يحب الأدياء والفضلاء ، وهو آخر خليفة له
شعر يدون ، وآخر خليفة خطب كثيرا على منبر ، وكان آخر خليفة جالس
الجلساء ، وآخر خليفة كانت نفقته وجرأياته وخزائنه ومطالبه وأموره على
ترتيب الخلفاء المتقدمين . »

٤ — ابراهيم المتقى لله

(٣٢٩ — ٥٣٣٣) (٩٤٠ — ٩٤٤ م)

تولى ابراهيم بن المعتمد بن أحمد الموفق عرش الخلافة بعد موت الراضى
وتلقب بالمتقى بالله ، وكان الفضل في اختياره لكرسى الخلافة لبجكم ، وكان
بواسطة عند وفاة الراضى فأرسل وزيره أبا عبد الله الكوفى الى بغداد وأمره
أن يجمع وجوه الدولة ويختاروا الخليفة ، فاجتمعوا وانفقوا على انتخاب
ابراهيم بن المقتدر بالله وبايعوا له ، وسير الخلع واللواء الى بجم وهو بواسطة

وقد استأثر بحكم بالنفوذ والسلطان في الدولة، وكان يعاضده في ادارة الشؤون وزيره الكوفي، ولكن حوادث تلك السنة انتهت بقتل بحكم، فقد قتله جماعة من الاكراد وكان قد خرج للصيد وهو في طريقه الى واسط بعد أن انتصر على عبد الله البريدي، ففرح البريدي لخبر القتل وسار الى بغداد. وفي شهر رمضان سنة ٣٢٩ هـ دخلها وأدار الشؤون بها أياما، ثم ثار العامة في وجهه وأخرجوه منها لسوء سيرته، وتولى الأمر فيها بعده أحد قواد الديلم المسمى كورتكين، وولاه المتقى منصب أمير الأمراء وخلع عليه

رجوع ابن رائق الى بغداد وقتله:

اضطربت الامور في عاصمة الخلافة بسبب اعتداءات جند الديلم على الاهالي، وكان كورتكين ضعيفا فلم يستطع القبض على ناصية الحال، فرأى المتقى أن يطلب من ابن رائق العودة الى بغداد، فأرسل في طلبه فلبى الدعوة واستخلف على الشام أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل، ولما وصل الى بغداد قاتل كورتكين وانتصر عليه وسجنه، فولاه الخليفة منصب إمرة الأمراء ببغداد، ولكنه لم يبق في منصبه طويلا، إذ أسرع البريدي وأرسل جندا في الدجلة للاستيلاء على بغداد ولم يلق مقاومة كبيرة، ودخل المدينة، وهرب المتقى وابنه وابن رائق الى الموصل يطلبون النجدة من أمير حمدان وقد ارتكب البريدي ورجاله في بغداد أمورا أغضبت الاهالي غضبا شديدا، وقد انتهز ناصر الدولة أمير حمدان هذه الفرصة وطمع في منصب إمرة الأمراء، واغتال ابن رائق وتولى منصبه في شعبان ٣٣٩ هـ

استعد ناصر الدولة بعد ذلك للزحف على بغداد، وخرج اليها ومعه المتقى، وقد دخل المتقى بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة، وهرب عنها ابو الحسين ابن البريدي، وسار الى واسط بعد أن أقام ببغداد نحو أربعة

شهور، ثم خرج بنو حمدان يزحفون الى واسط للقضاء على نفوذ البريدي فيها، فأقام ناصر الدولة في المدائن وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدي وتمكن من الاستيلاء على واسط بعد معارك دموية، ثم حصل شقاق بين الأخوين فترك ناصر الدولة بغداد بعد أن مكث بها نحو ثلاثة عشر شهرا، ورجع الى بلاد الموصل، وخلت وظيفة إمرة الأمراء

توزون أمير الأمراء:

كان أكبر قواد الديلم في ذلك الوقت هو توزون، فلما خلا منصب إمرة الأمراء ولاه المتقى هذا المنصب الخطير، فسار فيه سيرة رديئة، وتحكم في أمور الدولة، وخاف المتقى العواقب فخرج من بغداد الى بلاد الموصل للاستنجاد بأمراء حمدان، وقابله سيف الدولة بتكريت وانضم اليه ناصر الدولة، وزحف توزون لقتال بني حمدان وانتصر عليهم ومعهم الخليفة فتركوا الموصل وذهبوا الى الرقة وأقاموا بها، وكتب المتقى الى الاخشيدي صاحب مصر يشكو اليه حاله وما هو فيه، فسار الاخشيدي من مصر الى حلب ثم الى الرقة واجتمع بالمتقى وحمل اليه الهدايا، وطلب الى الخليفة أن يسير معه الى مصر فامتنع، وكاتب توزون في أمر الصلح فقبل، وأقسم للخليفة الا يغدر به فاغتر المتقى بتلك الوعود ورجع الى بغداد

خلع المتقى:

نكث توزون بعهدة وقابل الخليفة في السندية ووكل عليه حتى أنزله في مضربه، ثم قبض عليه وسمله وأعمى عينيه، ثم خلعه فاتتهت خلافته، وأقام توزون مكانه في اليوم نفسه أخاه الذي تلقب بالمستكفي بالله، وكان ذلك في شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ، وانتهى بخلعه عصر نفوذ الأتراك وعلا نجم آل بويه

البُحْبُوحُ العَشْرَةُ

عصر نفوذ آل بويه

(٣٢٤ - ٤٤٧) هـ (٩٤٦ - ١٠٥٥) م

انتهت خلافة المتقي بخلعه، وأحضر توزون أخاه أبا القاسم عبد الله وأجلسه على العرش، وتلقب بالمستكفي بالله. وكانت مدة خلافته قصيرة، فإنه جلس على العرش سنة واحدة وأربعة شهور، وكان مغلوباً على أمره. اذ كان الأمر كله بيد توزون أمير الأمراء، وكان الخليفة ضعيفاً لا يستطيع أن يرد لأمر أمراءه رأياً أو ينقض أمراً، بل يخرج في ركابه إذا ما سار لمحاربة الثوار والخارجين على الدولة، ويجمع معه إلى مقر الملك إذا ما فرغ من قتاله، فوصلت الخلافة في عهده إلى درجة خطيرة من الانحطاط، وفي شهر المحرم سنة ٣٣٤ هـ مات توزون ببغداد فعقد الأجناد لابن شيرزاد أحد قوادهم الأمراء عليهم، وكان بعيداً عن العاصمة فحضر إلى بغداد مستهلاً صفر، وأرسل إلى المستكفي فاستحلفه فخلف له بحضرة القضاة وولاه إمرة الأمراء.

استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد:

سأت الأحوال في بغداد إلى درجة كبيرة. وحاصرها الأعداء من كل جهة، وقطعوا عنها المؤن والأقوات، وشعر الناس بألم الجوع فأكلوا الكلاب والقطط، ونهبوا البيوت والمخازن، وهاجر معظم السكان إلى

البصرة والى غيرها من المدن الاقليمية، وشعر أبو جعفر بن شيرزاد امير
الأمراء بخرج الموقف وخطورة الحال، فأرسل يطلب النجدة من ناصر
الدولة أمير بنى حمدان وكان بالموصل ويعرض عليه منصبه، ولكن ناصر
الدولة كان إذ ذاك مشغولاً بمحاربة الروس الذين أغاروا على أذربيجان،
وكانت باقى قواته تحارب الاخشيديين فى بلاد الشام فلم يستطع تقديم
المعونة، وازدادت الحال تحرجاً بسقوط مدينة واسط فى أيدي أحمد
ابن بويه وانضمام الجيوش التى كانت بها اليه، وكاتيه رؤساء الجند ببغداد
يطلبون اليه الزحف على بغداد والاستيلاء عليها فإسار نحوها، ولما قرب
منها هرب الخليفة وأمير أمرائه، وتشقت شمل الجنود التركية وفر معظمهم
إلى بلاد الموصل، وقدم الحسن بن محمد المهلبى من رجال معز الدولة إلى
بغداد، فظهر المستكفى واجتمع به، وأظهر السرور بقدم معز الدولة،
وأعلمه أنه انما استتر خوفاً من الأتراك، فلما ساروا بعيداً عن بغداد ظهر.
ثم وصل معز الدولة إلى بغداد ثانياً عشر جمادى الأولى من ٥٣٣٤هـ واجتمع
بالمستكفى وبايعه، وحلف له المستكفى وخلع عليه ولقبه فى ذلك اليوم
بمعز الدولة، وأمر أن تضرب القاب بنى بويه على الدنانير والدرهم، ونزل
معز الدولة بدار مؤنس، وأنزل أصحابه فى دور الناس فلحق الناس من ذلك
شدة عظيمة، ورتب معز الدولة للمستكفى كل يوم خمسة آلاف درهم
يتسلمها كاتبه لنفقات الخليفة.

زال ما كان باقياً من النفوذ للخليفة العباسى فى الدولة الاسلامية
باستيلاء آل بويه على بغداد، وأصبحوا من ذلك اليوم أصحاب السيطرة
والسلطان فى أمور الدولة، فكان مثلهم فيها مثل أمراء الكرويين مع
ملوك المروفتجيان بفرنسا، وكان مثل معز الدولة فى إدارة شئون الدولة

العباسية مثل شارل مارتل في السيطرة على أموال فرنسا في عصره ، وقد استمروا اسيادا على بغداد والعراق نحو قرن من الزمن ، وتمكنوا في اثنائه من القضاء على سلطان الاثراك ونفوذهم ، وطردهوا بني حمدان من الموصل ، وحكموا الجزيرة والعراق العربي وغربي بلاد العجم حكما فعليا

خلع المكتفى وخلافة المطيع :

لم يمكث المكتفى في الخلافة بعد استيلاء معز الدولة على بغداد إلا أربعين يوما و خلع ، لأن معز الدولة إتهمه بدس الدسائس له وبالتدبير عليه ، وقال أبو الفداء عن صورة خلعه ما يأتي : « أن معز الدولة وعسكره والناس حضروا إلى دار الخليفة بسبب وصول رسول صاحب خراسان ، فأجلس الخليفة معز الدولة على كرسي ثم حضر رجلان من نقباء الديلم وتناولوا يد المكتفى بالله ، فظن أنهما يريدان تقييلها فجنباها عن سريره ، وجعلا عمامة في عنقه ، ونهض معز الدولة ، فاضطرب الناس ، وساق الديليمان المكتفى ماشيا إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت الخلافة حتى لم يبق بها شيء »

آلت الخلافة بعد المكتفى إلى ابن عمه الفضل ، فاعتلى عرشها وتلقب بالمطيع بالله ، وظل في كرسي الخلافة نحو تسعة وعشرين عاما ونصف عام (٣٣٤ — ٣٦٣) هـ ، ولم يزل خليفة إلى أن خاع في منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ أغسطس سنة ٩٧٤ م ، ولم يكن له من الأمر شيء بل كان النفوذ في عصره للبلوك من آل بويه ولما تقلد أمر الخلافة سلبه معز الدولة المكتفى الخليفة المخلوع فسمل عينيه وسجنه ، وظل ذلك الخليفة البائس مسجوننا حتى مات

نفوذ معز الدولة وإدارته :

إستأثر معز الدولة بالنفوذ والسلطان في كل مظهر من مظاهر الحياة في الخلافة العباسية . فكان له الأمر والنهي وعلى الخليفة السمع والطاعة ، وقد خطر بباله أن ينقل الخلافة من بني العباس الى العلويين لتشبعه بالآراء الشيعية ، وكان هو وآل بيته يعتقدون أن بني العباس قد غضبوا الخلافة وأخذوها من العلويين اذ تلقوا المبادئ الاسلامية على يد الحسن بن زيد والحسن الاطروش وكلاهما زيدي ومن غلاة الشيعة

ولكن أصدقاء معز الدولة وخواصه اشاروا عليه ببقاء الخلافة في بني العباس حتى يظل متمتعا بالجاه والسلطان ، فانصرف عن الفكرة متبعاً نصيحة الناصحين ، وابقى اسم الخلافة للعباسيين وانفرد هو بالسلطان ، وفي عصره ازداد نفوذ الجند واعتدوا على الثروات الفردية وانتزعوها من أيدي أصحابها ، واقطع معز الدولة قواده وأصحابه القرى جميعها ، فظلموا الناس ، واهملت الزراعة ، وقضى نظام الاقطاعات على رخاء العراق ، وضعفت هممة الفلاحين ، فلم يقوموا بزراعة الارض واصلاحها وتنمية مواردها كما كانوا يفعلون في العهود التي مضت ، وانتشرت في البلاد الفتن وقامت الاضطرابات بسبب المنافسات والمنازعات بين جند الأتراك وجند الديلم ، وبسبب الاختلافات الدينية التي تأججت ناراها بيغداد وماجاورها من بلاد العراق ، فقد كان أهل تلك الجهات قبل قيام الدولة البويهية على مذهب السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون أبا بكر وعمر على سائرهم ، ولا يقدرحون في معاوية ولا غيره من سلف

المسلمين ، فلما أصبح النفوذ لآل بويه وكانوا من غلاة الشيعة كبر شان الشيعة في البلاد ونما مذهبهم ، وعاضدتهم الحكومة في آرائهم ، وفي سنة ٣٥٢ هـ أمر معز الدولة الناس أن يحتفلوا في عاشر المحرم بذكرى قتل الحسين ، فاعلقت الحوانيت وأبطلت الاسواق ، ووقفت حركة البيع والشراء ، وخرجت النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه ، يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي رضي الله عنه ، وفي ثامن عشر ذى الحجة أمر باظهار الزينة في البلد ليلا ونهارا احتفالا بعيد الغدير ، والغدير هو الموضع الذي يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه عن عليّ « من كنت مولاه فعلىّ مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »

يقول الخضرى بك : « وبهذا الانقسام صارت بغداد وبلاد فارس والرى ميدانا للاضطرابات المتكررة بين العامة ، والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين ، والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر ، ومن المعلوم أن جميع العداوات يمكن تلافياها ، فيهن أمرها ماعدا مامنشؤه الدين منها ، وأعظمها شدة ما كان بين فرقتين من دين واحد . »

العلاقة بين معز الدولة وناصر الدولة بن حمدان :

يقول أبو الفداء : « في سنة أربع وثلاثين وثلثمائة سار ناصر الدولة الى بغداد ، وأرسل معز الدولة عسكريا قتاله فلم يقدروا على دفعه ، وسار ناصر الدولة من سامرا عاشر شهر رمضان الى بغداد ، وأخذ معز الدولة المطيع معه وسار الى تكريت فنهبا لأنها كانت لناصر الدولة ، وعاد معز الدولة بالخليفة إلى بغداد ونزل بالجانب الغربى ، ونزل ناصر الدولة بالجانب الشرقى ولم يخطب تلك الايام للطبيع ببغداد . وجرى بينهم ببغداد قتال كثير آخره

أن ناصر الدولة وعسكره انهزموا ، واستولى معز الدولة على الجانب الشرقى وأعيد الخليفة الى مكانه في المحرم سنة خمس و ثلاثين و ثلثمائة ، واستقر معز الدولة ببغداد وناصر الدولة بعكبرا ، ثم سار ناصر الدولة الى الموصل واستقر الصلح بين معز الدولة وناصر الدولة في ذلك الشهر .

وتجددت الحرب بين الاثنين في سنة ٣٣٧ هـ ، واستقر الأمر في النهاية على أن يؤدي ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام في كل سنة ثمانية آلاف درهم ويخطب في بلاده لاولاد بويه الثلاثة ، وقامت الحرب بين الاثنين بعد ذلك بعشر سنوات ، وانتصر معز الدولة وطرده ناصر الدولة عن أملاكه واستولى على الموصل ونصيبين ، وفي سنة ٣٤٨ هـ ، تم الصلح بين الاثنين بتدخل سيف الدولة أخى ناصر الدولة وكان أميراً على حلب لاقى معز الدولة صعوبات اخرى في الجنوب ، فقد كان بالبصرة أبو القاسم البريدى وكان يطمع بالاستقلال بها ، فخاربه معز الدولة وطرده عن البصرة ، وفي عهده ظهرت قوة جديدة زادت متاعبه ، وهي قوة عمران ابن شاهين ، فقد ظهر عمران في البطيحة ، وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة ، وأسس له ولائته ملكاً واسعاً في تلك الأضلاع دام حتى سنة ٤٠٨ هـ ، وكثيراً ما شغل جنود الدولة في حروب طويلة شاقة كان النصر فيها طورا الى جانبه وطورا الى جانب معز الدولة ورجاله

مات معز الدولة في سنة ٣٥٦ هـ وخلفه ابنه بختيار في ادارة شؤون الدولة وتلقب بعز الدولة ، وقد استمر يدير أمور الخلافة مدة ١١ سنة وكان ميالا الى معايشة النساء والمغنين ، فساءت الحال في العراق ، وكثرت الفتن ، واضمحلت البلاد . فأتتهز الروم تلك الفرصة وأغاروا على الثغور الاسلامية ، ولم يستطع سيف الدولة على بن حمدان أمير تلك الجهات أن يرد غارات هؤلاء الأعداء ، على الرغم مما بذله من الجهود العظيمة في أمر

محاربتهم، واستولى الروم على مرعش، وأوقعوا بأهل طرسوس، وفي سنة ٣٥١ هـ غزا الدمستق عين زربة وهي من أحصن مدن الثغور واستولى عليها وقتل أهلها، وفتح حولها ٥٤ حصنا للمسلمين، وفي تلك السنة استولى الروم على مدينة حلب وطردها منها سيف الدولة، وفي سنة ٣٥٤ هـ دخل الروم المصيصة وطرسوس، وبعد ذلك بأربع سنوات دخلوا الشام وأحرقوا البلاد وخربوها ونهبوا وسلبوا وسبوا كثيرا، ثم استمروا يغيرون على أملاك المسلمين ويتزعمونها من أيديهم حتى صارت لهم الهيبة في قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام « وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضا وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون »

خلع المطيع وخلافة الطائع :

مرض المطيع في أواخر أيامه ولم يعد قادرا على العمل، فأشار عليه سبكتكين مقدم الأتراك أن يعتزل العمل فوضع لتلك المشورة، وفي منتصف ذي العقدة سنة ٣٦٣ هـ خلع نفسه، وخلفه على عرش الخلافة ابنه أبو الفضل عبد الكريم وتلقب بالطائع لله (٣٦٣—٣٨١ هـ) (٩٧٤—٩٩١ م) وقد استمر خليفة سبعة عشر عاما وثمانية أشهر وستة أيام، وكان مثله مثل من سبقه من الخلفاء، لاحول له ولا قوة أمام أمراء آل بويه، غير أن أفراد تلك الأسرة الديلية قد انقسموا على انفسهم. واضطرب أمرهم في العراق ونازع بعضهم البعض في الرياسة والنفوذ، وقد ظل عز الدولة يدير الشؤون على حسب ما يشتهي حتى سنة ٣٦٧ هـ، وفي تلك السنة تغلب عليه ابن عمه عضد الدولة، وكان أميرا على الجبل والرى، وحضر الى بغداد وقبض على وزير بختيار الامير محمد بن بقية وصلبه على رأس الجسر في شوال

سنة ٣٦٧ هـ ، وهو الذى رثاه أبو الحسين الانبارى بقصيدته المشهورة
التي أولها

علو في الحياة وفي الممات لحق تلك احدى المعجزات

وقد استقر ملك عضد الدولة في العراق وما معها من ملك أبيه وعمه ،
وأخرج بنى حمدان من الموصل وتملكها ، وفي سنة ٣٧١ هـ انتزع جرجان
من واليها قابوس بن وشمكير ، « ولم يقيم في آل بويه من يماثل عضد الدولة
جرأة واقداما ، وكان عاقلا فاضلا ، حسن السياسة ، كثير الاصابة ، شديد
الهيبة . بعيد الهممة ثاقب الرأى محبا للفضائل ، واهبا باذلا في موضع العطاء ،
مانعا في مواضع الحزم ناظرا في عواقب الامور . »

وقد ظل عضد الدولة قائما بالامر حتى توفى في شوال سنة ٣٧٢ هـ ،
فاجتمع القواد وكبار الدولة وبايعوا لابنه الملقب بصمصام الدولة ، وقد
نازعه أخوه شرف الدولة الذى كان أميرا بفارس في ذلك الوقت ، وخرج
بجيشه لمحاربتة واستولى على الاهواز ، وسار إلى البصرة وملكها ، واخيرا
طلب صمصام الدولة الصلح ، فتصالح الأخوان على أن يخطب لشرف
الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة ، ثم عاد النفوذ بينهما وتغلب شرف
الدولة على أخيه وزحف على بغداد في سنة ٣٧٦ هـ ودخلها في رمضان
من تلك السنة ، وقد استمر يدير الشؤون نحو سنتين وثمانية أشهر ثم مات
في جمادى الآخرة سنة ٣٧٩ هـ ، ومن فضائله أنه منع الناس من السعيات
ولم يقبلها ، فأمن الناس وسكنوا ، وتولى أمر العراق بعده أخوه بهاء الدولة
وفي عهده حصل شقاق عظيم بين جنس الأتراك وجند الديلم ، وتغلب
الأتراك عليهم

خلع الطائع وخلافة القادر:

قلت الأموال العامة في سنة ٣٨١ هـ ، وثار الجند يطلبون ارزاقهم ، فأشار البعض على بهاء الدولة أن يصادر أموال الخليفة ، وحسن له القبض عليه ، فأخذ بالرأى وخلع الطائع وصادر املاكه وحمله إلى داره ، وانتهى حكم الطائع ، وفي عهده كانت بلاد الشام مسرحا لقتال الفاطميين والترك والقرامطة ، وتولى عرش الخلافة بعده ابن عمه أبو العباس أحمد القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) (٩٧٤ - ١٠٣١ م) ، وقد عمر طويلا في الخلافة إذ كانت مدته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما ، وفي عهده الطويل ظهرت دويلات كثيرة في أنحاء الدولة العباسية في المشرق والمغرب ، وحلت محل دويلات أخرى ، وكان لكل منها شأن عظيم في تاريخ الامة الاسلامية ، فظهرت الدولة النجاشية بمدينة زيد وقامت على انقاض الدولة الزيدية ، فقد استطاع المؤيد نجاح وكان مولى من مولى آل زياد أن يتولى ملك تهامة اليمن في سنة ٤١٢ هـ ، وينشر نفوذه على ما جاوره من الاملاك ، وظل قائما بالأمر في تلك الجهات هو ومن خلفه من أعقابه حتى سنة ٥٥٤ هـ ، وانتقل الملك عنهم إلى الدولة المهديّة وقام بالجزيرة ثلاث دول فقامت دولة في ديار ربيعة واتخذت مدينة الموصل عاصمة لها ، وكان أول أمرائها هو حسام الدولة المقلد بن المسيب ، وكان آخرهم هو علي بن مسلم بن قرواش وعلي يديه سقطت الامارة في يد السلاجقة في سنة ٤٨٩ هـ ، وقامت الدولة الثانية في ديار بكر واتخذت مدينة آمد عاصمة لها ، وكان أمراؤها من الاكراد ، واسسها أبو علي الحسن بن مروان سنة ٣٨٠ هـ ، واشتهر من أمرائها أبو نصر نصر الدولة أحمد بن مروان ، فإنه تولى

سنة ٤٠٣ هـ ، واستمر في الحكم فوق النصف قرن ، وكان حسن السيرة ، محبا للعلم والعلماء ، فقصده الشعراء والفقهاء من كافة الاقطار ، وأجزل لهم العطاء ، وكانت الثغور معه آمنة وقد بقيت هذه الدولة قائمة بعده حتى استولى عليها السلجوقيون في سنة ٤٨٩ هـ ، أما الدولة الثالثة فقد قامت في ديار مصر واتخذت مدينة الرقة عاصمة لها ، وقد أسسها بكجور وكان واليا على دمشق من قبل العزيز بالله الفاطمي ، ولما عزله عنها جاء إلى الرقة في سنة ٣٧٨ هـ ، واستولى عليها واقام لنفسه بها ملكا ، ولما قتل انتقلت تلك البلاد إلى حوزة العلويين أصحاب مصر ، أما في بلاد المشرق فقد قامت الدولة الغزنوية في ذلك العهد وكان لها شأن كبير في أواسط آسيا والهند ولذلك نذكرها بشيء من التفصيل

قيام الدولة الغزنوية :

قامت هذه الدولة بمدينة غزنة . وكانت مدينة عظيمة تقع في وسط ولاية غنية في طرف خراسان من جهة بلاد الهند ، وكانت تخضع للدولة السامانية التي حكمت بلاد خراسان ، وفي ولاية غزنة هذه ظهر قائد تركي يسمى اسحاق بن البتكين أشهر بالشجاعة والاقدام ، وقد هاجر من بخارى واستوطن الاصقاع الجبلية في بلاد الافغان ، واتخذ مدينة غزنة مركزا لاعماله ومقرا لحكومته ، ولما مات في سنة ٩٩٥ م خلفه في نفوذه صهر له يسمى سبكتكين ، وقد ورد عنه في ابن الأثير ما يلي : « لم يخلف أبو اسحاق ابن البتكين صاحب جيش غزنة للسامانية بعد وفاته من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم ، فاجتمع عسكره ونظروا فيمن يلي أمرهم ويجمع كلمتهم ، فاختلفوا ثم اتفقوا على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه ، فقدموه عليهم ، وولوه أمرهم ، وحلفوا له واطاعوه

فوليهم وأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة ، وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال ،

قوى أمر سبكتكين وغزا البلاد التي جاورتها ، ودخل بلاد الهند بعد أن اخترق جبال هندكوش ، وزحف على إقليم البنجاب ، واستولى على مدينتي بُست وقصدار ، وانتصر على ملك الهند انتصارا مينا ، فعلا شأنه وبعد صيته ، وسمع به الخليفة فأرسل إليه الهدايا وخلع عليه وعقد له اللواء ، ومنحه لقب ناصر الدولة ، فاستقام له الأمر وأصبح مركزه في البلاد التي يسودها شرعيا ، وأسس الدولة الغزنوية وكان عمادا للأسرة السبكتكينية

علاقة سبكتكين بالدولة السامانية :

ثارت الفتن والقتال بالبلاد الخراسانية في ٣٨٤ هـ بسبب خروج الجند وقوادهم على أمراء السامانيين ، فرأى الأمير نوح بن منصور الساماني أن يستعين بسبكتكين ، وأرسله وطلب إليه أن ينجده وولاه أمر خراسان ، فاستعد سبكتكين وخرج قاصدا خراسان لنصرة أميرها ، واستعان القواد الثائرون بفخر الدولة بن بويه فأسرع لمساعدتهم ، ولكن سبكتكين تغلب على أعدائه بعد حروب شعواء ، وفاز فوزا باهرا وثبت قدمه في خراسان ، وفي سنة ٣٨٧ هـ مات الأمير نوح بن منصور في شهر رجب ، واختل بموته ملك آل سامان . وضعف أمرهم ضعفا طاهرا ، وطمع فيهم أصحاب الأاطراف فزال ملكهم بعد مدة يسيرة ، وقد خلفه في الملك ابنه أبوالحرث منصور بن نوح

مات سبكتكين في شهر شعبان من سنة ٣٨٧ هـ ، وكان يقيم ببلخ قبل موته ، ولكنه مرض وأراد الانتقال إلى غزنة فمات في الطريق ودفن بغزنة ، وكانت مدة ملكه نحو عشرين عاما ، وكان عادلا كثير الجهاد ، وقد عهد

إلى ولده إسماعيل بالملك بعده ، فلما مات بايع الجند لاسماعيل وحلفوا له وأطلق لهم الأموال ، وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعفه الجند واشتطوا في الطلب حتى أقى الخزائن التي خلفها أبوه ، وقد ظل قائماً بالأمر نحو سبعة شهور ، ونازعه أخوه محمود في الملك وكان أكبر منه سناً ، ودارت رحى القتال بين الأخوين وانتصر محمود واستولى على الملك ، وعامل أخاه بالحسنى ، واعترف الخليفة بملكه وعقد له وخاع عليه ولقبه يمين الدولة وأمين الملة ، وتلقب بالسلطان ولم يلقب به أحد قبله وقد بلغت الدولة السبكتيكية في عهده أقصى مجد لها ، وفي ٣٨٩ هـ استولى على خراسان وقضى على البقية الباقية من النفوذ لآل سامان فانقرضت دولتهم على يديه ، وقام بغزوات كثيرة في الهند ، وعلى يده أسلم كثير من ملوك الهند وأمرائها ، وخضع لنفوذه ملوك طبرستان وجرجان ، ولم يزل في عزه وسلطانه إلى أن أدركته الوفاة سنة ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م ، ويقول عنه سيد أمير علي ما يأتي : « كان حكم محمود الغزنوي في آسيا من أبهى الأحكام التي مرت عليها ، وكان محبا للعلم والعلماء ، شجع العلوم والفنون ، وكان بلاطه محطاً لرجال كثير من العلماء والفقهاء ، وعاش في زمنه وتحت رعايته كثير من الفلاسفة والشعراء . أمثال الفردوسي والبيروني وغيرهما . »

وفي عهده استوطن فريق من الأتراك بعض أجزاء البلاد التي تقع تحت نفوذه على شواطئ نهر سيحون ، ولم يلتفت محمود إلى خطورة شأنهم ورأى اضعافاً لجموعهم أن يرسل قبيلة منهم إلى بلاد خراسان ، وأرسل قبيلة وعلى رأسها زعيمها المسمى سلجوق إلى تلك البلاد فأستوطنها واتسع نفوذها فيها ، ولما أراد ابنه مسعود أن يخرج هؤلاء السلجوقيين من خراسان غلب على أمره واستقل السلجوقيون بخراسان

ظل ملك آل سبكتكين قائماً في بلاد الافغان وبخارى وما جاورها من الأقاليم حتى سنة ٥٨٢ هـ، وكان آخر ملك من ملوك تلك الأسرة العظيمة هو تاج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه

وفاة القادر وأخلاقه :

توفي القادر بالله في ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ، وفي اواخر أيامه ضعف نفوذ آل بويه بسبب الانقسامات التي قامت بين أفراد الأسرة فاسترجع الخليفة شيئاً من الكلمة والنفوذ، وقد اتصف القادر بالميل إلى الخير وبالعلم والكرم، وكان ورعاً متديناً وقد خلفه على عرش الخلافة ابنه أبو جعفر عبد الله

القائم بأمر الله

(٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) (١٠٣١ — ١٠٧٥ م)

هو أبو جعفر عبد الله تولى عرش الدولة بعد وفاة أبيه بعهد منه وتلقب بالقائم بأمر الله، وحكم الدولة حكماً طويلاً وكان النصف الأول لعهدده عصر اضطرابات وفتن متتالية ببغداد وغيرها من أقاليم الخلافة العباسية، وطمع في اطراف الدولة الطامعون وكبر شأن السلجوقيين في بلاد المشرق، وزحفوا نحو العراق وظلوا يترقبون الفرصة حتى يدخلوا بغداد ويتزعموها من أيدي سلاطين آل بويه، وقد وصلوا إلى مآربهم وقضوا على الدولة البويهية، وحلوا محلها في النفوذ والسلطان واداروا شئون الخلافة العباسية

كان القائم العوبة في أيدي السلطان البويهي يحركه على حسب ما يشتهي، وكان جلال الدولة بن بهاء الدولة البويهي هو الذي يتولى أمر العراق في

عهده . وكان سلطانا ضعيفا ، فأختلت الأمور وانفرط عقد النظام وقلت الإيرادات ، ولم يقو على دفع مرتبات الجند فثاروا عليه في سنة ٤٢٦ هـ وطلبوا أرزاقهم ولما لم يجهم الى ما طلبوا انقلبوا قطاع طرق ولصوصا ينهبون المتاع ويسرقون المنازل ، وانتشر البدو من العرب في البلاد ونهبوا النواحي وقطعوا الطرق ، وبلغوا أطراف بغداد ودخلوا جامع المنصور ، وأخذوا ثياب النساء في المقابر ، وفي سنة ٤٣٢ هـ طلب السلطان من الخليفة أن يلقبه بملك الملوك فامتنع الخليفة قائلا بأن هذا اللقب لا يتفق مع الدين ، فاستعان جلال الدين بالفقهاء وعلماء الدين وأقوى بعضهم بجواز اللقب ، وخالفهم فريق آخر وعلى رأسهم قاضي القضاة أبو الحسن الماوردي ، وقبل الخليفة ما طلب السلطان ومنحه اللقب ، وظل جلال الدين قائما بالأمر حتى توفي سنة ٤٣٥ هـ ، فخلفه ابن أخيه أبو كاليبجار المرزبان بن سلطان الدولة ابن بهاء الدولة ولقبه الخليفة محي الدين ، وكان عهده عهد اضطراب أيضا ، وتنازع الأتراك والديلم النفوذ في الدولة ، فساءت الأمور وازدادت حرجا وبعد حكم دام خمس سنوات توفي محي الدين في سنة ٤٤٠ هـ ، وخلفه ابنه أبو نصر خسرو فيروز ، وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فامتنع الخليفة أولا عن اجابة الطلب ولكنه اضطر الى أن يجيبه الى ما طلب واستقر الأمر له ، وبسط نفوذه على العراق وخوزستان والبصرة ، وعلى يديه سقطت الدولة البويهية ، وانقضى عصر نفوذ آل بويه وخضعت الخلافة العباسية الى نفوذ جديد وهو نفوذ السلاجقة

يقول الخضرى بك : « انقضت مدة آل بويه التي لم يكن فيها شيء من الصلاح للبلاد ، بل زادت فرقة وفسادا بما أظهرته من التشيع في بغداد ، مع أن أكثرية أهلها أهل سنة وجماعة ، فكان النزاع كثيرا ما يقع بين

الفرقتين وتحصل حوادث شديدة الوقع في بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه ولا السلطان لأنه كان يعين طائفته »

يقول موير : « وكان عصر بني بويه زاهيا بالادب وبخاصة الادب الفارسي ، ونبغ عدد من العلماء والادباء والفلاسفة نذكر منهم الفيلسوف الفارابي وهو من أصل تركي ومات سنة ٩٥٠ م ، والمتنبى أشهر شعراء الشرق وهو من أصل عربي ومات سنة ٦٩٥ م ، والخوارزمي ومن اسمه اشتق الغربيون كلمة لوغارتم ومات سنة ٩٩٢ م ، والفيلسوف العظيم الحسين بن عبد الله بن سينا ومات سنة ١٠٣٧ م . »

قيام الدولة السلجوقية :

ورد في تاريخ ابي الفداء عن ابتداء الدولة السلجوقية ما يأتي : « دخلت سنة اثنتين وثلاثين واربعمائة ، وفي هذه السنة توطن ملك طغريل بك وأخيه داود ابني ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ، وكان جد دم دقاق رجلا شهما من مقدمي الاترك ، وولده سلجوق فانتشا وظهرت عليه امارات النجابة فقدمه ييغو ملك الترك إذ ذاك ، وقوى أمره وصار له جماعة كثيرة فتغير ييغو عليه فخاف سلجوق منه فسار بجماعته وبكل من يطيعه من دار الكفر الى دار الاسلام ، وأقام بنواحي جند وهي بليدة وراء بخارى ، واعتنق الخنيفية فازداد بذلك عزا الى عزه ، وصار يشن الغارة على بلاد الترك . وكان لسلاجوق من الاولاد ارسلان وميكائيل وموسى ، وتوفى سلجوق بجند وعمره مائة وسبع سنين . »

حذا أبناء سلجوق حذو ابيهم في الجهاد ضد الاترك لاعتلاء كلمة الدين الاسلامي ، فقتل ميكائيل وهو يجاهد في سبيل الله ، وترك من الاولاد ييغو

وطغريل بك وجغرو بك داود ، وانتقلوا من مكانهم الى مكان قريب من بخارى فخافهم أميرها وأساء جوارهم ، فرحلوا عنها ونزلوا في أملاك بغراخان ملك تركستان ، ولكن لم تطب لهم الإقامة في ذلك القطر ، ورجعوا إلى جند مقرهم الاصلى وظلوا بها حتى انقرضت الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ واستولى ايلك خان على بخارى ، وطرده منها على تكين أحد قواد السامانيين وكان صديقا لارسلان بن سلجوق فاستدعاه لمعاونتته في بخارى ، فذهب إليه أرسلان ومكث بها ، وفي تلك الاثناء كان الغزنويون وعلى رأسهم السلطان محمود قد ازداد نفوذهم ، وعبروا النهر الى بخارى وتملكوها ، وقبض محمود على ارسلان وسجنه ، ثم تفرق أصحابه في نواحي خراسان إلى اصفهان بأمر السلطان محمود ، ووضع عليهم اخراج فخارت العمال عليهم وامتدت الايدي إلى أموالهم وأولادهم ، فانفصل منهم جماعة عن جرجان إلى اصفهان ، وجرى بينهم وبين علاء الدولة بن كاكوين حرب ثم ساروا إلى أذربيجان ، أما طغريل بك وأخواه داود ويغو فأنتهم ساروا من خراسان إلى بخارى وقتلوا صاحبها على تكين ، ثم عادوا إلى خراسان وعبروا نهر جيحون وضربوا خيامهم بظاهر خوارزم سنة ٤٢٦ هـ ، ثم خرجوا منها إلى جهة مرو . وهناك تقابلت جموعهم مع قوات السلطان مسعود بن محمود الغزنوي وبعد معارك شديدة بين الطرفين انتصر السلجوقيون واستولى داود على مرو ، وأحسن السيرة في أهلها وخطب له بها أول جمعة في رجب سنة ٤٢٨ هـ ولقب في الخطبة بملك الموك ، وكان طغريل بك يفتح المدن في خراسان الواحدة تلو الاخرى ، وينتصر على جيوش السلطان مسعود ، فملك جرجان وطبرستان في سنة ٤٣٣ هـ ، وفي السنة التي تلتها ملك خوارزم ، ثم امتد نفوذه إلى بلاد الري ، ووصلت طلائع جنده إلى البلاد العراقية وأصبح طغريل بك

من ذلك العهد زعيما للاسرة السلجوقية ، وكان بطلا من أبطال المسلمين
اشتهر بالورع والتقوى والميل الى العلم والعلماء ، فعلا شأنه وأصبح قبله
الانظار في المشرق

طغريل بك وعلاقته بالخلافة العباسية :

تفرقت كلمة آل بويه كما سبق أن قدمنا وضعف أمرهم في بغداد وكثرت
الفتن والقلاقل ، واضطرب الناس فانتبهز أحد مماليك بهاء الدولة البويهى
ويسمى أبا الحارث ارسلان المعروف بالبساسيرى تلك الفرصة ونازع
الملك الرحيم السلطة ، وتولى منصب أمير الامراء ، ولكن الحالة ازدادت
تفاقما وحصلت الوحشة بين البساسيرى والخليفة وقامت الفتنة بين السنية
والشيعة ، وسارت جماعة السنية وقصدوا دار الخليفة وطلبوا أن يؤذن لهم
أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، فأذن لهم وزاد شرهم ثم استأذنوا
في نهب دور البساسيرى وكان غائبا في واسط ، فأذن لهم الخليفة فنهبوا
وأحرقوها ، وأرسل الخليفة الى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيرى عن
منصبه فابعده ، وقدم الملك الرحيم الى بغداد واستمرت الحالة في اضطراب
وكان طغريل بك قد دخل العراق بقوات كبيرة فأرسل اليه الخليفة
مستنجدا مستغيثا ، وكانت أمنية طغريل بك أن يدخل بغداد ، فأجاب طلب
الخليفة وأظهر له العبودية والطاعة ، ووعد الاتراك والقواد بالأحسان
اليهم ، وتقدم الخليفة الى الخطباء بالخطبة لطغريل بك بجوامع بغداد ، وفي
اليوم الخامس والعشرين من شهر المحرم سنة ٤٤٧ هـ دخل طغريل بك
بغداد ، وقبض على آخر سلاطين بني بويه وهو الملك الرحيم وتولى ادارة
الشئون في عاصمة الخلافة فسقطت الدولة البويهية وحلت محلها الدولة
السلجوقية في النفوذ والسلطان

الباب الحادى عشر

عصر نفوذ السلجوقيين

(٤٤٧ - ٥٧٥) هـ (١٠٥٥ - ١١٨٠) م

ملك طغريل بك بغداد وأخذ يعمل على التقرب من الخليفة بكل ما أوتى من قوة حتى اكتسب رضاه، وتزوج الخليفة من أسرة السلجوقيين اظهارا لرضائه وتقديرا لخدمات تلك الاسرة، وتطلع ارطغريل بك أن يتزوج هو أيضا من بنت الخليفة حتى تتم المصاهرة بين البيتين، وقد امتنع الخليفة فى المبدأ عن اجابة طلب ارطغريل، ولكنه قبل المصاهرة بعد ذلك وجرى العقد فى شعبان سنة ٤٥٤ هـ، وسر السلطان ارطغريل بذلك سرورا عظيما، وكان جندا الاترك والديلم قد عاثوا فى بغداد فسادا، فانهز ارطغريل قيام تلك الفنن والاضطرابات وسجن الملك الرحيم وشرد جنده واتباعه، فتفرقوا فى البلاد وانضم معظمهم الى البساسيرى الذى كان قد فر الى سوريا وانضم الى الفاطميين فى تلك الجهات، فازداد أمره وقوى نفوذه وتغلب على قوات السلجوقيين التى ارسلت لمحاربتة، فخرج اليه ارطغريل بنفسه فى سنة ٤٤٨ هـ بعد أن أقام فى بغداد ثلاثة عشر شهرا، وانتصر على أعداء الدولة فى نصيبين والموصل، ورجع ظافرا الى بغداد فاستقبله الخليفة استقبالا حافلا وخلع عليه الخلع وتوجه وقلده سيفا وخاطبه بملك المشرق والمغرب

دعوة البساسيرى الى بغداد:

سار ابراهيم السلجوقى وهو أحد اخوة السلطان ارطغريل بك فى جهات فارس، وخرج على أخيه وخشى ارطغريل نتائج الثورة فخرج الى

تأديب الثائر وترك بغداد من غير حامية كافية تستطيع ردهجات
الظالمين فيها وكان البساسيري يترقب الفرصة للزحف عليها ، فلما بلغه الخبر
زحف على عاصمة الخلافة على رأس جيش كبير من السوريين والمصريين
وفي أوائل شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ أستولى على بغداد وأعلن خلع
الخليفة وأخذ البيعة على الناس من شيعة وأهل سنة للمستنصر الخليفة
الفاطمي ، وخرج القائم من بغداد وخرج البساسيري بعد ذلك واستولى
على واسط والبصرة ، وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل علي ، وأرسل
شعار الخلافة الى الخليفة الفاطمي وأستقر له الأمر في العراق ، وكان
طغريل في تلك الاثناء يحدد في مقاتلة الثائر وانتصر عليه بالقرب من
الري وقبض عليه ، ثم أمر به فخنق بوترقوسه في تاسع جمادى الآخرة
سنة ٤٥١ هـ وأسرع بالعودة الى بغداد ليعمل على استرداد الأمر فيها
لآل العباس وإعادة القائم الى عرش آبائه ، وفي شهر ذي القعدة من السنة
عينها دخل بغداد ظافرا ونفى البساسيري منها بعد أن تفرق عنه أنصاره ،
وقبل أن ينتهي الشهر رجع القائم الى العرش ، وقلد طغريل سيفا بيده
ثم أرسل السلطان السلجوقي قوة تطارد البساسيري ، ثم خرج اليه بنفسه
وقابله وتغلب عليه وقتله وحمل رأسه الى بغداد ، ثم سار طغريل الى الري
وفي سنة ٤٥٥ هـ رجع الى بغداد ، وبعد أن مكث بها قليلا عاد الى الري وبها
توفي في شهر رمضان من تلك السنة ، « وكان طغريل بك عقيما لم يرزق ولدا
واستقرت السلطنة بعده لابن أخيه الب أرسلان بن داود بن ميكائيل
ابن سلجوق

عهد الب أرسلان

يصف ابن الأثير الب أرسلان بأنه كان نبيلاً في أخلاقه ، على الهمة باراً بالرعية ، صديقاً للفقراء والمعوزين . وفي عهده أغار الروم على أملاك الدولة العباسية ، وروعوا المسلمين باعتداءاتهم المتكررة ، وزحفوا على آسيا الصغرى في قوة كبيرة ، وكانوا يرومون الاستيلاء على بغداد واخضاع غرب آسيا إلى حكمهم ، فخرج إليهم الب أرسلان وتقابل الجيشان في مكان يسمى ملاذ كرد ، ويقع بين مدينتي فان وارضروم ، وفي شهر ذي العقدة سنة ٤٦٣ هـ اقتتل الطرفان قتالاً عنيفاً ، وانتهى بانتصار الب أرسلان انتصاراً مبيناً ، وأسر عاهل الروم مع كثير من أشرف دولته وحمل إلى خيمة الب أرسلان ، فعامله معاملة حسنة ، واتفق الطرفان على صلح كانت كل شروطه في جانب المسلمين . إذ تعهد عاهل الروم بدفع جزية سنوية ، ودفع مبلغاً كبيراً من المال فدية لنفسه ، ورجع العاهل إلى بلاده ، ولكنه خلع قبل أن يصل إلى القسطنطينية واستراحت آسيا الصغرى و أرمينية من شر الروم مدة طويلة ، وعهد الب أرسلان بحكومتها إلى سليمان بن قتلش بن اسرائيل السلجوقي ، ولقد كان سليمان حاكماً قادراً فبسط نفوذه في تلك الجهات ووسع رقعة ملكه على حساب الروم ، وظل هو وأتباعه يحكمون تلك الجهات حتى انتزعها منهم التتار استعان الب أرسلان في إدارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك وهو الذي بنى المدرسة النظامية ببغداد في سنة ٤٥٨ هـ ، ودرس فيها شيخ الشافعية ببغداد وهو الشيخ أبو اسحاق الشيرازي ، وفي عهده بنى ضريح لأبي حنيفة ومدرسة لأصحاب مذهبه ، وفي شهر ربيع الأول سنة ٤٦٥ هـ مات الب أرسلان فخلفه ابنه جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه ، وفي عهده توفي القائم بأمر الله في ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ هـ وخلفه حفيده المقتدى بأمر الله

خلافة المقتدى بامر الله

(٤٦٧ — ٤٨٧) هـ (١٠٧٥ — ١٠٩٤) م

كان المقتدى بامر الله من خيرة خلفاء الدولة العباسية، وكان قوى النفس عظيم الهمة تقيا محبا للفضائل، فاصحح كثيرا من الاحوال الادبية ببغداد وأمر بنفى المغنيات والمفسدات منها، وقد قام بأمر الدولة في عهده السلطان السلجوقى ملكشاه، وكان مقداما صائب الرأى اتصف بالعدل والشجاعة، وفي عهده استقرت الامور، وعلا شأن المسلمين فى اسيا شرقا وغربا، وضرب على أيدي الثائرين والخارجين، وأخضع الروم وفرض عليهم الجزية، وقد ابقى فى خدمته وزير ابيه نظام الملك، وكان من اكابر العلماء تقيا فاضلا محبا للعلم وذويه، وقد لقبه ملكشاه بلقب اتا بك، ويصفه سيد امير على بأنه كان اكبر وزير أنجبته اسيا بعد يحيى البرمكى، اذ بفضل سهره وحرمة ساد الا من البلاد وعمل على تحسين الحالة المالية فى الدولة فأسقط كثيرا من المكوس والضرائب، وأمر بابطال لعن الأشعرية على المنابر، وفى عصره الزاهر عاش الامام الغزالى حجة الاسلام والمسلمين، وبهما ازدانت مدينة طوس واختالت على ماسواها من بلاد فارس، وبفضل ادارته الموفقة اتسع نفوذ ملكشاه فخطب له من حدود الصهب شرقا الى آخر بلاد الشام غربا، وعم البلاد الرخاء واينعت التجارة والصناعة، وتقدمت الفنون والآداب، وازدانت المدن بالمدارس والكلية والمستشفيات، وعمرت الطرق وشقت القنوات ونشطت الزراعة. وفى عهده أصلح التقويم وعهد الى لجنة من اكابر العلماء على رأسها الشاعر الكبير عمر الخيام لتقوم بضبط التواريخ وابتداء السنين وفى أيامه انتصر سليمان السلجوقى على الروم انتصارات موفقه، واسترد انطاكية فى سنة ٤٦٧ هـ.

وفي عهده انتشر الدعاة من الباطنية في بلاد المشرق وكان هؤلاء الدعاة يدعون الناس للانتفاض على الخلافة العباسية والدخول في طاعة الفاطميين، ولقد كانوا دعاة ماهرين، وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن، عليها رجل كبير يعرف بداعي الدعاة، ودرجته تلي درجة قاضي القضاة وكان الدعاة يحصلون على اسرار الدعوة بمصر، ثم يبرحونها الى كل قطر متبعين نظاما مسنوننا، وقد انتشروا بالبلاد الفارسية يدعون للشيعنة من العلويين، وأهمل أمرهم ملكشاه فزاد عددهم ولقيت دعوتهم اذنا صاغية وتبعهم خلق كثير، ولما أراد نظام الملك مطاردتهم أمروا واحدا منهم بقتله غيلة. وقد اشتهر من هؤلاء الدعاة احمد بن عبد الملك بن عطاش وكان رئيسهم الاول، ثم جاء الرئيس الثاني وهو الحسن بن الصباح واليه يرجع الفضل في نشر مذهب الباطنية في مدينة مرو وما جاورها، وقد تحصن بمكان يعرف بقلعة الموت، وكثر عدد مريديه وانصاره، فسير عليه نظام الملك الجيوش ولكن الصباح نجا من الاسر بموت نظام الملك ويقال إنه هو الذي أوعز لأحد أفراد الفرقة الباطنية بقتله سنة ٤٨٥ هـ

مات ملكشاه بعد موت وزيره في شهر شوال سنة ٤٨٥ هـ، وبموته سقطت عظمة دولة آل سلجوق، وانفرط عقد نظامها ووقعت الفتن والدسائس بين أفراد اسرتها، فكانت تلك الفتن والدسائس من الأسباب الرئيسية التي عجلت بسقوطها، وقد تنازع اولاده أمور السلطنة، وكانوا أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود، وكان محمود أصغر الاولاد ولكن والدته ساعدته وطلبت من الخليفة أن يوليه أمر السلطنة فاجاب طلبها، وتعين الطفل وتلقب بناصر الدنيا والدين، ولكن جنود أبيه رفضوا الاعتراف به وساعدوا أخاه الأكبر بركياروق على تولي الأمور، وطلبوا إلى الخليفة أن يعترف به، فاعترف به ولقبه ركن الدين، ولكن الأمور لم

تستقر بل قامت الحروب الأهلية بين الأخوة، وانتهز الباطنيون الفرصة واستولوا على الأماكن الحصينة في الأقاليم الجبلية الواقعة في شمال الفرس والعراق وسوريا، وفي وسط هذه الحوادث مات الخليفة فجأة في شهر المحرم سنة ٤٨٧ هـ، خلفه في الخلافة ابنه أبو العباس أحمد المستظهر بالله

خلافة المستظهر بالله

(٤٨٧ - ٥١٢) هـ (١٠٩٤ - ١١١٨) م

كان المستظهر بالله من خيار بني العباس، وكان متصفا بكرم الأخلاق ولين الجانِب والميل إلى أعمال البر، وكان حسن الخط جيد التوقيعات، وكان شاعرا رقيق الشعر، وقد جلس على عرش الدولة نحو أربعة وعشرين عاما، وفي أثناءها حدثت حوادث خطيرة الشأن في المملكة الإسلامية في الشرق والغرب، فاضطرب أمر الشرق بانحلال سلطان السلجوقيين وتفرق كلمة أمرائهم وسلاطينهم، واضطرب أمر الغرب بقيام الحروب الصليبية التي أثارها المسيحيون بزعامة البابا لانتزاع بيت المقدس وما حوله من الأملاك في فلسطين وسورية. من أيدي المسلمين. وفي سنة ٥٤٢ هـ، تمكن هؤلاء الصليبيون من الاستيلاء على أورشليم ودخلوا في منتصف يولية سنة ١٠٩٩ م، المسجد الأقصى ونهبوا ما فيه من الآثار النبوية: واعتدوا على الأموال والأعراض، وارتكبوا من الفظائع ما أثار غضب المسلمين في أنحاء المعمورة، وثار أهل بغداد يطلبون من الخليفة إعلان الجهاد والنهوض لاسترجاع بيت المقدس، ولكن الخليفة كان ضعيفا لا يملك القوة المادية التي يستطيع بها أن يحارب المسيحيين. وكان سلاطين السلجوقيين لاهين بحروبهم الداخلية والثورات الأهلية فساءت الأحوال واضطربت الشؤون السياسية والمدنية

حال الدولة السلجوقية في عهده :

قضى النظام الاقطاعي على عظمة الدولة السلجوقية كما قضى على عظمة الكروولنجيان في فرنسا ، إذ انهمز أمراء الاقطاعيات اضطراب أمور البيت المالك بعد موت ملكشاه ، واثاروا الحروب والقتال في أنحاء تلك الدولة الشاسعة الأطراف فاضغفوها وقضوا على عظمتها ، وقامت الحروب بين السلطان بركياروق وعمه تاج الدولة تتش بن الب ارسلان مؤسس الدولة السلجوقية في سورية ، ولما مات تتش لم يفرغ بركياروق من الحرب بل اشتغل باخماد الثورات التي قام بها أخوه محمد ، واشتد القتال بين الاخوين وعبثا حاول الخليفة الأصلاح بينهما ، فساءت الأحوال وهرع الناس إلى بغداد يستجدون الخليفة فلم يستطيع العمل على تحسين الحال ، واستمرت الحرب قائمة حتى مات بركياروق في سنة ٤٩٨ هـ ، وخلفه في زعامة الدولة السلجوقية محمد ، وزحف على بغداد ودخلها وخطب له بالسلطنة ، ثم عاد إلى دست ملكة ، بأصفهان ، ولكن الأحوال ازدادت تخرجا واستمرت القلاقل في أنحاء الدولة بين أمراء السلجوقيين ، وكانت أحوال الدولة الفاطمية بمصر قد ساءت أيضا بسبب تنافس الوزراء وضعف الخلفاء فاستطاع الصليبيون أن يوطدوا ملكهم بفلسطين وسورية ، وانتصروا على السلجوقيين انتصارات باهرة ، وذبحوا المسلمين في تلك الأصقاع ذبحا مريعا ، وسقطت المدن في أيديهم الواحدة بعد الأخرى . واخيرا مات السلطان محمد السلجوقي في سنة ٥١١ هـ ، ومات الخليفة المستظهر بالله بعده بقليل في أوائل سنة ٥١٢ هـ ، فخلفه على عرش الخلافة ابنه أبو منصور الفضل المسترشد بالله

خلافة المسترشد بالله

٥١٢ - ٥٢٩) هـ (١١١٨ - ١١٣٥) م

ظل النزاع قائماً بين أفراد الدولة السلجوقية في عهد المسترشد بالله وصار سلطان العراق إلى زعيم الأسرة السلجوقية السلطان سنجر ابن ملكشاه، وكان ملكاً على خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر إلى غزنة وخوارزم، وقد نازعه في إدارته ابن أخيه محمود، ولكنه تغلب عليه بعد معارك شديدة قامت بين الاثنين، وأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل، وكان محمود زوجاً لابنة عمه سنجر، ولذلك تعين ولياً للعهد بعده ولما مات سنجر صار الأمر إلى السلطان محمود بن محمد، وقد أراد الخليفة أن يسترد شيئاً من نفوذ الحلفاء العباسيين السابقين، وشرع عن ساعد الجد وخرج بنفسه لتأديب العصاة والثائرين، وتغلب بفضل أقدامه وشجاعته على أكبر الثوار في العراق وهو ديبس بن صدقة ملك الحلة، وطرده من العراق، فهرب ديبس وانضم إلى صفوف الصليبيين ضد المسلمين، ولما قوى نفوذ الخليفة عمل على الخلاص من السلجوقيين، ولكن السلطان محمود أسرع بالزحف على العراق، وقاومه الخليفة وحصلت مناوشات بين الطرفين ثم تصالحا، وأذن الخليفة للسلطان محمود بالدخول إلى بغداد فدخلها في أوائل سنة ٥٢١ هـ، وأقام بها حتى أوائل ربيع الآخر، وحمل إليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة، ثم خرج من بغداد وقصد خراسان وحارب الحسن بن الصباح وانتزع منه قلعة الموت في سنة ٥٢٤ هـ، ومات السلطان بعد ذلك بسنة، خلفه في زعامة السلجوقيين السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه، وقامت بينه وبين سنجر الزعيم السابق حروب انتهت بانتصار مسعود واستقرار الأمر له، وقد انتهز الخليفة فرصة القتال الدائر بين الأمرين السلجوقيين

واسترد كل ماله من نفوذ معنوى ومادى، وخرج لقتال مسعود ولكنه غلب على أمره، وأسر مسعود وجعله فى خيمة و وكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته، إلا أنه قتل وهو بالخيمة ويقال ان أحد الباطنية هجم عليه ليلا وقتله سنة ٥٢٩ هـ

عماد الدين زنكى

فى خلافة المسترشد وسلطنة محمود السلجوقى ظهر بطل من أبطال المسلمين فى الحروب الصليبية وهو عماد الدين زنكى فإنه أبلى بلاء حسنا فى الحروب الصليبية واليك شيئا عن نشأته وسيرته :

كان إق سنقر مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقى وكان شجاعا مقداما فترقى فى خدمة ملكشاه حتى أصبح من القواد المعدودين فى الدولة وقد استولى على حلب وانتزعها من أيدي أعداء الدولة السلجوقية فولاه السلطان عليها وظل بها حتى مات ملكشاه، فالتحق إق سنقر بخدمة بركياروق ثم قتل فى إحدى المعارك، وترك ابنا يسمى زنكى وكان فى الرابعة عشر من عمره، نخلف أباه فى جاهه ونفوذه، ونشأ فى كنف الدولة السلجوقية، وفى سنة ٥١٦ هـ عينه السلطان محمود واليا على واسط ثم ضم إليه حكم البصرة، وكان زنكى قائدا كبيرا ومديرا حازما، فازداد نفوذه واشتهر أمره، فولاه السلطان محمود مدينة الموصل وحكم شمال بلاد الجزيرة فى سنة ٥٢١ هـ، وجعله أتاك ولد له فروخ شاه المعروف بالخفاجى ليقوم بأمر تربيته، وبذلك أسس عماد الدين زنكى أتابكية الموصل، وقد شمر عماد الدين عن ساعد الجد، وحارب الصليبيين فى سورية واسترد منهم البلاد الواحدة تلو الأخرى بعد معارك شديدة دموية حتى أشتهر اسمه بين الامراء الصليبيين وأرهبهم ببسالته واقدامه، واليه يرجع الفضل فى اعلاء كلمة المسلمين

في تلك الأزمنة، واستمر يحارب المسيحيين حتى قتل في سنة ١٠٤٦م - ١٠٤٦م
وقد ترك عماد الدين أربعة أولاد اشتهر منهم إثنان وهما : سيف الدين
الغازي وتولى أتابكية الموصل، ونور الدين محمود وتولى أمانة حلب، وكان
نور الدين محمود بن زنكي بطالا أيضا من أبطال المسلمين في الحروب الصليبية
وعلى يديه سقطت الدولة الفاطمية في مصر، فإنه أرسل إليها قائده شيركوه
ومعه صلاح الدين الايوبي وقد سبق أن عرفنا أسباب سقوط الدولة
الفاطمية وكيفية تأسيس الدولة الأيوبية

خلافة الراشد بالله

(٥٢٩ - ٥٣٠ هـ)

تولى الخلافة بعد أبيه ومكث خليفة أقل من سنة، وكان مقداما اراد
أن يثار لائيه من سلطان السلجوقيين، فاتفق مع كثير من الأمراء وخلع
مسعودا عن السلطنة، فأسرع مسعود وزحف على بغداد وحاصرها ودخل
المدينة، وتفرق أصحاب الخليفة عنه خوفا من سطوة السلجوقيين، وخرج
الراشد فارا مع عماد الدين زنكي إلى بلاد الموصل، وجمع مسعود القضاة
والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التي حلفها الراشد له وكانت اليمين
بخطه. فاقى الحاضرون بخلعه فخلع، واختار السلطان مسعود عم الراشد
خليفة وبايع له هو ومن معه في شهر ذي الحجة سنة ٥٣٠ هـ

خلافة المقتضى لأمر الله

(٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) (١١٣٦ - ١١٦٠ م)

اعتلى عرش الخلافة أبو عبد الله الحسين بن المستظهر وتلقب بالمقتضى

لأمر الله وقد ظل خليفة نحو خمس وعشرين سنة ، وفي أثناء حكمه الطويل استمر الخلاف قائماً بين أفراد البيت الممالك من السلجوقيين ، فانتهز الخليفة تلك الفرصة وبسط نفوذه السياسى على بلاد العراق لا يشركه فى حكمه أحد من السلجوقيين ، وقد اتصف المقتفى بالشجاعة والاقدم ، وقد تولى أمر الحروب بنفسه ، « وكان يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار فى البلاد حتى كان لا يفوته منها شىء ، وكان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة ، من الرجال ذوى الرأى والعقل الكثير . »

خلافة المستنجد بالله والمستضيء بالله

(٥٥٥ — ٥٧٥ هـ)

اعتلى عرش الخلافة المستنجد بالله بعد وفاة ابيه واستمر خليفة إلى ان مات فى ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ ، ولقد كان خليفة قادراً وظل نفوذه على العراق باقياً كما كان فى عهد ابيه ، ثم خلفه فى أمر الخلافة ابنه المستضيء بالله وفى عهده انقرضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الأيوبية ووصفه الخضرى بك بقوله : « وكان عادلاً حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للأموال ، وكان الناس معه فى أمن عام وإحسان شامل ، وطمانينة وسكون لم يروا مثله . »

انقرضت الدولة الفاطمية فى مصر سنة ٥٦٧ هـ ، واسس صلاح الدين الأيوبي الدولة الايوبية التى انتصرت على الصليبين والسلجوقيين واعاد صلاح الدين مصر وتوابعها وسورية إلى حظيرة الدولة العباسية من الوجهة الدينية وخطب للخليفة العباسى على منابرها

خلافة الناصر لدين الله وولده وحفيده

(٥٧٥ — ٦٤٠ هـ) (١١٨٠ — ١٢٤٢ م)

تولى أبو العباس أحمد بن المستضيء عرش الخلافة بعد وفاة أبيه وتلقب بالناصر لدين الله وحكم الدولة العباسية نحو سبع وأربعين سنة فكان حكمه أطول حكم بين الخلفاء العباسيين، وقد انصف بالنبل والاقدام واستردت الخلافة في عهده كثيرا من مقامها السالف، واشتهر بالشجاعة والكرم، وقوى جيشه وبسط نفوذه على العراق والجزيرة، وبذل جهد طاقته للقضاء على نفوذ السلجوقيين فشجع الفتن والقتل بين افراد تلك الاسرة وأمراتها حتى يضعفوا بعضهم البعض، فيستطيع أن يكتسب من ضعفهم قوة واستعان بشاهات خوارزم حتى يصل إلى غايته ويقيم على انقراض ملكهم ملكا شاسعا، ولكنه أساء التقدير إذا استعانت بدولة فتية لها اطماع في الخلافة للقضاء على نفوذ دولة كانت قد دخلت في طور انحلالها ودور سقوطها فكان أنه قد استجار من الرمضاء بالنار، واليك كلمة عن بدء قيام شاهات خوارزم وعلاقتهم بالخليفة

شاهات خوارزم:

منح السلطان ملكشاه السلجوقي احد أفراد حاشيته وكان يسمى أنوشتكين ولاية خوارزم مكافأة له في نظير جده واخلاصه، وكان أنوشتكين رجلا مقداما، فعلا شأنه وعظم أمره، وخلفه ابنه محمد في تلك المقاطعة، وكان قد تربى تربية حسنة فأدار البلاد باسم السلجوقيين ادارة موفقة، فسر به السلطان سنجر السلجوقي سلطان خراسان، وثبت مركزه في

خوارزم ولقبه خوارزم شاه، واستمر قطب الدين محمد يحكم تلك البلاد حكما صالحا حتى توفي في سنة ٥٢١ هـ، فخلفه أوتيسز وكان واليا قديرا وعمل على الاستقلال ببلاده، ولما مات في سنة ٥٥١ هـ، خلفه ابنه ارسلان فسار على نهج ابيه فأرتفع شأن تلك الأسرة، وبسطت نفوذها على ماجاورها من البلدان، وأصبحت صاحبة النفوذ في العراق العجمي، وفي عهد علاء الدين محمد بن تكش حفيد ارسلان زال ملك السلجوقيين من خراسان وقتل طغريل آخر سلاطينهم في الرابع والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ٥٩٠ هـ، وأرسل رأسه إلى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد فنصب بباب النوبى عدة أيام، وسار خوارزم شاه إلى همدان وملك تلك البلاد جميعها، وأصبح الحاكم المعترف بنفوذه في بلاد المشرق، وسر الخليفة بذلك سرورا عظيما وأرسل الخلع والهدايا إلى خوارزم شاه

العلاقة بين الخليفة وشاهات خوارزم:

لم تطل مدة الصفاء بين الخليفة وخوارزم شاه إذ طمع الخليفة في البلاد التي فتحها علاء الدين، وأرسل إليها جندا فاستولت عليها بعد رحيل علاء الدين عنها، فغضب علاء الدين ورجع إلى تلك البلاد، وحارب جندا الخليفة وانتزع البلاد منهم، وفي سنة ٥٩٦ هـ مات علاء الدين وخلفه ابنه قطب الدين وزاد ملكه اتساعا، وقد أراد أن يكون له من النفوذ والسلطان في بغداد ما كان لسلاطين السلجوقيين من قبل، ولكن الناصر لدين الله أبى ما طلب الخوارزمي، فأشدت العداوة بينهما وخطا خوارزم شاه محمد خطوة جريئة، وجمع مجلسا من العلماء وفقهاء الدين وحصل منهم على فتوى بخلع الخليفة العباسي، وأقام مكانه خليفة من العلويين، وخطب له على منابر

خوارزم وخراسان، ونقش اسمه على النقود المتداولة في بلاد المشرق، ثم زحف بعسكر جرار على بلاد العراق طالبا بغداد لاجراج الناصر منها، فذعر الخليفة وأرسل اليه الرسل يطلب الصلح فلم يقبل الشاه ورد الرسل خائبين، ويقول بعض المؤرخين إن الخليفة لم يري بدا من الالتجاء الى جنكيز خان عظيم المغول يطلب منه المعونة حتي يتغلب على منافسه العنيد، ولكن الحظ خدم الناصر إذ ذاك، وذلك برجوع شاه خوارزم الى بلاده بسبب صعوبة الاستمرار في الزحف على بغداد لتساقط الامطار والثلوج وكان الفصل شتاء

ارتكب الناصر خطأ جسيما بالالتجاء الى المغول، فقد أطمعهم في بلاد الدولة العباسية، ودلهم على مواطن ضعفها، اذ انتهزوا تلك الفرصة العظيمة وحولوا تيار فتوحهم نحو الغرب وأغاروا على أطراف الدولة، وثاربوا شاه خوارزم، فقتلوا على سلطانه وعلى سلطان غيره من امراء المسلمين في بلاد الجزيرة والموصل وآسيا الصغرى، ثم نزله ا على العراق ودخلوا بغداد بعد ذلك وقضوا على الخلافة العباسية في عهدها

توفي الناصر لدين الله في آخر رمضان سنة ٦٢٢ هـ، وخلفه على عرش الخلافة ابنه أبو نصر محمد الطاهر بأمر الله، وكانت خلافته تسعة أشهر وبضعة أيام، وكان عادلا ومحسنا حتى وصفه ابن الأثير بأن لم يل الخلافة بعد عمر ابن العزيز مثله، وأعاد من الاموال المنصوبة في أيام ابيه وقبله شيئا كثيرا وأطلق المكوس في البلاد جميعها وأمر باعادة الخراج القديم في جميع العراق تولى أمر الخلافة بعد وفاته ابنه أبو جعفر المنصور وتلقب بالمستنصر بالله في منتصف شهر رجب سنة ٦٢٣ هـ، وقضى في الخلافة نحو سبعة عشر عاما، وكان جوادا كريما وله آثار جلية في بغداد. « منها وهي أعظمها المدرسة

المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة ، وبني غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة »

وفي أثناء حكمه الطويل اشتد نفوذ المغول في بلاد الدولة العباسية وأواسط آسيا ، واكتسحوا بجمعهم كل ما قبلهم من المدن والبلدان ، وأعملوا السيف والنار في كل ما امتلكوه ، وبعد وفاته خلفه ابنه المستعصم بالله

المستعصم آخر خلفاء العباسيين بالمشرق

(٦٤٠ - ٦٥٦) هـ (١٢٤٢ - ١٢٥٨) م

اعتلى أبو أحمد عبد الله الملقب بالمستعصم بالله عرش آبائه وأجداده بعد وفاة أبيه في عاشر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ هـ وظل قائماً بأمور الدولة حتى أغار المغول على أملاكها ، ودخلوا بغداد واستولوا عليها ، وقبضوا على الخليفة في ٢٠ المحرم سنة ٦٥٦ هـ ، وفي منتصف شهر صفر من السنة عينها رحل هو لاكو خان عظيم المغول عن بغداد واستصحب معه الخليفة ، وفي أول مرحلة قتله هو وابنه الاوسط مع ستة نفر من الخصيان ، وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلوا ذى ، وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد ، بعد أن مكثت مشرقة ٥٢٤ سنة ، واشتفت قلوب العلويين من بني عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار »

قيام دولة المغول :

المغول والتتر شعبان من الشعوب التركية القديمة التي يرجع نسبها الى أصل واحد ، وكانت تسكن أواسط آسيا وتعيش عيشة بدوية تنتقل من مكان الى مكان وراء الكلا والمرعى ، ففتح نحو الشمال عند ما تذوب الثلوج وتنكشف الأرض ويظهر فيها الكلا ثم تنحدر نحو الجنوب في

فصل الشتاء عندما تغطي الثلوج تلك الاصقاع مرة أخرى، وقد اشتهر أفرادها بالشجاعة والاقدام، وركوب متن الاخطار، وشبوا رجال حرب وجلد وكفاح، وقد عاش الشعبان على صفاء ووداد الى أن وقع النزاع بينهما في عهد ايلخان ملك المغول و سونج خان ملك التتر، ودارت رحى الحرب بينهما، واستمرت طويلا وكانت سجالا، ثم انتصر المغول على ابناء عمهم وساءوا أو اسط آسيا، وفي أثناء القرن الثاني عشر الميلادي خضع المغول الى سلطان الصينين، وظلوا كذلك حتى ظهر زعيم منهم وهو جنكيز خان فجمع شملهم ونظم جموعهم، وكثر انصاره فبسط نفوذه على الشرق والغرب . أصبح من أشهر قواد التاريخ وأعظم الفاتحين

ولد جنكيز خان وكان اسمه تموجين في ١١٥٥ م، ولما كبر علا شأنه وانتخبه بنو جنسه خانا عليهم في سنة ١١٨٩ م وفي سنة ١٢١٤ م زحف على مملكة الصين، واستولى على مدينة بكين عاصمة تلك المملكة العظيمة وحارب أهل الصين حربا عوانا وانتصر عليهم، وخضعت الصين بأجمعها له في سنة ١٢١٩ م وقد بذل جنكيز خان هممة كبيرة في تنظيم بني جنسه من الوجهة الاجتماعية وسن لهم قانونا يكون لهم دينا يسرون على مقتضاه وهو اليساق أو الياسة يرجعون إليه في معاملاتهم وأحكامهم كما يرجع المسلمون الى قرآنهم

علاقة جنكيز خان بالبلاد الاسلامية :

كانت الدولة الخوارزمية في زمن جنكيز خان دولة شاسعة الاطراف تبسط نفوذها على بلاد التركستان وفارس وعلى شمال الهند، وكانت تمتد شرقا حتى مدينة كمشجار، وكانت أملاك شاه خوارزم تتصل بأمالك عاهل المغول، فوجدت علاقة بين العاهلين الاسيويين، وكانت النتيجة الطبيعية أن تتعارض مصالح تلك القوتين في الاقاليم التي تسيطر عليها، فتقوم الحرب

بينهما ، ويقال ان جنكيز خان أرسل بعثة تجارية الى شاه خوارزم في سنة ٦١٢ هـ فاستقبلها الشاه استقبالا حافلا ورجع أفرادها مسرورين الى ملكهم وبقيت العلاقة طيبة بينهما حتى سنة ٦٥١ هـ (١٢١٨ م) وفي تلك السنة أساء أحد ولاة خوارزم شاه تجارا من رعايا جنكيز خان وسلبهم أموالهم ومتاعهم. فغضب الفاتح المغولي وأرسل الى الشاه يطلب معاينة الوالى المسيء ، فقتل الخوارزمي رسول جنكيز خان متخطيا بذلك اللياقة الدولية ، ولما علم جنكيز خان الخبر خرج لمقاتلة الخوارزمي على رأس جيش بلغ عدده نحو الف الف مقاتل ، وزحف نحو فرغانة ، وكانت أقاليم الدولة الخوارزمية اذذاك زاهرة تتمتع بالرخاء المادى والادبى ، وكانت المدن غنية عامرة بسكانها ، وبلغ عدد السكان فى كل من هيرات وبلخ نحو المليون من الانفس وكانت بخارى وسمرقند أهلة أيضا بالسكان

زحف الفاتح المغولى وعبر نهر سيحون واقترب من بخارى فهجرها أهلها خوفا من العدو ، فدخلها جنكيز خان سنة ٦١٦ هـ وخربها وأحرق دورها ومساجدها وقتل أهلها ، ثم سار نحو سمرقند وكانت قصبة ماوراء النهر ومركزا للعلم والأدب فدخلها فى يونية سنة ٦١٧ هـ (١٢١٩ م) بعد أن تغلب على قوات خوارزمشاه وقتل من فيها ودمرها تدميرا ، فدعرت باقى المدن وفتحت أبوابها للفاتح ، فكان يدخلها هو وجنده ويعمل السيف فى أهلها ، وفى شهر ابريل سنة ١٢٢١ م دخل نيسابور وخربها ، ثم استولى على هيرات والرى وهمدان ودمرها تدميرا ، ثم زحف المغول على بلاد العراق وكان جنكيز خان فى أثناء تلك الحروب الشعواء مقبلا فى سمرقند وأرسل رسله تطارد محمد شاه خوارزم ، فطارده من بلد الى بلد وكان يفر أمام تلك الجموع الهائلة حتى وصل الى جزيرة فى بحر الخزر وفيها مات مكسورا الخاطر والجناح فى سنة ٦١٧ هـ ٢١٢٠ م

انتشرت جموع المغول بعد ذلك في الاقاليم والاقطار الاسلامية تخرب كل ما قابلها وتقتل النساء والاطفال وقضت على الحركة العلمية والادبية في اواسط اسيا ، وقد ظل جنكيز خان ماضيا في خطته حتى ضجت البلاد ، ثم عاد الى مقر حكومته حيث مات في سنة ٥٦٢٤ هـ في خلافة المستنصر بالله وقد انقسمت انثرته بعد موته الى اربعة بيوت ، فسارت على مارسمه لها الفاتح ، حتى أخضعت بلاد المسلمين في اسيا وجزءا كبيرا من أوروبا ، وقد آل ملك خراسان الى تولى خان أحد أبناء جنكيز خان ، وخلفه في ملكه بعد وفاته في سنة ٦٥٤ هـ ابنه هولوكو خان وهو الذي زحف على العراق ودخل بغداد وقضى على الخلافة العباسية في المشرق

المستعصم بالله وهولاكو خان :

اختلف المؤرخون في ذكر الاسباب المباشرة التي أدت إلى زحف هولوكو على العراق وبغداد ، ولكن قال أكثرهم إن سبب ذلك قيام فتنة دينية في بغداد في عهد المستعصم بين أهل السنة والشيعة ، وقامت الحرب بين أنصار المذهبين ، وتغلب أهل السنة لكثرة عددهم ، فاجأ مؤيد الدين محمود بن العلقمي وزير المستعصم وكان من أهل الشيعة إلى هولوكو ، وكتب إليه يطلب النجدة ويحرضه على المسير إلى بغداد ، فانهز هولوكو تلك الفرصة ، وزحف بجموعه عليها ودخلها وقتل معظم أهلها ، وفعل بها المغول مثل ما فعلوا بباقي المدن في اواسط اسيا في عصر جنكيز خان ، وقتل المستعصم على الصورة التي سبق أن ذكرنا خبرها

يقول سيد أمير علي : « لم يفلت من يد المغول الا نفر قليل من نسل بني العباسي ، وأما بغداد مهد الحضارة ومقر العلم والنور وعين العالم الاسلامي وقلبه ، فقد دمرها المغول تدميرا ولم يبق من سكانها الذين بلغوا

يوما من الايام نحو مليونين من الانفس الا نصف ميلون، واستمرت
المذبحة قائمة بين جدرانها وفي وسط شوارعها نحو ستة أسابيع، وتدميرها
خيم الظلام على ربوع اسيا الغربية .

ويقول ابن الاثير : « كانت غارة التتر على العالم الاسلامي من أروع
النكبات التي حلت بالعالم بصفة عامة وبالعالم الاسلامي بصفة خاصة ، ولم
يرو التاريخ نكبة تماثلها . »

الخلفاء العباسيون بعد سقوط دولتهم :

زحف المغول بعد أن دمروا بغداد على بلا الجزيرة ، واعملوا السيف
في السكان في كل من مدن حران ونصيبين، وقتلوا من أهل حلب نحو الخمسين
ألفا، وباعوا من نساءها وأطفالها في أسواق الرقيق نحو العشر الآلاف، ثم
رجعوا نحو الغرب وفتحوا المدن والاقليم منتهزين فرصة الخلاف بين
أمراء المسلمين . وفي شهر رمضان سنة ٥٨٦٥٨ م ١٢٩٠ م زحفوا على فلسطين
وفي مكان يعرف بعين جالوت وهي بلدة قريبة من الناصرة قابلهم السلطان
الظاهر بيبرس من سلاطين المماليك بمصر وأوقف زحفهم وتغلب على جموعهم
وأجلاهم عن سورية والجزيرة . وفي تلك الاثناء كان العالم الاسلامي لا يجد
رئيسا روحانيا يخضع لنفوذه . فرأى الظاهر بيبرس أن يدعو أحد أفراد
الاسرة العباسية من الذين نجوا من شر المغول الى القاهرة

يقول موير : « وكان غرض بيبرس من ذلك أن يقوى عرشه ضد أحفاد
نظرائه سابقا من المماليك ، وكذلك خوفا من قيام الشيعة لارجاع الدولة
الفاطمية فظن أنه لو نصب خليفة من السنين فإنه يقضى على مثل هذه
الديسيطة ، ويجعل حكمه في مصر شرعيا ، لذلك لما سمع أن أحد العباسيين
أخطأته مذبحة المغول ، جد في استحضاره من سورية إلى مصر في موكب
حافل ، ولما اقترب العباسي من البلاد خرج السلطان وحاشيته في موكب

لمقابلته وقد تبع السلطان في موكبه اليهود والنصارى رافعين على أيديهم التوراة والانجيل . بويج للعباسي بالخلافة وأقسم له بيبرس ورجال حكومته على الطاعة ، أما الخليفة (المستنصر بالله) فإنه قلد بيبرس سلطنة البلاد وعند صلاة الجمعة بعد قرآة ما تيسر من القرآن والخطبة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء له ولا آل عباس دعا الخليفة للسلطان بداوم العز وبعد بضعة أسابيع شاهدت وليجة السلطان حفلة مبارزة جميلة على النيل وأقيمت بالبستان الكبير خارج القاهرة حيث خلع الخليفة على السلطان الخلع «وهي جبة سوداء وعمامة بنفسجية وطوق من ذهب وقلد سيفا عربيا» . ثم أهداه تقليد المملكة بعد أن قرأه عليه وفيه يحض الخليفة السلطان باسهاب على واجبه نحو الحرب ذودا عن الدين ، وما أثقل به عاتقه من المسؤولية ، وبعد ذلك دقت الطبول وعزفت الزمور وهتف الجميع فرحا وحبورا ، ثم سار الموكب في طريقه المقروشة بالبسط الى القلعة ، وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالوزير على متن الجياد ، وتبعهم سائر الناس على الأقدام فكان منظرا لا يحيط به الوصف «

خرج بيبرس ومعه الخليفة بعد ذلك الى بغداد ليعيد الخليفة الى عرش آبائه ، غير أنه عدل عن عزمه وترك الخليفة في الطريق فقابله المغول وقتكوا به وقتلوه ، ثم ولي بيبرس أحد سلاثل العباسين الخلافة سنة ١٢٦٣ م ومع أن هذا الخليفة كان يقوم بكل ما يتعلق بوظيفته فان بيبرس أخذ لنفسه الحيطة حتى لا يجعله يشغل المكانة التي كان يتمتع به سلفه ، فجعله شخصا عاديا مراقبا سجينيا في القلعة ، وقد بقى الخلفاء طوال حكم دولة المماليك وليس لهم من الخلافة الا اسمها ، وان كان ذلك لا ينطبق على حكم كل سلاطينهم ، والواقع أن الخليفة كان يؤتى به في المواقف الرسمية الهامة

ليتمم الحاشية وكذلك كان يؤتى به عند تولية سلطان جديد بصفته الرئيس
الديني للمسلمين ليعترف بلقب السلطان وهذا كل ما كان له من الأمر ،
قامت الدولة العثمانية بعد ذلك وقضت على حكم المماليك في مصر في
زمن السلطان قانصوه الغورى ودخل السلطان سليم الأول القاهرة
سنة ١٥١٧ م وشنق طومانباى الذى خلف قانصوه الغورى على عرش مصر
وبقى السلطان سليم في هذه الديار نحو ثمانية شهور ثم عاد الى القسطنطينية وحمل
معه كثيرا من العمال المصريين والخليفة العباسى المتوكل ويقال إن المتوكل
تنازل عن حقوقه فى الخلافة الى السلطان سليم فى سنة ٩٢٦ هـ ١٥٢٠ م
وأصبح سلطان الأتراك يلقب من ذلك العهد بلقب أمير المؤمنين وخليفة
المسلمين واعترف العالم السني باللقب وانتهى أمر العباسيين



الباب الثاني عشر

حضارة الدولة العباسية وأسباب سقوطها

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ ، وظلت قائمة حتى سقطت في سنة ٦٥٦ هـ ، على يد هولاوخان الفاتح المغولي العظيم ، فكأنها استمرت في الحكم ٥٢٤ سنة ، وجلس على عرشها في أثناء تلك المدة الطويلة سبعة وثلاثون خليفة ، وكان لخلفائها في أثناء القرن الأول من حكمها الكلمة العليا والسيادة التامة على العالم الاسلامي شرقا وغربا ، يأتى الناس بأمرهم ولا يجسر أحد مهما علت منزلته وكبر شأنه أن يرد لهم قولا أو يقف في وجه جنودهم ، وبلغت بغداد عاصمة الدولة مبلغا عظيما من الحضارة والعمران لم تبلغه مدينة غيرها في عصور التاريخ المختلفة ، فكانت زهرة المشرق وجنة الدنيا ، وشيدت فيها القصور الكثيرة حتى سميت مدينة القصور وكانت في غاية الفخامة والزخرفة ، ولعب الذوق الفارسي في تنسيقها دورا مهما ، وغرست في أنحاء المدينة البساتين الفيحاء والحدائق الغناء ، وكان بها الميادين الواسعة اشهر منها الميدان المربع وكان ميدانا فسيحا أمام قصر الخليفة حيث كانت تستعرض الجند ، وتقام المبارات الرياضية وسباق الخيل ، وقد وضعت فيه المصاييح للإثارة ليلا ، وازدهمت المدينة بالمساجد الكبيرة التي شيدت في بناء نفخ على شكل هندسى جميل وزينت جدرانها بالزخارف البديعة والنقوش الزاهية الجميلة ، ولقد فاقت بغداد غيرها من مدن العالم في عصرها بما حوته من أسباب المدنية الزاهرة ، اذ امتلأت بالمدارس والكتليات التي كانت مهدا للعلوم والفنون ، وأقيمت بها دور الشفاء (المستشفيات)

والملاجيء بعضها خاص بالرجال وجعلت الاخرى للنساء ، وقد اديرت تلك الكليات والمستشفيات والملاجيء على أفضل الأساليب الادارية الحديثة وهرع الناس من جميع انحاء الدولة إلى دار السلام واتخذوها مقرا لهم فبلغ عدد سكانها نحو مليونين من الاتفس ، فشيدت فيها الضواحي الجميلة وامتدت إلى مسافات بعيدة على جانب نهر دجلة ، وقد اشتهرت منها المهديّة ويقال إنها فاقت الجزء الغربي من بغداد في عظمتها وجمالها

أما الخلفاء العباسيون الأول فكانوا مثال الابهة والجلال ، وكان الخليفة منهم يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية ، وكان الرئيس الأعلى في الأمور السياسية والعسكرية ، ومصدر القوة ومرجعها . ولم يكن الوزير إلا مستشارا منفذا لا وأمر الخليفة ، يراقب الضرائب والمراسلات الرسمية ، ويشرف على الادارة المدنية والحربية . ولقد أخذت الخلافة العباسية من مظاهر الابهة والعظمة ما لم تأخذه الدولة الاموية ، فكان إذا خرج الخليفة تتقدمه كوكبة من الحراس في زى نظامى فكان حرس موسى الهادى يستلون السيوف وهم على ظهور الجياد أمامه ووراءه ، وشد رماة السهام قسيهم ، وركز حملة الرماح رماحهم ، وكان الرشيد والمأمون يخرجون للصلاة في يوم الجمعة في أعظم مظاهر الملك والخلافة ، فكان يتقدم الموكب فرقة من المشاة يحملون الاعلام ، ثم فرقة الموسيقى تصدح بشجى الانغام ، ويسير خلف الموسيقى جماعة الامراء على جياد مطهمة محلاة ، ثم يحىء الخليفة على جواد أبيض ووراءه كبار رجال الدولة ثم يسير بقية الحرس في نهاية الموكب ، وكانت تتجلى عظة الخليفة أيضا في المقابلات الرسمية وفي الأعياد والاحتفالات القومية ، وأعدت غرف خاصة لتلك المقابلات مشيدة على صف واحد وكان يجلس بهاء روس القوم والامراء ورجال الحاشية والبلاط وكانت

الستار الثمين المزر كشة تسدل على أبواب الحجرات ، وإلى جانب كل باب يقف حاجب يزيح الستار عند قدوم الزائر ، ويسمح له بالمرور فإذا ما اجتاز حجرتين ودخل الثالثة وجد الخليفة على عرشه وحوله مائة رجل في أجمل ثياب شاهرين السيوف ، وعلى يمينه ويساره جلس الامراء والوزراء في درجاتهم ، وعند ما يصل الزائر إلى تلك الغرفة يصيح الحاجب باسمه فيتقدم ويظهر خضوعه وطاعته ، وكانت العادة في ذلك عندهم أن يضع الرجل يده اليمنى على صدره ويحنى رأسه قليلا ثم يرفع يده من على صدره الى رأسه ، أما الفرس فكانوا يركعون. أما في المقابلات الخاصة فكان الخليفة يسمح للزائر بآتم يده وكانت مقصورة على الأمراء وكبار رجال الدولة والعلماء والادباء والشعراء وكان ولي العهد يجلس عادة الى يمين الخليفة ، ويجلس القوم في صفين عن يمينه ويساره على حسب أنسابهم ومراتبهم ، ويدور الكلام والبحث في مختلف الشؤون السياسية والعلمية والادبية ، ويقول الشعراء ما تجود به قرائحهم ويقص الرحالة ما لاقوه في رحلاتهم ، وكانت عادة الخليفة في شهر رمضان أن يولم الولايم في قصره لقواد جيشه من جميع الأقاليم ، وكثيرا ما كانت تقام تلك الولايم في قصور الوزراء ، وفي عيد الفطر كانت تقام وليمة جامعة لوجهاء بغداد وكان الخليفة ينيب عنه شخصا في حضور تلك الولايم

ظلت حكومة الخلفاء حكومة أو تقراطية حتى جاء عصر المأمون فانقلبت إلى حكومة دستورية شورية واجتمع في عهده مجالس للنواب يمثل كل الطبقات والعناصر التي تخضع للخلافة العباسية ، ويتمتع النواب بالحصانة البرلمانية ، ويبدون رأيهم في مختلف شؤون الدولة بمنتهى الحرية والصراحة ، وقد ظل هذا النظام البرلماني قائما حتى فقد الخلفاء سلطتهم الزمنية ، ففقد المجلس سلطته السياسية ، وقصر مناقشاته على المسائل الفقهية والدينية ، وقد حذا امراء آل بويه والساجوقيون والأيويون حذو الخلفاء العباسيين

واستعانوا بالمجالس النيابية في الادارة الحكومية في الممالك والاقاليم التي خضعت لسلطانهم

وكان الخلفاء في عهد الحكومة الاوتقراطية يستعينون في إدارة الشؤون بطائفة من الولاة أصحاب الكفاية الادارية والدربة السياسية وقد جروا على سنة تغيير الولاة بعد مدد قصيرة حتى لا يستأثروا بالسلطان والنفوذ في ولاياتهم، وكانوا يعينون معهم أصحاب البريد ليخبروا الخليفة بكل صغيرة وكبيرة من أمور الادارة الاقليمية، وكان بجانب صاحب البريد عدد كبير من الجواسيس والمخبرين نساء ورجالا، وكانوا يكتبون للخليفة التقارير الوافية عما يجري في دائرة اختصاصهم، وقد استمرت هذه الاداة السياسية في عملها حتى سلب الاتراك والديلم وغيرهم الخلفاء سلطتهم فاندثرت تلك الاداة النافعة

دواوين الدولة والادارة المدنية :

سارت الادارة في أنحاء الدولة العباسية على أسس ثابتة منظمة لا تقل عما يجري في الممالك المتمدينة اليوم، ولعلها كانت في بعض الاقطار أحسن مما نراه في هذا العصر، وكانت وظائف الحكومة مفتوحة للمسلم والمسيحي واليهودي والهندي، والأعمال موزعة بين دوائر الحكومة توزيعا محكما، وكان ديوان العزيز هو ديوان حكومة الخليفة، وكان يرأسه كبير الوزراء وكان الوزراء في عصر الخلفاء الاقوياء ينوبون عن الخليفة ويسرون دفة الأمور باسمه، ولما ضعف نفوذ الخلفاء ضعف نفوذ الوزراء أيضا، وحل محلهم أمير الامراء. وكان في قصر الخليفة موظف يماثل رئيس الديوان العالي في الوقت الحاضر يسمى استاذ الدار، واشتهر من دواوين الدولة غير الديوان السابق ديوان الخراج وكان عمله جمع الضرائب وفرضها وتنظيم

أمور الجباية وشؤونها، وديوان الزمام واختص بالدخل والنفقات، وديوان الحربية الذي أشرف على الشؤون العسكرية وترتيب الجند والنظر في أمر مرتباتهم وتنقلاتهم إلى غير ذلك مما تشرف عليه وزارة الحربية في الوقت الحاضر، وكان هناك ديوان للبريد والرسائل وكان من أخطر الدواوين شأنًا وأكبرها عملاً، وكان هو الذي يتولى تحرير الرسائل والمكاتبات الرسمية ويرد على جميع الرسائل التي ترد من الأقاليم والإمارات والممالك الأجنبية، وكان رئيسه هو الذي يحمل خاتم الخليفة وكان يحضر مجلس الخليفة ليدون ما يقال فيها ويلخص ما يرفع من المظالم ويرد عليها، وأما الشرطة فكان لكل مدينة شرطتها ولكل شرطة رئيس «حكم دار»، وكان الشرطة أقساماً يوزعون على البلدان التابعة في إدارتها للمدينة، وكان عليهم حماية الناس والمتاع والعسس ليلاً، وكانت مرتباتهم حسنة ليعتقوا، وكان من ضمن أعضائها موظف يسمى المحتسب وكان عليه مراقبة المكاييل والموازين، ويعاقب المدلسين والغاشين ويلاحظ الأسواق ويراقب عمليات البيع والشراء. وقد أنشأ العباسيون وظيفة أمير الحج لحماية الحج من غارات البدو وكان يخرج مع جنده لمراقبة سير الحجاج والعمل على راحتهم

إيرادات الدولة :

نظمت الدولة العباسية ماليها تنظيمًا بديعاً ورتبت شؤون ميزانها المالى ترتيباً جيداً، حتى كان دخلها كافياً لسد نفقات الإدارة الحكومية من مدينة وعسكرية، ولم يمد الخلفاء يدهم إلى الاستدانة كما يفعل ملوك العصر الحديث وظل الخليفة قابضاً على ناصية الحال مسيطر على موارد الدولة وخرجها عند ما كان صاحب الإثم والنهي في المسائل الدينية والمدنية، ولما ضعفت

هذه السيطرة وفقد الخليفة نفوذه السياسى اضطربت الشؤون المالية اضطرابا شديدا، وفسدت أحوال الدولة تبعا لذلك

هذا وكانت الدولة تستمد إيراداتها من ضريبة الأرض، وضريبة الدخل، والعشر والزكاة، والصدقات ورسوم الجمارك، وضريبة الملح والاسماك، وعوائد حوائث التجار والباعة الذين يبيعون فى الشوارع فى أماكن خاصة، وضريبة المصانع والمعامل والطواحين وضريبة الواردات وقد اغاها الواثق لتشجيع التجارة البحرية

هذا وقد نقل ابن خلدون فى مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة ثبتت الدولة العباسية فى عصر المأمون، وهو أثر تاريخى يدل على مقدار الجباية الخراجية فى جميع الأقاليم التى خضعت للدولة إذ ذاك، ويؤخذ منه أن الخراج بلغ مجموعه فى ذلك العصر الزاهر ٣١٨٦٠٠٠٠٠٠ درهم و ٣٨١٧٠٠٠٠ دينار وذلك غير العروض التى كانت تجبى من أقاليم الدولة وكانت بمثابة ضرائب عينية من عسل وأثواب وسكر وحلل وأبسطة وزيت ودقيق إلى غير ذلك: « وكان هذا كله يرد إلى بغداد حاضرة الخلافة ويتصرف فيه الخليفة فيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته ويصرف منه فى الحوادث التى تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقي بعد ذلك كثير يهب منه ما شاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يدور معظمه فى الحاضرة الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفا. »

القضاء والزراعة والصناعة والتجارة:

كان القضاء فى الدولة العباسية يسير على سنن قويم وكانت الحقوق المدنية لأهل الذمة تترك لرؤسائهم الروحانيين أما قضايا المسلمين فكان

القضاة ينظرونها وكان لكل مدينة قاض خاص ، وفي المدن الكبيرة كان للقضاة نواب وكان قاضي القضاة في بغداد أكبر موظف في الدولة ، وكان في العاصمة ديوان يسمى ديوان النظر في المظالم وكان ينظر في الجنايات والقضايا الهامة وكان يرأسه الوالي أو الخليفة

أما العناية بالزراعة فكانت كبيرة وبخاصة في بلاد الجزيرة لخصوبة أرضها وصلاحية تربتها للنبات ، فحفرت فيها الترع وشقت القنوات وأصلحت الاراضي الزراعية حتى أصبحت ربوع الدولة جنانا زاهرة

وكانت العناية بالصناعة لا تقل عن تلك العناية الزراعية ، فاستخرجت المعادن واشتهرت خراسان بمناجمها الحديدية واستخرج الرصاص من كرمان ، وصنع الرخام والصيني في تبريز ، واستخرج الملح وصنع الكبريت والصابون والزجاج ، وافتتحت المصانع في بغداد وسامرا وفي غيرهما من أمهات المدن ، وأنشئت المعامل لصنع الورق والمصانع للتطريز بالذهب والحريز ، وانتشرت صناعة السجاد واشتهرت الكوفة بصناعة الحرير والمناديل

أما التجارة فقد اتسع نطاقها في عهد العباسيين ووصلت متاجرهم بحرا إلى الهند والصين وبرأ إلى داخل أفريقيا والصحراء ونهر النيجر وتداول الناس نقود الدولة العباسية في أنحاء العالم المتمدين

الحالة الاجتماعية والعلمية :

ارتقت الحياة الاجتماعية في الدولة العباسية ارتقاء عظيما وسبق الشرقيون أهل الغرب في مضمار الحضارة والعمران وتقدموا في طريقة زيهم وأساليب معيشتهم المنزلية ، وتقدمت الأسرة تقدما باهرا واشتركت

المرأة مع الرجال اشتراكا فعليا في ميدان العمل والاجتماع ، ونبغ القوم في
الفنون الجميلة والموسيقى ، وأدخلوا أنواعا كثيرة من الألعاب الفارسية
بين الطبقات الراقية ، واشتهرت كثيرات من النساء في عهد الرشيد والمأمون
والمعتصم بالعقل الراجح والكفاية الأدبية والشعرية ، ومنهن من نبغ في
علم الشريعة مثل زينب أم الوليد وقد عاشت في بداية القرن الثاني عشر
الميلادي ، وحازت ثقة علماء عصرها وسمحوها لتدريس الشريعة . وكانت
أم المقتدر ترأس محكمة الاستئناف وتنظر في الدعاوى وتقابل رجال الدولة
والسفراء والأجانب ، وكان النساء في عصر الرشيد والمأمون يشتركن
مع الرجال في المناظرات الأدبية والعلمية ، وكن يشتركن أحيانا في المسائل
السياسية ، ويتبارين في الشعر فارتقت المجتمعات المنزلية ، وانتشرت الثقافة
والتهذيب بفضل هذا الاشتراك ، ولقد اشتهرت الملكة زبيدة زوج الرشيد
باجادة الشعر وحصافة الرأي ، وكثيرا ما أرسلت الى زوجها وهو في ميادين
القتال بقصائد رقيقة من نظمها ، وكتبت للمأمون بعد وفاة ابنها الأمين
كتابا له مكاتبه في عالم الأدب ، وكذلك كانت حال بوران زوج المأمون
فقد كانت على جانب عظيم من الفضل والأدب

أما الحالة العلمية فقد امتازت الدولة العباسية عن كل الدول الإسلامية
بأنها كانت مشرق العلوم والمعارف ومطلع الرقي الأدبي في العصور
الوسطى في العالم المتمدين ، وكانت دولة العلم والتدوين والترجمة ، وظهر فيها
الفظاحل من العلماء الذين نبغوا في كل العلوم وضرخوا فيها بسهم صائب
وكانت بغداد زهرة مدن العالم وكعبة طلاب العالم ، وسوقا يقصدها
الطلاب من كل حدب وصوب ، وكثرت فيها دور الكتب وكان لبائعي
الكتب منزلة بين الناس ، وكانت مكباتهم أندية للطلبة والباحثين ، وفيها

كانت تقام المجادلات الفلسفية والدينية بين المعتزلة وأهل السنة وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعري في مسألة القضاء والقدر، وفي رؤية الله سبحانه وتعالى يوم الحساب وخلق القرآن وغير ذلك من الموضوعات العلمية وكان أصحاب تلك المكتبات من ذوى العلم والرأى والمؤلفين، ونشطت صناعة الكتابة والخط، وانتشرت المؤلفات ورخصت أثمان الكتب فأقبل الناس على شرائها، ونهضت البلاد نهضة علمية وفكرية في عصر المأمون إلى درجة كبيرة، وألفت الكتب في الآدب والتفسير والحديث ونبغ عدد عظيم في علوم الطب والفلك، وشيدت المراصد الفلكية وتقدم فن الصيدلية وغيره من العلوم الحديثة كعلم النبات والتاريخ، وأرسلت البعث العلمية إلى القسطنطينية والاسكندرية والهند، فترجموا علوم الطب والفلك والفلسفة الألهية والرياضة والطبيعة والمنطق، وكان المأمون يفيض الذهب النضار على الناغبين في الترجمة حتى كان يعطى أجرة ترجمة الكتاب وزنه ذهباً

وكان للنهضة العلمية الإسلامية أثر كبير في أوروبا عند ما أفاق أهلها من سباتهم، وطر حوا عن أعناقهم جهالات العصور المظلمة، وأخذوا يعملون بما أخذوه من العرب. هذا وقد نبغ في العلوم الشرعية الامام البخارى والامام مسلم والامام أحمد بن حنبل وأبو الحسن الأشعري، واشتهر في علوم الطب والصيدلة الحرث بن كلدة ويحيى بن جاسوية طيب الرشيد وعلى بن رضوان وعلى بن سينا وكانت كتبه تدرس في فرنسا وأوربا ستة قرون، والرازى (٣٣٠ هـ) وهو أول من استعمل المسهلات في الصيدلة وجبرائيل بن بختيشوع واسحاق بن سليمان (٩١٥ هـ) وقد ألف كتابا في تشخيص الأمراض وتشريح الأعضاء ووصف وظائفها، وفيه صفات طبية مضادة للسموم، أما في العلوم الرياضية والفلكية فقد وضع محمد

ابن موسى الخوارزمي الجبر على أساس ما عرفه من الاغريق والهنود،
وتقدم علم الجبر على يد العرب حتى حلت المعادلات من الدرجة الثالثة
وقد اخترعوا في حساب المثلثات الظل والجيب، ووضع جابر الفلكي
قانونا في حساب المثلثات، وقد ألف العرب أرسادا فلكية وأزياجا
وحسبوا الكسوف والخسوف، واخترعوا رقاص الساعة والمزاويل
الفلكية، وصححوا كتاب المجسطي تأليف بطليموس، وعنه أخذ أهل
أوربا الأرقام الحسابية وعلم الجبر والمقابلة. وقد نبغ كثير من العرب في
علمي التاريخ والجغرافيا، ومن أشهر المؤرخين الطبري والمسعودي وابن
الاثير وابن خلكان وابن شاكره أبو الفرج وأبو الفداء وغيرهم. وفي
عصر الدولة العباسية كتب المؤرخون في فلسفة التاريخ وحذا حذوهم أهل
أوربا، وظهر منهم كثير برعوا أيضا في الجغرافيا فانهم أول من جابوا
الاقطار ورسموها ووصفوها وصفا دقيقا لا يزال كثير منه في مؤلفاتهم الممتعة
وكان للاغانى والشعر عند العباسيين منزلة سامية فكان الخلفاء
يفيضون العطايا الواسعة عليهم، وكان الشعر في كل ضرب من ضروبه
حماسة وغزلا ورتاء وغيرها فوق الغاية من متانة الالفاظ وجلال المعاني
وبلغ الغناء من الحسن جودة لم تكن في عهد غير العباسيين، وكان لكبار
المغنيين منزلة رفيعة في الدولة كإبراهيم الموصلي وابن اسحق وابن جامع
وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق العد والحصر

اضمحلال الدولة العباسية وسقوطها :

ملأت الدولة العباسية العالم المتمدين حضارة وعلما، ولكنها ما لبثت
بعد انقضاء عصر خلفائها العظام بموت المعتصم أن دخلت في دور انحلالها

وتدرجت في اضمحلالها حتى سقطت نهائيا على يد المغول كما سبق أن ذكرنا ولهذا الانحلال ثم السقوط عوامل مختلفة وأسباب شتى نجملها فيما يلي:
أولا : ارتكزت الدولة العباسية عند بدء قيامها على القوة الفارسية واستعان خلفاؤها بالخراسانيين على توطيد عرشهم وتثبيت مركزهم واستخدموهم في كل شيء من سقاية الماء إلى قيادة الجيوش ، واتخذوا منهم البطانة والحاشية ولوهم الوزارة ، فأخلص الفرس لهم إخلاصا قويا وخدموا الدولة بأخلاص وأمانة ، وظلوا كذلك حتى انقضت فترة الخلفاء العظام فقلبوا ظهر المجن لها وانقلبوا أعداء وطعموا في أطرافها وعملوا على الاستقلال بأماراتهم ، ونازعوا الخليفة نفوذه وسلطانه ، فاختلفت أمور الجباية واضطربت الحال المالية ، وعجز الخلفاء عن دفع مرتبات الجند الأجانب فثاروا عليهم واعتدوا على مكنتهم ، فسقطت هيبتهم بين الجماهير ، ولجأ هؤلاء الخلفاء إلى العناصر الطامعة في أملاك الدولة فسهلوا عليهم سبيل الفتح وأرشدوهم بعملهم إلى مواطن الضعف فانقرط عقد الدولة

ثانيا : امتاز العالم الاسلامي عند بدء قيام الخلافة الاسلامية بالوحدة السياسية والدينية ، وخضع الناس جميعا لأمر المؤمنين في الشؤون الدينية والمدنية ، وأقروا له بالزعامة ، فسارت الدولة الاسلامية سيرا ايجابيا وفتحت البلدان والاقطار ، ونشرت الدعوة الاسلامية شرقا وغربا واعجب الجميع بحضارة العرب وجلال الاسلام ، ولم يفكر انسان في عصر الخلفاء الراشدين الاوائل أن ينازع الخليفة تلك الزعامة ، ولكن لم تدم الحال طويلا وانقضت هذه الوحدة بانقضاء عصر الخلفاء الاقوياء واضمحلال الدولة الاموية وظهر في أنحاء الخلافة العربية وخصوصا في بلاد المشرق أفراد نازعوا أمير المؤمنين سلطته الروحانية

ولما تأسست الدولة العباسية غضب العلويون وأنصارهم ونشروا بين الناس أنهم أحق بالخلافة من العباسيين أبناء عمهم ، والتف حولهم جمهور كبير من أهل الشيعة وناصروهم في حروبهم على الخلفاء العباسيين ، وعظم أمر الدعاة العلويين ، وكشفوا للناس عن مواطن ضعف القائمين بأمر الخلافة الاسلامية ، فضعت الهيبة الدينية في القلوب ، واتهموا السوء تلك الفرصة وحرکوا الثورات ، وشجعوا الفتن والفتن حتى يصلوا الى مآربهم السياسية من وراء هذا الانقسام وتلك الفرقة ، وانتشر عقد الوحدة الدينية التي أرهبت العالم المتمدن يوما من الايام بقوتها ، وظهرت دول في شرق الخلافة العباسية وأخرى في غربها تعمل على معاضدة العلويين ، وقامت الدولة الفاطمية في شمال أفريقية ومصر ، وانتزعت من أملاك الخليفة العباسي فلسطين وسورية والحجاز ومعظم اسيا الصغرى ، وظهرت الدولة الزيدية في طبرستان وجرجان ، وظهرت دول أخرى في شبه جزيرة العرب ، واشتغل الخلفاء العباسيون بأمر تلك الفتن ، وجرّدوا جيوش دولتهم لانحادها والتضييق على العلويين ودعاتهم أينما وجدوا ، واحكم العلويون دعوتهم ونظموا صفوفهم ، وبعثوا دعواتهم الى جميع الاقاليم الاسلامية غربا وشرقا ، واعتنق القرامطة وغيرهم عقيدة العلويين ، وحرکوا نار الثورة والاضطراب فزلزلوا جوانب الدولة . وفي اوائل القرن السادس الهجرى ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام فارهقوا الناس ، وافسدوا الدول ، وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بني العباس وظل هؤلاء العلويون ينخرون في عظام الخلافة الاسلامية حتى قضوا على الدولة العباسية واسقطوها

ثالثا : كان من نتائج الخلاف الذي شجر بين الاميين والمأمون أن ازدادت قوة العنصر الخراساني ، وظهر البيت الطاهري وهو أول بيت من

الموالى استقل بأمر خراسان واستكثر المأمون وأخوه المعتصم من شبان الأتراك وتآلفت منهم الجيوش في عصر المعتصم . واستند الخليفة على قوتهم في إقامة دولته واستغنى عن العرب وعصية العرب ، وعن أبناء خراسان أيضا ، وقد ارتكب بعمله هذا خطأ جسيما . إذ أن هؤلاء الأتراك الذين اصطنعهم لم ينسوا الغتهم ولا بلادهم ، وعملوا على الاستئثار بالنفوذ والسلطان في الدولة ، وحصلوا على ما أرادوا وأصبح الخلفاء في يدهم العوبة يحركونهم كيفما شاؤوا ، وضعفت صولة الخلفاء وقلت قيمة أقرانهم وفعالهم وأوامرهم ، ورأى ولاة الأقطار أن الفرصة سانحة للاستقلال بما تحت أيديهم لأنهم لم يكونوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ في عاصمة الخلافة . وعلى ذلك لم ينتصف القرن الثالث الهجري حتى كان الدولة العباسية تحيط بها دولة مستقلة عن سلطان الخلفاء . أما العنصر العربي الذي أمتاز بالشجاعة والاقدام وانكار الذات ورفع لواء الإسلام عند بدء ظهوره فقد ضعف ضعفا عظيما وتفرق قبائل وعصائب عاد الكثير منها إلى مواطنها في القفر والصحراء ، ففقد الخلفاء أقوى سند كانوا يعتمدون عليه واختل التوازن بين عناصر الدولة وساءت الأمور

رابعا : جرى الخلفاء العباسيون على سنة نقض العهود وعدم احترام الوعود ، ومصادرة الأموال فأدى ذلك إلى نوع من سوء التفاهم بين الخليفة والولاة ، وازدادت الحال تخرجا بذيوع الرشوة ، فكان العامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء والناس على اختلاف طبقاتهم ، وكان المال يتداول بالمصادرة والرشوة ، فاضطربت أحوال الدولة المالية أيضا اضطرابا شديدا ففسد الأمر ، وعكف الخلفاء بعد الواثق على مجالس الشراب والالغاني والقصف والاشتغال باللذات

والملاهي ، وانصرفوا عن مصالح الدولة وتركوها إلى غلمان الأثر الكوفوادهم
فتصرفوا على حسب أهوائهم وما ربههم الذاتية ، فاضمحلّت الدولة وسارت
بخطوات سريعة نحو الانحلال والسقوط
جاء في كتاب حماة الإسلام ما يأتي : « اضمحلّت الخلافة العباسية
بالاسباب التي اضمحلّت بها الخلافة الأموية من جهة الخروج عن جادة
العلم والعدل ، وزادت عليها عوارض أخرى اصابها متتالية فكانت أشد بلاء
من تلك الأسباب المتقدمة : منها كثرة المذاهب واضطهاد الأئمة والتفرق
في الاعتقاد ، وظهور أصحاب الدعوات الباطلة كالباطنية والفاطمية والشيعة
والمعتزلة والرواندية وغيرهم . ومنها كثرة وجود دخلاء الاعاجم الذين
فعلوا في الدولة العباسية ما لا يفعله العدو الفاتك بعده . »

تضافرت هذه العوامل التي ذكرناها مع غيرها من الأسباب التي ضاقت
المقام عن ذكرها ، واسقطت ذلك البناء الشامخ من علوه الشاهق واضحت
الدولة العباسية وكأنها حلم من الأحلام التاريخية الممتعة وخيال من الأخيصة
البديعة التي مرت بالتقدم البشري وهو يخطو خطواته نحو العصر الحديث

انتهى

ملحق

نظرة عامة في حال الاغريق الاجتماعية

في عهد عظمة أثينا واسبرطة وأثر ذلك في المدينة العريية (١)

عظمة أثينا — عصر كيمون (٤٧٩ — ٤٦١ ق.م.)

كان لاتتصار الاغريق على القرس ٤٧٩ ق.م. أثر كبير في تاريخ العالم وفي رقيهم الاجتماعي إذ أن ذلك الانتصار حفظ لهم حريتهم ومكثهم من أن يورثوا العالم كله من غرب وشرق آراءهم في السياسة والدين والعلم والفن والفلسفة تحصين أثينا: عاد الاثينيون بعد الانتصار إلى بلادهم وقد صحت عزيمتهم على تحصين بلادهم وتجديد ما تخرب منها. وقد أشار عليهم تمستكليس بطل موقعة ميكالي أن يبنوا سوراً جديداً حول أثينا يلتجى إليه أهل الريف إذا ما حاق بهم خطر

فلما رأت الولايات المجاورة ذلك أخذت تحرض اسبرطة على التدخل في الأمر إلا أن تمستكليس تمكن بما أوتيته من دهاء أن يفاوض اسبرطة ويقنعها بحسن نية أثينا في هذا التحصين فلم تبد مقاومة تذكر، حتى صار السور منيعاً ثم فطن أهل اسبرطة إلى أنهم خدعوا إلا أنهم أخفوا غضبهم حتى تحين الفرص بنى الاثينيون سوراً آخر بعد ذلك حول بيروس ميناء أثينا فأصبحت بذلك بيروس وأثينا من أمنع بلاد اليونان تحصينا وتفرغت بعد ذلك لتتبوأ مركز الزعامة في بلاد اليونان

(١) تفضل زميلي الاستاذ عبد الفتاح الزياى بمراجعة هذا الفصل وتقيحه كما

أنه تفضل بضبط المواقع والبلدان على الخريطة المرفقة به، فله جزيل الشكر

حلف ديلوس سنة ٤٧٧ ق.م

اشترك الاغريق كلهم في الدفاع عن بلادهم ولكن أثقل الأعباء كان على عاتق أثينا فأصبح لها بعد الانتصار على الفرس مركز خاص بين المدن الاغريقية واتجهت سياستها بعد انتهاء الكفاح من فارس الى الاحتفاظ بهذه الزعامة فكونت من مدن آسيا الصغرى وجزر الارخبيل حلفاً تحت زعامتها بقصد الدفاع عن صواخ اليونانيين في أوروبا وآسيا ضد الفرس والأعداء الخارجين ، واتفقت أثينا على أن تقوم كل مدينة بتقديم عدد معين من السفن أو مقدار معين من المال لتحقيق هذا الغرض

ويعرف هذا الحلف بحلف ديلوس نسبة للجزيرة التي وقعت فيها شروط هذه المحالفة . وهذه الجزيرة واقعة في بحر الارخبيل وتعتبر مركزاً للعبادة عند اليونان إذ بها الآله ابولو وإله الموسيقى عندهم

وبتعهد الحلفاء أن يقدموا سفناً ومالاً لأثينا صاريد أثينا القوة الحربية والخزينة العامة وقد تقرر أن يجتمع كل عام مندوبون من المدن المختلفة في ديلوس للبحث فيما يهمهم من الأمور

تقدم الحلف : عمل القائد الشهير كيمون على تقدم الحلف حتى يشمل شواطئ بلاد اليونان الشرقية والشمالية ومعظم جزر بحر الأرخيبيل وبلغ عدد أعضائه نحو المائتين ، وزال الخطر الفارسي وبحررت شواطئ بحر الارخبيل وأقاليمه منهم

ولما زال هذا الخطر عن أعضاء الحلف فضل كثير دفع ضرائب لخزانة ديلوس عوضاً عن السفن والرجال ، وقبل كيمون منهم ذلك وأقنع أهل أثينا بأفضلية المال على السفن والرجال ، إذ استطاع بذلك أن يشيد أسطولاً متجانساً وي درب رجاله تدريباً حريياً واحداً . كما أن هذا أفاد أهل أثينا بشغل العاطلين في بناء السفن

خروج بعض الأعضاء من الحلف : بعد أن زال الخطر الفارسي أصبحت
أثينا بهذا الحلف صاحبة النفوذ والسلطان ونزل مخالفوها من صف الأنداد
إلى صف الأتباع ، ففكر بعض الأعضاء في الخروج من الحلف وأثارت
جزيرة تكسوس الموضوع ، وأبت أن تدفع مالا لأثينا معتمدة على مساعدة
الفرس . إلا أن كيمون أشهر عليها الحرب وأرغمها على دفع غرامة سنوية كما
سلبها حريتها ، وأصبحت تابعة من توابع أثينا . ثم ثارت جزيرة تاسوس سنة
٤٦٣ ق. م فأصابها ما أصاب جزيرة تكسوس على يد كيمون

إسبرطة وأثينا :

مصرم : علمنا فيما سبق أن تمستكليس استطاع اقناع إسبرطة بحسن نية
أثينا في التحصين ، وأن أهل إسبرطة فطنوا إلى خداعه وانتهزوا الفرصة للايقاع
به ، وقد نجحوا في ذلك فرماه الإسبرطيون بالميل لفارس فدافع عن نفسه حتى
أثبت برأته وفي سنة ٤٧١ حوكم ونفى إلى أرجوس إلى أنه تمكن من الفرار
إلى فارس ، فرحب به ملكها وغمره بالاحسان . ولما أراد ملك فارس أن يستغله
لمحاربة أثينا قيل إنه فضل الموت والانتحار على خيانة وطنه

عصيان الجند في إسبرطة سنة ٤٦٤ ق. م.

بسقوط تمستكليس ظل أهل إسبرطة أصدقاءً للآثينيين مدة ، وقد ظهرت هذه
الصدقة لما أن غضب الجند في إسبرطة بسبب استبداد أولى الأمر بهم ، ولما
أن أجمعوا أمرهم وهاجموا إسبرطة وكادوا يظفرون بها ويستولون عليها
استنجدت بأثينا فانقسم أهل أثينا فريقين فريق يرى مساعدة إسبرطة وهو
الحزب الديمقراطي وعلى رأسه افيلتيز وفريق يرى عدم المساعدة وهو حزب
المحافظين وعلى رأسه كيمون . وبعد مناقشات ومجادلات حادة انتصر حزب
المحافظين وقام كيمون بحملة يساعد بها إسبرطة سنة ٤٦٢ ق. م

اشتداد ساعد الديمقراطيين : ترك كيمون حزبه بدهن سند فاشتد ساعد
الحزب الديمقراطي ، واستطاع هذا الحزب أن يقنع الحكومة بضرورة دفع
مرتبات للموظفين حتى يتقدم للوظائف الاكفأ فقراء كانوا أم أغنياء . وكانت
هذه خطوة في سبيل تقدم الديمقراطية . وقد استطاع افيلتيز في غياب كيمون
أن يسلب مجلس الاريوباجوس حصن الاستقرائية شيئاً من سلطته السياسية
واقصر عمله على نظر المسائل القضائية المتعلقة بجرائم القتل . وقد ساعد
افيلتيز صديقه الشاب بركليز المتشبع بمبادئ الديمقراطية

سقوط كيمون سنة ٤٦١ ق.م : لما وصل كيمون إلى أسبرطة قوبل بفتور
إذ اتهمه الاسبرطيون بمفاوضة الثارين ، فاضطر للانسحاب بدون أن يأتي
عملاً ما ، فاستاء الشعب الاثيني من تلك الاهانة وحل غضبه على من كان السبب
فيها ، وصدر الحكم بنفى كيمون مدة عشر سنين سنة ٤٦١ ق.م وتغير مجرى
السياسة في أثينا وأرسلت حملة بحرية مساعدة للمصريين ضد أردشير وأخرى
برية امدادا للحملة ضد اسبرطة ، فخابت الأولى وانهمزمت الثانية ، عندئذ ثاب
الشعب إلى رشده وعرف لكيمون فضله ، فدعاه قبل أنقضاء أجل النفي وكان
بركليز ممن اقترحوا عودته . ولما عاد لم يجد قيد شعرة عن خطته القديمة
وطلب عقد الصلح مع اسبرطة وأثينا والقتال مع الفرس . فعقد مع الاسبرطيين
هدنة ٥ سنوات وشخص بأسطوله إلى جزيرة قبرص واستخلصها من يد
الفينيقيين والفرس إلا أنه مات عقب انتصاره فكانت هذه الواقعة خاتمة
الحروب الفارسية ، وقد مات كيمون بعد أن رفع أثينا إلى مركز حربي ممتاز
وقطعت في أيامه مراحل في سبيل الحضارة والعمران

عصر بركليز ٤٦١-٤٣١ ق.م

ولد بركليز سنة ٤٩٤ ق.م وكان والده اكسنثيوس الذي انتصر على

الفرس في واقعة ميكالي من أعظم القواد، وأمه من أسرة عريقة في الحسب فكان عزيزا في قومه، تعلم على يد أعظم الرجال فضلا وعلما، فعنوا به كثيرا وبذلوا ما في وسعهم لتهدبه، فنشأ عاقلا رزينا يملك نفسه في حالي الغضب والرضا، اذا خطب في قومه ذلل له القول وانقاد له اللفظ، فيخلب الألباب ويفحم الخصوم، ولا تخلو خطا بانه الحماسية من رقيق الالفاظ ودقيق المعاني وقد كان بركليز يتكشف في معيشته ويقنع بالكفاف من ثروته العظيمة وجد الشعب الاثني في بركليز ضالته المنشودة ووثق به وأسلس له قياده وولاه جميع أمره، وبقي هذا الرجل نحو عشرين عاما في يده سلطة الملوك من التصرف في أموال الدولة، والامرة على الجيوش البرية والبحرية، والقول بالحرب أو الصلح. وهو مع ذلك لم يتخذ لنفسه لقب الملك، وكان فوق جميع من عاصروه بميزاته ومواهبه، حتى أن العصر سمي باسمه، . اعتبر عصره العصر الذهبي لاثينا لظهور فنون الشعراء والفلاسفة والصناع ورجال السياسة

ومما يؤثر عن بركليز أنه كما قال بلوتارك (كان يحكم بالاقناع) فلم يجعل نفسه فوق القانون وأحسن السياسة في الداخل وفي الخارج

سياسته الداخلية:

كان يرمي بركليز في سياسته الداخلية الى أمرين خطيرين (أولا) تخويل الشعب جميع الحقوق في حكم نفسه بنفسه، (ثانيا) جعل أثينا سيدة اليونان ومركزا للسلطة والقوة السياسيتين ومهدا للصنائع والعلوم

تقدم الديمقراطية في عهد بركليز:

مقدمة عن نشأة الديمقراطية في أثينا

انقسمت الطبقات الاجتماعية في أثينا الى طبقتين: طبقة الأرقاء

وطبقة الأحرار . وانقسمت طبقة الأحرار الى أشراف وعامة . وكان بجانب هؤلاء عنصر من النزلاء الأجانب وهؤلاء اشتركوا اشتراكا فعليا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية مع الاثنيين ، ولم يشترك في الحياة السياسية الاثنية غير طبقة الأحرار ، الأشراف والعامة . وكان الأشراف في بدء قيام أثينا أصحاب السلطة فيها فكان الأشراف لهم مجلس مكون من تسعة أعضاء منتخبين يتجدد انتخابهم كل سنة ويسمى مجلس الارا كنة . وكان بجانبه مجلس آخر وهو مجلس السناتو ويسمى (مجلس الاريوباجوس) أخذنا من المكان الذي كان يعقد فيه

وفي نهاية القرن السابع ق . م ثارت البلاد طالبة تعديل دستورها لاستبدال أغنياء الأشراف بفقراء العامة ، وكان من نتائج ثورتها أن أصلح سولون الدستور

دستور سولون

جعل سولون أساس الإصلاح مقدار الثروة التي يملكها الفرد شريفا كان أم غير شريف ، ليشارك في الحياة السياسية ، وبذلك قضى على احتكار الأشراف تولى السلطة في البلاد . وأباح للعامة الاشتراك في السلطة على حسب ما يملكه من ثروة وما يدفعه من ضريبة ، فقسم السكان بحسب ثروتهم إلى طبقات أربع : الطبقة الأولى وهي التي تملك قدرا معينا من الثروة وتدفع ضريبة معينة ، والطبقة الثانية من الفرسان ، والثالثة من الذين يملكون المحراث والثيران والأرض الزراعية وكانوا فقراء ، والرابعة هم الذين لا يملكون شيئا أو كانت ثروتهم لا تبلغ حدا معينا . وقد حفظ للطبقات الثلاث الأولى جميع المناصب وهي مناصب الأركان وحفظة الخزانة وحفظة السجون وغير ذلك من الوظائف العامة . أما أفراد الطبقة الرابعة فلم يكن لهم من الحقوق السياسية الا الاشتراك في جلسات جمعيات الشعب

بقي الأشراف في دستور سولون أصحاب سلطان ونفوذ في الدولة ولكن اكتسبت الديمقراطية بعض مكاسب سياسية، فقد نص الدستور على حق مجلس الاكليزيا (الجمعية العمومية لطبقات الشعب الأربع) في انتخاب الاراكنة، وفي مراقبة أعمال الحكام وكان لها سلطة سياسية وقضائية أما مجلس الأربعمائة (وهو مجلس شيوخ ينتخب أعضاؤه من بين الأفراد الممتازين من أعلى الطبقات) فكان يشرف على أعمال الاكليزيا. وهو الذي كان يقرر موعد انعقادها ويحضر لها المسائل التي ينظرها ويراقب تنفيذ قراراتها

سلبت هاتان الهيئتان كثيرا من اختصاصات مجلس الاريوباجوس، ومع ذلك بقي هذا المجلس الحصن الحصين لطبقة الحكام المتقاعدين، وبقي له من السلطة السياسية أعلاها وأوسعها، فقد كان يراقب أعضاء المدينة ويوقع بمن خالف. كأنه سلطة قضائية عليا ويؤدي الى خزائن الحكومة ما يجتمع من الغرامات

عطل الدستور فيما بين سنتي ٥٦٠ - ٥١٠ ق. م. وعند سقوط هذا النوع من الحكم اكتسبت الديمقراطية مكاسب جديدة بما أدخله كليستينس من الإصلاحات التشريعية، ولما جاء بركليز بلغت الديمقراطية في عصره أقصى مجدها. واليك أهم المظاهر الديمقراطية في ذلك العصر. دفع أجر لأعضاء الجمعية العمومية للشعب حتى يحضروا الجلسات بانتظام فأصبحت هذه الجمعية المرجع الأعلى لأمور الدولة، وكان قولها القول الفصل في كل الأمور التي تعرض عليها - أما الشؤون المدنية للحكومة فقد أدارها مجلس الخمسة (وهو مجلس الأربعمائة القديم بعد أن عدله كليستينس) وكان ينتخب أعضاؤه بطريق القرعة من بين أفراد الشعب، وكان هذا المجلس هو الذي يحضر المسائل التي تنظر فيها الجمعية العمومية. وبجانب هاتين الهيئتين وجد مجلس العشرة يمثل الدولة في الأمور العسكرية والسياسية. أما السلطة القضائية فقد كانت مستقلة عن السلطتين التشريعية والتنفيذية، ويقوم بأعمالها

محاكم شعبية تتكون من خمسة آلاف شخص ينتخبون بالقرعة من بين سكان المدينة، ويقسمون إلى عشر فرق، وكانت هذه الفرق هي التي تقوم بالأمر القضائي، وكل عضو فيها يتقاضى أجراً. وبدستور بركليز هذا زالت القوة السياسية لمجلس الاربواكنة، وسلب مجلس الحسنة السلطة الادارية التي كانت لمجلس الاربواجوس، واستولت المحاكم الشعبية على ما كان له من سلطة قضائية

والخلاصة أن الدستور الاثيني في عصر بركليز قد فتح باباً لكل عضو من أعضاء الدولة للاشتراك في أمورها السياسية على اختلاف أنواعها، ووضع الجميع على قدم المساواة أمام القانون، وسوى بينهم في الحقوق المدنية والسياسية، فتمت بذلك الديمقراطية في ذلك العصر لطبقة الأحرار. أما الأرقاء والاعراب فقد ظلوا بعيدين من الاشتراك في الأمور السياسية، ولهذا كانت الديمقراطية قديماً محدودة المعنى إذا نظرنا إليها في ضوء معناها الحديث

سياسته الخارجية :

قلنا ان بركليز أراد أن يجعل أثينا سيدة اليونان وأن يقاوم اسبرطة مخالفاً في ذلك رأى كيمون، ولذا كانت سياسته الخارجية موجهة إلى تحقيق هذا الغرض، فشجع الاثينيين على أن يقووا أنفسهم وبحريتهم كما فعل تمستكليس من قبل، فقوى أسوارها وحصن موانئها تحصيناً مئيداً، ثم اتخذ خطوة جريئة نحو أعضاء حلف ديلوس فاستصدر أمراً بالغاء مجلس ديلوس الذي كان يجتمع فيه نواب من المدن المتحالفة للنظر في شؤونهم العامة، وبارسال هؤلاء النواب إلى أثينا، ثم شرع في تشجيع الديمقراطية ومحاربة الارستقراطية في جميع مدن اليونان، فاعتبر المتحالفون ذلك تدخلاً في أمورهم الخاصة، ورأوا فيه معاملة السيد للسود خصوصاً بعد أن حتم عليهم التقاضي أمام المحاكم الاثينية ونقل خزائن الحلف. عندئذ أصبحت أثينا من القوة بحيث ضعفت المدن الأخرى ضعفاً كبيراً، وخضع بعضها لاثينا خضوعاً لا يتفق مع تساوي الحليفات

أما البعض الآخر فقد دفعهم حبهم الذاتي الى الخروج على الاثنيين ، وقوى عندهم هذه الفكرة اعتقادهم بضعف الفرس وعدم حاجتهم الى التعاضد لاتقاء شر هؤلاء الأعداء ، فقامت أولا بالثورة جزيرة ساموس سنة ٤٤٤ ق.م واشتركت معها مدينة بيزنطة ، فلما نمت الخبر الى بركليز أسرع بالذهاب اليها للضرب على أيدي الثائرين ، فاستولى على سفن ساموس وضيق على عاصمتها الحصار حتى اضطرت الى التسليم ، وهدم الحصون وأداء الغرامة الحربية ، وسار منها الى بيزنطة فكان نصيبها ما أصاب ساموس ، ورأى بركليز بعد ذلك أنه لا يمكن اثينا تسود جميع البلاد الخاضعة لها الا بسداد الرأي وحسن التدبير ، فحمل أولا الناس على الاعتقاد بقوتها بأن جعل سفنها تقوم بمظاهرات عظيمة ومناورات ذات شأن ، ووطد دعائم القوة الظاهرية بتأسيس مستعمرات كثيرة صارت لاثينا مصارف للتجارة ومرافئ للسفن وثكنات للحاميات

الفنون والآداب في عصر بركليز:

عنى بركليز بتجميل اثينا ولم يتردد في الاتفاق عليها من أموال المتحالفين فبنيت في زمنه المعابد الفخمة ومن أشهرها (البارثينون) فوق تل عال مشرف على اثينا يعرف بالا كروبول ، وقد زينته فيدياس باجمل المناظر وصور فيه الآلة فأحسن تصويرها وأودع فيها كثيراً من آيات الجمال ومظاهر الجلال خصوصا في نصيب زيوس وقد جعل خارج المعبد تمثالا للعبودة اثينا ارتفاعه ٧٠ قدما . ويدلنا على عناية القوم بهذا الأثر العظيم ما حصل بين أهل اثينا وفيدياس عند اختيار المادة التي يصنع منها تمثال اثينا الاكبر فانه لما قال بتفضيل الرخام لرونقه الثابت كاد الناس يقتنعون ولكن لما ذكر من علل التفضيل قلة النفقة أسكتوه وصاحوا به ليكون من العاج والذهب الخالص فكان ما أشاروا به وقد شيدت أيضا دور للحكومة في فضاء خارج المدينة ينعقد فيها مجالس الخمسةائة والمجالس الاخرى ، وشيدت قصور أخرى في جهات مختلفة حتى بدت المدينة للناظرين بهيجة تأخذ بالالباب ، وصارت اثينا في هذه الفترة القصيرة تسترعى

أنظار العالم كما كانت بابل منذ قرن قبل هذا التاريخ في عهد بنو خد نصر
واهتم بركليز أكبر اهتمام بالتمثيل ورأى فيه الوسيلة لتهديب الشعب
وتربية الذوق السليم ، فبنى بالقرب من الاكروبوليس مسرحا عظيما يسع
٣٠٠٠٠ شخص ، وقد حض الناس على أن يغشوا دور التمثيل فأعطى العامة
تذاكر يدخلون بها هذه الدور بدون ثمن فكانوا يسرون اليها أفواجا أيام
الاعياد والمواسم ، ويجلسون على مدرجات خشبية ، اما الممثلون فكانوا كلهم من
الرجال وكان الالتقاء بالغناء ومن الروايات التي كانت تمثل روايات سوفوكليس
الذي كتب الروايات التمثيلية بنوعها التراجيديا (المأساة) وهي روايات تبعث
في النفس الرهبة وتحرك فيها عاطفة الشفقة وتورث القلب حزنا وأسى ، والكوميديا
وهي روايات في الاخلاق والعادات تتخللها فصول فكهة مفيدة . أما يورويديس
فكان يخرج على القديم ويستهر في رواياته بالاستقراطية ، وقد حاز تأييد الشبان
وأصر له الكهول العدا ، وقد حالوا بينه وبين الجائزة الأولى مرارا . هذا ولم يكن
يتردد بعض الكتاب في جعل رجال الحكومة أنفسهم موضوعا لروايات مختلفة
وقد كان من عادة الكتاب بعد توزيع الجوائز وانتهاء فصل التمثيل ، أن يتفرغوا
لكتابة قصصهم الجديدة على ورق البردي ، ثم يدفعونها للمثليين فيجدون في
حفظها وفي تمثيلها كما كان رجال الموسيقى يلحنون الاغاني المطلوبة

بعض عظماء الرجال المعاصرين لبركليز

عاصر بركليز غير هؤلا الروائيين سقراط سيد الفلاسفة وزعيم الفلاسفة
البشرية — وبقرات أبو الطب الذي ارتقى بصناعة الطب من خرافة الى صنعة
علمية شريفة . وبالرغم من أن التشريح كان محرما في زمنه فانه مع ذلك عرف
أمورا كثيرة متعلقة بتكوين المخ والأحشاء وغيرها

وكان يفصد ويحجم ويكوى ، وبرع جدا في تشخيص الأمراض

أما ليسانس معاصره فكان من أعظم الخطباء المفوهين . كان قوى الحججة
بليغا في بيانه ظل سيد الخطباء في اليونان والرومان زمنا طويلا

ومن هنا تدرك أن أثينا في زمن بركليز كانت مبعث العرفان في بلاد اليونان
وأن عصره كان أهمي العصور وأرقاها حتى قال أحد المؤرخين في وصفه
أي عصر يضارع عصر اجتماع فيه بمدينة واحدة سوفوكليس وافويبيديس
أعظم الشعراء وليسياس أفدر الخطباء وهيرودوت وثيوثيديس أشهر المؤرخين
وبقراط أبو الطب وأريستو فانيس رب التمثيل وفيدياس أبرع المصورين
وانكساغوراس وسقراط أكبر الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين
قوة الامبراطورية الاثينية وضعفها :

صارت أثينا في عهد بركليز أكبر دولة بحرية وارتقت فيها الفنون
والآداب وظهر فيها السياسيون، ولكن تلك العظمة كانت تتخلها عوامل
ضعف كثيرة، فان المدن التي كونت الامبراطورية كانت خاضعة لاثينا خضوع
العبد للسيد كما عرفت، فنظرت الى أثينا نظرة الكراهية وألمقت، وعدتها قاضية
على الحرية الهلانية، وأخذت تحين الفرصة لتثور بها وتخلع ذلك النير الثقيل
عن أعناقها. فعظمتها كما ترى كانت مستندة الى القوة وحدها ولو أحسنت الى
نفسها لاتخذت من حلف دياوس سلاحا ينصرها في كل ملة، ولكنها استبدت
فكرها الناس، ولو أخذتهم أثينا بالحسنى لامكنتها أن تحوز سيادة البحر الايض
المتوسط، وتقضى على تاريخ روما في أول عهده بالجمهورية، يضاف الى النظم
التي وضعها بركليز فيما يختص بدفع أجور للعامه كانت عاملة على فساد أخلاقهم
كما أن إقبالهم على دور التمثيل كان باعثا في نفوسهم الشعور بالترف والميل الى
الكسل، حتى أنهم نظروا الى الاشغال العامة نظرة الازدراء والاحتقار فضعفت
قواهم المعنوية وظهر هذا الضعف جليا في الحروب البلوبونيزية

الحروب البلوبونيزية

أسبابها

(١) انقسام الولايات اليونانية شطرين مختلفين في العادات والنظم والتقاليد.
وقد أدى هذا الانقسام الى سوء التفاهم (٢) ما قام به الفرس من

الدسائس للتفريق بين مدن اليونان ، فقد عرفوا كيف يربحون بنثر الذهب ما عجزوا عن كسبه بأشهار السلاح ، وقد ساعدهم على ذلك ضعف الوطنية الذي تفشى في بلاد اليونان ، (٣) نظر اسبرطة بعين الحسد والقلق الى نهضة أثينا الأدبية والسياسية ، فكانت تبرص لها زلة تسقطها من سماء مجدها وغطرستها فكانت اسبرطة النواة التي تجمع حولها عوامل السخط والاستياء من تصرفات أثينا وقضاها القضاء المبرم على تجارة حلفاء اسبرطة وبخاصة تجارة قورنثة . كل هذا أوجد قضية خطيرة بين أثينا واسبرطة لا يمكن الفصل فيها الا بتحكيم السلاح . غير أن ذلك لم يكن ليشعل نيران الحروب إلا اذا تطاير شرر الخلاف من ثنايا ما يضمره كل فريق للآخر من سوء ، فلما همت قورنثة بتأديب مستعمرتها جزيرة كركيرا التجأت هذه إلى أثينا ، فأخذت بيدها والتجأت الأولى الى أسبرطة ، فشدت أزرها وابتدأت الحروب الكبرى التي سميت الحروب البلبونيزية

وظهرت فيها أمة اليونان كأنها أمة تنتحر ، واستمرت من سنة ٤٣١ حتى سنة ٤٠٤ ق.م واتته بالخلال الأمبراطورية الأثينية

الحرب وموت بركليز سنة ٤٢٩ ق.م

الدور الأول:

حشدت اسبرطة وحلفاؤها طيبة وقورنثة جيوشها وأغارت على أثينا فأمر بركليز جميع المقيمين خارجها أن يلتجئوا اليها ، فحملوا كل متاعهم ودخلوا المدينة ، وانبثوا في أنحائها حتى ضاقت بهم المعابد والمسكن . فلما زحف الجيش الاسبرطي وجد نفسه وسط خراب وصحراء مقفرة وأمام أسوار شاهقة منيعة ، وفي أثناء ذلك كان القواد الاثينيون يخرجون بأساطيلهم العظيمة ويحرزون نصرا بحريا على أعدائهم ويستولون على سفنهم . وقد كان من سوء حظ الاثينيين ان انتشر الوباء بينهم بسبب ازدحامهم ، فخصد في أرواحهم ولم يرحم بركليز رجل الساعة في أثينا في وقت ما كان أحوج الاثينيين فيه اليه . تركت أثينا

بعد موته بدون حكومة تصلح لإدارة الأعمال وطمع رؤساء الأحزاب في مركزه وظهر جماعات من المتاجرين بالوطنية يتملقون الشعب، ويرونه الأداة لمجدهم، تعوزهم حكمة بركليز ورويته. وقد أطلق على هؤلاء «الديماجوجيين»، وشغلوا الشعب في حروب بعيدة، ونخص بالذكر منهم كليون والسياديس فانهم أثاروا في رؤس الشعب حمية الحرب وقاوموا أنصار السلم مثل نقياس ما استطاعوا

ثورة لسبوس وكر كيرا سنة ٤٢٨ — ٤٢٧ ق. م

حدث أن ثارت جزيرة لسبوس على أثينا ولم تستطع أسبرطة مديد المساعدة لها فحاصرتها أثينا حصاراً عنيفاً وقتلتهم حتى أذعنوا، وأعملت السيف في رقابهم بعد ذلك. وفي كر كيرا كان الهول أشد فان الأحزاب السياسية بعد أن اقتتلت نحو الستين استنجد الديمقراطيون بأثينا فأخذت ييدهم، وقامت بنصرتهم وسلمتهم زمام الأحكام فأعملوا الذبح في مخالفهم

بقيت بعد ذلك الحروب بين أسبرطة وأثينا سجالات إلى أن رجحت كفة أثينا، ونزل الاثينيون بيلوس سنة ٤٢٦ ودعوا الهيلوت (المستعبدين لاسبرطة) إلى الحرية. وكان قائد الأسطول الاثيني ديموستين فارتاع أهل اسبرطة وطلبوا الصلح، فتشدد كليون في الشروط فلم يقبل الاثينيون، واستمرت الحرب وأرسل كليون إلى بيلوس لمعاونة ديمستين وأحرز الاثنان انتصاراً سنة ٤٢٥ ق. م وعادوا بأسرى كثيرين من جزيرة أسفكتاريا، فتقوى ساعد حزب الحرب على حزب السلام أو حزب المحافظين في أثينا وعلى رأسه نقياس

حدثت بعد ذلك مناوشات انتهت بقتل كليون وقتل ملك أسبرطة وبموتها تعادلت كفتا الحرب وفاز أنصار السلم. وقد أوفد الاثينيون نقياس إلى أسبرطة للمفاوضة في أمر الصلح وفي سنة ٤٢١ ق. م استطاع نقياس أن يعقد الصلح الذي سمي باسمه، وتهادن مع اسبرطة خمسين سنة، وردت كل من اسبرطة وأثينا ما فتحته من البلدان ومن أسرتهم من الرجال، وبذلك عادتا إلى النقطة التي ابتدأتا منها بعد حرب دامت عشر سنوات شلت فيها حركة التجارة وضاعت فيها الأموال

نقض الصلح وظهور السياديس سنة ٤١٩ - ٤١٥ ق. م

ظهر في أثينا بعد صلح نقياس زعيم ديما جوجى جديد هو السياديس عرف بجرأة كانت تصل به الى حد الطيش، وقد استطاع بفصاحته أن يقود الشعب ويحمله على تنفيذ ما ربه، وقد رأى أن الحرب وحده هو سبيله الى المجد والزعامة، وقد لاح له فرصة الحرب مع اسبرطة عند ما علم ميل ولاية ارجوس بالتحالف ضدها، فخطب ودها وعقد معها تحالفا دفاعية هجومية، فاستاءت اسبرطة وحاربت ارجوس وأقامت فيها حكومة ارسقراطية تعاقدت مع اسبرطة وألغت تعاقدها مع أثينا فاعتبر السياديس هذا العمل من جانب اسبرطة نقضا للصلح وهاجم جزيرة بيلوس ونكل بأهلها

حملة صقلية سنة ٤١٥ ق. م

رغب السياديس الاثينيين في الحملة على صقلية بحجة مساعدة بعض المدن ضد سيراقوسة أقوى مدن صقلية وزعيمة المستعمرات اليونانية فيها، وعارضه نقياس ورأى الخطر كل الخطر في الحملة، ولكن الاثينيين لم يأخذوا برأيه وأعدت أثينا لتلك الحملة من العدد والرجال ما لم تره من قبل مدينة من مدن اليونان، وكان على رأسها السياديس ونقياس، وما كادت الحملة تسير حتى استدعى السياديس لمحارمته فانقلب خائنا وانحاز الى اسبرطة، ودلها على مكان الضعف في أثينا — أما نقياس فقد انفرد بالقيادة وتراخى في الحملة على سيراقوسة، وجاء المدد من اسبرطة وانتصر الجيش السيراقوسى والاسبرطى على جيوش أثينا، وتغيرت مجرى الاحوال، وأصبح الجيش محصورا بعد أن كان محاصرا فانخاع قلب نقياس وطير الخبر الى أثينا فأمدته بجيش عظيم تحت قيادة ديمستين بطل بيلوس، وحمل على سيراقوسة حملة فقد فيها أنفى رجل وأعقب ذلك انهزام شديد في وقعة بحرية فقدوا فيها أسطولهم مصدر قوتهم وموضع آمالهم، ولم يبق أمامهم للنجاة الا سبيل الهرب. فانهمزمت الحملة شرهزيمة وانتصر أهل سيراقوسة سنة ٤١٣ ق. م انتصارا حاسما وقبضوا على القائدين وأعدوهما. وأخفقت الحملة اخفاقا تاما.

الدور الأخير من الحرب ٤١٢ - ٤٠٤ ق. م.

تشجع الاسبرطيون واتخذوا خطة الهجوم وخطبوا ود الفرس وتحالفوا معهم، وحرصوا مدن آسيا الصغرى على الخروج ضد أثينا، ولكن الاثينيين بذلوا جهدهم في وقف تلك المدن عند حدها. حدث في ذلك الوقت أن طرد الاسبرطيون السياديس لسوء مسلكه معهم، فقصده فارس وأقنعه بفائدة تحالفها مع أثينا ونقضها التحالف مع اسبرطة، وكان بجزيرة ساموس جيش أثيني بذل له السياديس كثيرا من مال الفرس ترغيبا له في السير تحت امرته، فقاده واتصر به على الاسبرطيين وفي وقتين بحريتين سنة ٤١١ ق. م. ووطد سلطان أثينا في جهات كثيرة ودخل أثينا دخول الظفر سنة ٤٠٧ ق. م. فأعدت اليه الحكومة أملاكه وأمواله وصرح له أن يعمل على ايجاد الاتحاد الاغريقي، ولما لم يستطع انجاز ما تكفل به اعتزل العمل ولجأ إلى معقل خارج بلاده حتى اغتاله أحد الفرس فقدت أثينا بموته خير قائد ولكنهم واصلوا الحرب، واشتبكوا مع الاسبرطيين في معركة أجوس بوتامى، وفيها باغتهم القائد الاسبرطى ليساندر وحال دون وصول الغلال الى أثينا فقاتل الاثينيون حتى أرغمهم الجوع على التسليم وبذلك انتهى أزمى عصور أثينا سنة ٤٠٤ ق. م.

عقد الصلح سنة ٤٠٤ ق. م.

أرسلت أثينا إلى اسبرطة تطلب الصلح فعدت الأخيرة مؤتمراً من حلفائها، وأخيرا قرروا (١) هدم حصون أثينا وقلاعها وتسليم سفنها الحربية (٢) التنازل عن الاملاك الخارجية (٣) التصريح للأشراف المنفيين بالرجوع إليها ثانيا، وتسليم ليساندر المدينة وأحرقها وسط نغمات الموسيقى ولم يكتف بهذه الاهانة بل تدخل في شئون الحكومة، وشد أزر الحزب الارستقراطي وأقام من أنصاره ثلاثين وجلا حكاما على المدينة، طغوا وبغوا وجرود الهياكل من أثانها وصادروا الأغنياء في أموالهم، ثم أعيدت الحكومة الديمقراطية ثانياً بعد انهزام الثلاثين جباراً، ولكنها كانت ديمقراطية شوهاء

الكفاح الاخير بين الولايات الاغريقية :

زعامة اسبرطة

قبل اثينا مرغمة الانضمام إلى الاتحاد الاسبرطي، وأصبحت اسبرطة زعيمة الولايات الاغريقية، فوزعت جنودها على حصون البلاد واحتلتها، وأخضعت الجمهوريات الصغيرة بكل عنف واستبداد، وأقامت حكومات متعددة جعلت السلطة فيها لعدد صغير من الارستقراطيين وأيديتهم بقوتها (الحكومات الاوليجاركية)، وقامت بين الارستقراطيين والديمقراطيين منازعات كان من نتيجتها أن أصبح الكثيرون من أهل البلاد الاغريقية وخاصة أثينا يعيشون خارجها في منفاهم يعملون على اسقاط من كان سببا في نفيهم

سقوط اسبرطة وزعامة طيبة

كره الاغريق حكومة اسبرطة وتحالفت أثينا وطيبة على اسقاط اسبرطة، وانضمت اليها كورنثة وأرغوس، واتخذوا من اشتغالها بمحاربة الفرس (٣٨٧ - ٢٩٥ ق.م) فرصة وثاروا عليها، وقتل في هذه الثورة ليساندر إلا أن أسبرطة صالحت الفرس وعملا معاً على اخضاع أثينا ثانياً فخضعت — ولما لم تستطع اسبرطة أن تسير في البلاد سيرة العدل وانصاف عد الناس زعامتها غير مشروعة، وكان أول الخارجين عليها الديمقراطيون من أهل طيبة — قام هؤلاء وقلبوا الهيئة الحاكمة وأجبروا الحامية على التسليم، وفي أثناء ذلك جددت أثينا أسطولها وهاجمت به اسبرطة وهزمتها، فأصبح موقف اسبرطة حرجا وطلبت الصلح، ف عقد مؤتمر في اسبرطة حضره مندوبو جميع الولايات الاغريقية، وعنى الجميع بصالح البلاد العام إلا أن الصلح لم يتم وظهر القائد الشهير الطيبي ايباموننداس وهزم الاسبرطيين في موقعة فاصلة سنة ٣٧١ ق.م، فسقطت عظمة اسبرطة وآلت الزعامة إلى طيبة، إلا أن هذه الزعامة

كانت قائمة على وجود هذا القائد فلما قتل في معركة بحرية (٣٦٢) ق. م زالت قوة طيبة برا وبحرا

مغزى ذلك كله أن أئينا ثم أسبرطة ثم طيبة عجزت عن تحويل الاغريق إلى أمة متحدة ، وأن الاغريق على تفوقهم العقلي لم يعرفوا كيف يوحّدون صفوفهم حتى عند ما دهمهم المقدونيون ، وإن عظمتهم تتجلى في فنونهم وآدابهم وفلسفتهم ، ولا تتجلى في سياستهم فقد أظهروا فيها قصر نظر وتغلبا للعواطف على مصلحة الجنس الاغريقي كله

١ - نتائج هذه الحروب وانحلال الديمقراطية :

كانت هذه الحروب مبدأ اضمحلال الديمقراطية، إذ أنها كانت سببا في توزيع القوى وتهديم بناء الدولة، وأول ما جرته حرب الزعامة والمجد واسترسال الزعماء في تمليق الشعب وأرضائه وجعل الكلمة العليا للديماجوجية ، وقد ساعدت على تفشى روح الحزبية التي أدت إلى الانقسام ، أما الفضائل فقد فقدت قيمتها، فارتكبت أفظع الجرائم ولم يحتكم مقترفوها الى قانون غير قانون البغى والنشنى، واصبح سوء الظن رائد الجميع ، وفسدت النفوس حتى كان لا يمكن التعويل على أصدق الوعود وأغلظ الأيمان، كما فسدت الوطنية أيضا وانحلت الأخلاق وأصبح من الضروري العمل من جديد على إصلاح المعوج من الخلق

٢ - فوضى المال :

سائت الأحوال المالية كثيرا منذ أن خصص بركليز أجورا ضخمة للمحلفين والموظفين وتوزيع الأموال ذات اليمين وذات الشمال على الشعب وقد زادت الحرب هذه الفوضى سوءا ، ففسدت طريقة جمع الضرائب في اثنائيه واستنزفت هذه الحرب الخزانة، وكان من الضروري للتخلص من هذه الحال

النظر في أصلح الطرق لجمع المال ، فأدى هذا البحث الى دراسة مالية الأمة دراسة منتظمة ، فأخذت الأعمال المالية صبغة فنية ، واشتغل أهل أئينا بالصناعة والتجارة كي يستعيدوا ما كان لهم من مقام في عالم الصناعة والتجارة ، وأدى بهم التفكير في شؤونهم الخاصة الى تأليف شركات اقتصادية قأت بأجل الخدمات للصناعة والتجارة ، وقد أنشأوا مصرفاً مالياً (بنكاً) فكان الأول من نوعه في العالم وأثمرت فيه الأموال ، وأصبحت أئينا بفضل مجهودات أهلها المركز المالي للعالم القديم (شأن لندن واوشنجتون) فأثرى اليونان وبدأ الأغنياء يعيشون عيشة الثرف داخل بيوتهم فزينوها بالنقوش وفرشوها بالبسط والحري فكان هذا تطوراً جديداً في حالتهم الاجتماعية

(٣) الارتاق من الجندية :

إن اهتمام الناس بشؤونهم الخاصة واهتمامهم المصلحة العامة كان من أظهر نتائج الحروب . وقد دعاهم هذا الخلق الجديد الى اتخاذ الجندية مهنة الارتاق فخرج الكثيرون يعرضون قواهم الحربية ومهارتهم العسكرية على الأمم القريبة منهم كمصر واسيا الصغرى وفارس ، وبهذا تفرقت قوتهم ، وقد امتاز بعضهم بما أظهروه من المهارة النادرة ونخص بالذكر منهم

اجزونوفون عند قورش ملك فارس . كتب هذا القائد رسالة في الحرب في أيامه الأخرى واسمها اناباسيس أو الارتقاء ، وتعتبر هذه الرسالة أهم ما كتب في التاريخ القديم كبداءة للفنون الحربية ، ومنها عرف الأغرقي طرق تهديم الحصون وتفصيل الرماح على السهام ، واستخدام السفن الحربية الكبيرة ذات خمسة السطوح

حضارة الاغريق

من وفاة بركليز حتى سقوط الولايات الاغريقية

فن البناء والنحت والنقش :

اقتصرت في زمن الحرب على بناء الحصون والسفن ، ولما وضعت الحرب أوزارها اتحنى الاغريق ناحية جديدة في الفن ، وأخذ النحاتون عن قدماء المصريين تزيين أعلى الأعمدة بنقش الأزهار وأوراق النخيل ، واثار ذلك البناء لا تزال في أثينا وقورنث حيث تعرف هذه الأعمدة باسمها ، وقد ظهر تطور جديد في فن نحت التماثيل فأصبحت رمزا صادقا للحياة تمثل الضعف الانساني والعواطف البشرية والحياة بما فيها من سرور أو حزن ، وقد كانت تماثيل فدياس ومعاصريه لا تمثل إلا ناحية خاصة من الحياة وهي العظمة ، ومن الذين برعوا في هذا الضرب الجديد من النحت برا كستليز وسكوباس

أما النقاشون فقد اقتبسوا عن المصريين القدماء نقش الصور على ألواح خشبية ، وتلوينها بألوان زاهية تتمثل فيها حسن الذوق ، وأقبل الناس على شرائها ثم برع انريسامون أمثال ابولو دوراس في طريقة التظليل ، فزادوا بذلك من جمال الرسم وقربوه إلى الحقيقة ، وأبدعت أيديهم مناظر الحوادث القديمة وآثار تلك الرسوم كثيرة بمدينة بومي

الديانة والحالة العقلية :

تقدمت الحالة العقلية في بلاد اليونان تقدما كبيرا ، وكانت عقيلتهم في مبدأ أمرهم ، تجرى مع الخيال ، وتبتدع الأساطير شعرا ونثرا لتفسير مظاهر الكون المختلفة . أن هذه العقلية هي التي جعلتهم يؤمنون في القدم بعدد من الآلهة لا يمتازون عن بني الانسان إلا في درجة الكمال - استيقظت هذه

العقلية قبل الحروب البلوبونيزية وجدت في تعرف حقيقة هذا العالم وعلته الأولى، فنشأ نوع من التفكير يسمى الفلسفة الطبيعية، وكانت أهم ما عنيت به تلك الفلسفة مسائل الطبيعة والفلك والجغرافيا، ثم تنوعت هذه الفلسفة في مظاهر مختلفة وآلت في النهاية إلى انكار حقائق الأشياء على يد طائفة من السفسطائيين نزعوا من صدور اليونان إيمانهم بآلهة اولمبوس وحملوهم على الاستهانة بأصول ديانتهم القديمة ونبذ عاداتهم، ولكنها لم تود بهم إلى عقيدة ثابتة، وقد ترتب على انكار السفسطائيين لحقائق الأشياء نتائج سيئة بعضها ديني وبعضها اجتماعي وخلقى، فحصلت فوضى في الاخلاق وتعددت الآراء الدينية وانحلت الرابطة الاجتماعية، وذهب كل فريق في تفسير الفضيلة والرذيلة والصواب والخطأ والخير والشر مذهبا شخصيا، يناسب هواه ويتفق مع مآربه، وكان من الضروري لصد هذا التيار الجارف أن يتعرض فريق من الناس للبحث في العقل الانساني ومدى قوته التي يدرك بها الاشياء، تحولت الفلسفة من الطبيعة إلى الانسان وقواه العقلية، وزعماء هذه الفلسفة سقراط وافلاطون. أما سقراط (٤٧٠ — ٣٩٩ ق. م) فقد شغل بالحوار عن كل شيء، وقد تناول السياسة العامة والشئون الاقتصادية، والمبادئ الخلقية ونظام الحكومة، وأساليب التربية، ولذلك الحوار فيها كلها — على أن السر في عظمة سقراط هو نبوغ تلاميذه أمثال افلاطون الذين دونوا تاريخ حياته في سجل الخلود، وروا أحاديثه، ودبجوا محاوراته بأسلوب من البيان قل أن يجاريهم فيه أحد — نشر افلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق. م) تعاليم أستاذه وقد شغله انحطاط الديمقراطية في زمنه، فتناول طبيعة الدولة ونادا بمبدأ الشيوعية في كتابه الشهير (الجمهورية) وعالج المسائل الاقتصادية والسياسية في كتابيه الاخرين (القوانين والسياسة) وتعد هذه الكتب من أنفس المصادر القديمة في علم نظام الحكومات

انتقال العلوم والآداب من الغرب إلى الشرق :

لما توفي الاسكندر سنة ٣٢٣ ق. م انقسمت امبرطوريته العظيمة فكانت مصر من نصيب البطالسة ، وكان ملوك البطالسة يعنون بترقية العلوم وأحياء الآداب ، فانشئوا دار كتب عظيمة بالاسكندرية ومدرسة جامعة كبرى وأسسوا المراصد والحدائق الخ . وقد ذاع صيت الاسكندرية بمعاهدها العلمية حتى صارت كعبة للعلوم ، يؤمها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم المتمدين ، وقد كان بطليموس الاوّل نفسه يذهب إلى البلاد الاغريقية ليجمع أعظم الفلاسفة والعلماء من الاغريق ليذهبوا معه إلى الاسكندرية يدرسون بمدارسها ويشغلون بالبحث والتأليف بمساعدة دار الكتب والتحف ، ومن بين هؤلاء عدد كبير حفظ التاريخ ذكرهم ، منهم أقليدس صاحب كتاب الاصول في الهندسة وايراتسين و بطليموس الجغرافيان وهيارخس الخ . على يد هؤلاء انتقلت المدينة من الغرب إلى الشرق ، وظلت الاسكندرية أمينة على التقاليد والفلسفة الاغريقية إلى أن دخلت مصر في حوزة الرومان سنة ٣١ ق. م بعد موقعة اكتيوم فانتقلت الحضارة إلى رومية التي زادت من الحضارة قليلا

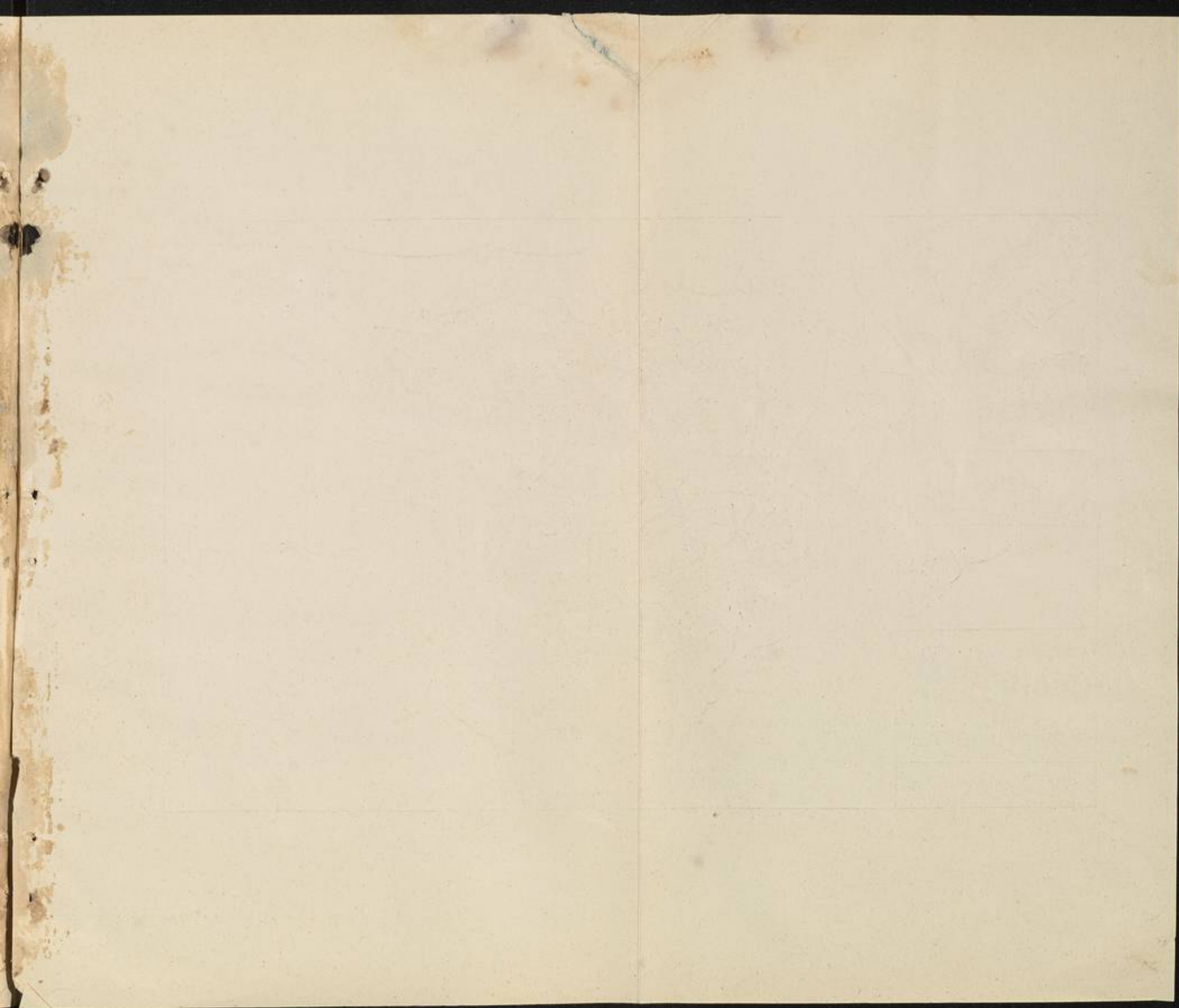
ولما أن انشطرت الدولة الرومانية إلى شطرين شرقي ومقرها القسطنطينية وغربي ومقره رومة وجد طلاب الثقافة اليونانية حصنا أمينا في القسطنطينية خصوصا بعد ان انتهت الدولة الزومانية في الغرب سنة ٤٧٦م على ايدي المتبربرين وبقاء القسطنطينية بعد ذلك بنحو ١٠٠٠ سنة تنشر الثقافة اليونانية في العالم . بقيت القسطنطينية هذه المدة وهي ميدان لاجتاث فلاسفة الاغريق وتأليفهم حتى ظهر الفرس وهددوها ، واخذوا انطاكية ، واستمر الكفاح بين الدولتين حتى خربت الحرب آسيا الصغرى التي كانت ميدان نضال بين دولتين احدهما تمثل المسيحية والاخرى تمثل الديانة القديمة ، ولما ان ظهر العرب المسلمون بعد ذلك قضوا على دولة الفرس ووجهوا جهودهم الى دولة الرومان ، فانتزعوا

منها فلسطين وسورية ومصر ، وهددوا القسطنطينية مراراً ، فانتقلت الحضارة الاغريقية بذلك الى أيدي العرب الا أن حضارة العرب كانت في أول أمرها عربية دينية مستمدة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، وبقيت هكذا قائمة في عصر الخلفاء الراشدين والدولة الاموية ، وفي أواخر هذه الدولة وأوائل الدولة العباسية بعد أن استتب أمر الدين وصنفت كتب الدين واللغة بدأ العرب يهتمون بالعلوم الدنيوية ، وقد ساعدتهم على ذلك الاهتمام (١) اختلاطهم بالأعاجم في الأقطار التي فتحوها ، وبالأخص بطائفة النسطوريين وهم فريق من النصارى فروا من القسطنطينية أيام الاضطهاد ، وسكنوا الشام والعراق وأسسوا لهم مدرسة لللب في ادسا بالعراق ، تعلم فيها العرب على أيديهم صناعة الطب والعقاقير (٢) اختلاطهم بطوائف يونانية أخرى فرت الى حران وبعض بقاع آسيا نفاهم الامبراطور جستنيان من أثينا ، فأخذوا عنهم الفلسفة والهندسة والرياضة (٣) اهتمام الخلفاء وگرامهم بالعلوم العصرية

وقد ترتب على هذا الاهتمام أن بدأ دور الترجمة والنقل في عصر أبي جعفر المنصور الذي كان عظيم الشغف بالطب والنجوم والهندسة ، ولما جاء المأمون اقتدى بالمنصور وأرسل البعوث الى بلاد الاغريق فبحروا في اللغة اليونانية واستمدوا من كتب أثينا والاسكندرية أكثر من ٢٠٠ كتاب في الحساب والهندسة والحكمة والتنجيم الخ

وقد تسارع الناس في زمن المأمون الى الاخذ بمذهب المعتزلة الذي أساسه تطبيق النصوص على الأحكام العقلية ، فترجمت كتب المنطق والفلسفة لمعاوضة هؤلاء المعتزلة على اقامة الحجج وترتيب الأدلة ، وقد أمر المأمون بنقلها إذ أنه كان ميل بطبيعته لهذا المذهب ، وهذه المناسبة يقول ابن خلدون « ان العرب أخذوا المنطق وأصوله عن اليونان ولم يزيدوا فيه على الأصول التي وضعها له أرسطو » (٢) دور التحقيق والتأليف

كان اشتغال العرب بهذه العلوم الدخيلة لا يتعدى حد النظر والشرح والتلخيص ، ثم أخذوا بعد ذلك يمحسون نظرياتهم ويحققون مسائلها فدخلوا



بذلك في طور التأليف والاختراع ، ونبغ منهم عدد عظيم من كبار الفلاسفة
والمؤرخين والشراح والأطباء
من هذا تعلم أن أثر اليونان في الثقافة الانسانية عظيم عميق، لانهم أمدوا
العلم بمنتجات فلاسفتهم وعلمائهم وكتابهم ومفكرهم كما أمدوه بما وقفوا عليه
من زبدة علوم الاشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس
واليونان والرومان، فاذا ما قلنا ان العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية ومنتجات
العقول اليونانية فكأننا نقول ضمنا انهم وقفوا على آثار العقلية الانسانية
العامه وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة، فاستفادوا بتلك العلوم
والمعارف فائدة كبرى، وعنهم أخذ الغربيون في أبان نهضتهم العلمية في القرون
الوسطى فكأنهم كانوا حلقة الاتصال بين الحضارة القديمة وثقافتها وبين
الحضارة في العصر الحديث



فهرس الكتاب

ص

٣

مقدمه

(الباب الأول)

٥ - ٣٣

عصر الخلفاء الراشدين :

الخوارج . عصر الدولة الأموية . الشيعة . مذهب الشيعة وفرقها .
الشيعة والأمويون . أثر الشيعة في الاسلام . انتقال الدعوة الشيعية إلى
العباسيين . انحلال الدولة الأموية وسقوطها . الشيعة وأبو مسلم
الخراساني . مروان الثاني و ابراهيم الامام . قيام الدولة العباسية وسقوط
مروان الثاني . مميزات الدولة العباسية سنة ١٣٢ - سنة ٦٥٦ هـ
سنة ٧٥٠ - ١٢٥٨ م

(الباب الثاني)

٢٤ - ٥٢

عصر السفاح والمنصور :

أبو العباس عبد الله السفاح ، علاقته بالأمويين . علاقته بالدولة
البوزنطية . المنافسة بين أبي مسلم وأبي جعفر في عهده . الثورات والفتن
اصلاحاته الداخلية في عهده : أولا . خروج عبد الله بن علي - ثانيا . سقوط
أبي مسلم الخراساني - ثالثا . ثورة الراوندي سنة ١٤١ هـ - رابعا . الثورة
في خراسان وطبرستان سنة ١٤١ - سنة ١٤٣ هـ . خامسا . ثورة
العلويين سنة ١٤٤ هـ تأسيس بغداد سنة ٧٥٠ م - الاحوال
الخارجية في عهد المنصور . ولاية العهد . الاصلاحات الداخلية في
عهد المنصور . وفاة المنصور وأخلاقه .

﴿ الباب الثالث ﴾

ص
٦٢ — ٥٣

عصر المهدي والهادي :

محمد المهدي . الفن والثورات في عهده . ثورة أحد أبناء مروان الثاني . ثورة هاشم بن حكيم في خراسان . ثورة الزنادقة . أحوال الدولة الخارجية في عهده . وزراء المهدي . وفاة المهدي وأخلاقه . موسى الهادي . الاحوال الداخلية في عهده . الخيزران . محاولة الهادي لجعل الخلافة لابنه جعفر متخطيا أخاه هرون . ثورة الخوارج في الجزيرة و ثورة العلويين في مكة والمدينة . موت الهادي وأخلاقه .

﴿ الباب الرابع ﴾

٩٢ — ٦٣

عصر الرشيد والأمين :

هرون الرشيد . الاحوال الداخلية في عهده . نقل مقر الخلافة . خطر العلويين . قيام الخوارج بالفتن العديدة . الاحوال في المشرق . الرشيد والبرامكة . سقوط البرامكة . غضب الرشيد على جعفر . أقوال بعض المؤرخين العرب الذين نقل عنهم الفرج . ما قاله ابن خلدون . الحوادث الداخلية الأخرى . أحوال الدولة الخارجية . علاقة الرشيد بشرمان . أولياء عهد الرشيد . وفاة الرشيد وأخلاقه . محمد الأمين . تربية الأمين وأخلاقه . أحوال الدولة الداخلية في عهده . التنافس بين الأمين والمأمون . الحرب بين الأمين والمأمون . الاستيلاء على بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ

﴿ الباب الخامس ﴾

١٣٠ — ٩٣

عصر المأمون :

عبد الله المأمون — أحوال الدولة الداخلية في عهده . الفترة الأولى في عهده . هرثمة ابن أعين وشخصه إلى خراسان . سقوط

هرثمة وقتله . بيعة المأمون لعلی الرضا . المأمون في بغداد . الحوادث
الداخلية الاخرى . علاقة المأمون بالعلويين . ثورة نصر بن شبيب
ومؤامرة ابن عائشة . ثورة الزط . الثورة في مصر . ثورة بابك الخرمي
زواج المأمون من بوران ابنة الحسن بن سهل . أحوال الدولة
الخارجية في عهد المأمون . وفاة المأمون وأخلاقه . حضارة الدولة
العباسية في عهد المأمون . وزراء المأمون . الجيش والقواد العظام في
عهد المأمون . الحركة العلمية في عهد المأمون . الحركة المذهبية في
عهد المأمون . القدريّة أو المعتزلة .

(الباب السادس)

١٣١ — ١٤٥

عصر المعتصم والوائق :

أبو اسحاق محمد المعتصم . أحوال الدولة الداخلية في عهده .
ثورة الزط . القضاء على بابك الخرمي . العلويون في عهده . مؤامرة
عجيف بن عنبة . خيانة الأفشين وسقوطه . ثورة أبي حرب المبرقع
اليماني بفلسطين . أحوال الدولة الخارجية في عهده . الوزارة في عهد
المعتصم . وفاة المعتصم وأخلاقه . هرون الواثق بالله . حالة الدولة الداخلية
في عهده . الحركة المذهبية . قيام الثورات . حالة الدولة الخارجية
في عهده . وفاة الواثق وأخلاقه

(الباب السابع)

١٤٦ — ١٦٩

عصر نفوذ الأتراك :

المتوكل . أحوال الدولة الداخلية في عهده . وزراء الدولة .
سقوط اتياخ القائد التركي . العلويون . الاضطرابات والفتن في الدولة
نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق . قيام الدولة اليعفرية . أحوال الدولة
الخارجية في عهد المتوكل . تقسيم الدولة بين أولياء العهد . قتل المتوكل
وأخلاقه . محمد المنتصر . أبو العباس أحمد المستعين بالله . الخليفان

الاحوال الداخلية الاخرى في عهد المستعين . الدولة الزيدية .
أحوال الدولة الخارجية في عهد المستعين . أبو عبد الله المعتز . الشعب
في بغداد ، خلع المعتز وموته . محمد المهدي بالله . علاقة المهدي
بالأتراك وقوادهم

﴿ الباب الثامن ﴾

١٧٠ — ١٨٨

عصر المعتمد والموفق والمعتضد والمكثفي :

احمد المعتمد على الله . أحوال الدولة الداخلية في عصر المعتمد .
العلويون ، ثورة الزوج . الاحوال في المشرق . قيام الدولة الصفارية .
علاقة المعتمد بالدولة الطولونية . علاقة المعتمد بالدولة البوزنطية .
وفاة الموفق والمعتمد وولاية العهد بعدهما . أبو العباس احمد المعتضد
الحالة في خراسان وقيام الدولة السامانية . علاقة المعتضد بالدولة
الطولونية . وفاة المعتضد . علي المكثفي بن المعتضد . القرامطة .
مذهب القرامطة . انتشار مذهب القرامطة في خلافة المعتضد . القرامطة
في عصر المكثفي بالله . وفاة المكثفي بالله .

﴿ الباب التاسع ﴾

١٨٩ — ٢٠٦

عصر المقتدر والقاهر والراضي والمنتقى :

جعفر المقتدر بالله . أمر القرامطة في زمن المقتدر . علاقة المقتدر
بالدولة البوزنطية . الشعب في بغداد وقتل المقتدر . أبو منصور محمد
القاهر . أبو العباس احمد بن المقتدر الراضي . المنافسة بين ابن رائق
والبريدى . المنافسة بين بجم وابن رائق . قيام الدولة الاخشيديية بمصر
قيام الدولة البويهية . فتنة الخنابلة ببغداد في أيام الراضي . وفاة الراضي
وأخلاقه . ابراهيم المنتقى لله . رجوع ابن رائق إلى بغداد وقتله —
توزون أمير الامراء . خلع المنتقى

﴿ الباب العاشر ﴾

٢٠٧ - ٢٢٣

عصر نفوذ آل بويه :

استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد . خلع المكتفى وخلافة المطيع . نفوذ معز الدولة وادارته . العلاقة بين معز الدولة وناصر الدولة بن حمدان . خلع المطيع وخلافة الطائع . خلع الطائع وخلافة القادر . قيام الدولة الغزنوية . علاقة سبكتكين بالدولة السامانية . وفاة القادر وأخلافه . القائم بأمر الله . قيام الدولة السلجوقية . طغرل بك وعلاقته بالخلافة العباسية

﴿ الباب الحادى عشر ﴾

٢٢٤ - ٢٤٤

عصر نفوذ السلجوقيين :

دعوة البساسيرى إلى بغداد . عهد الب ارسلان . خلافة المقتدى بأمر الله . خلافة المستظهر بالله . حال الدولة السلجوقية في عهده . خلافة المسترشد بالله . عماد الدين زكى . خلافة الراشد بالله . خلافة المقتضى بأمر الله . خلافة المستنجد بالله والمستضىء بالله . خلافة الناصر لدين الله وولده وحفيده . شاهات خوارزم . العلاقة بين الخليفة وشاهات خوارزم . المستعصم آخر خلفاء العباسيين بالمشرق . قيام دولة المغول . علاقة جنكيز خان بالبلاد الاسلامية . المستعصم بالله وهو لاكو خان . الخلفاء العباسيون بعد سقوط دولتهم .

﴿ الباب الثانى عشر ﴾

٢٤٥ - ٢٥٨

حضارة الدولة العباسية وأسباب سقوطها :

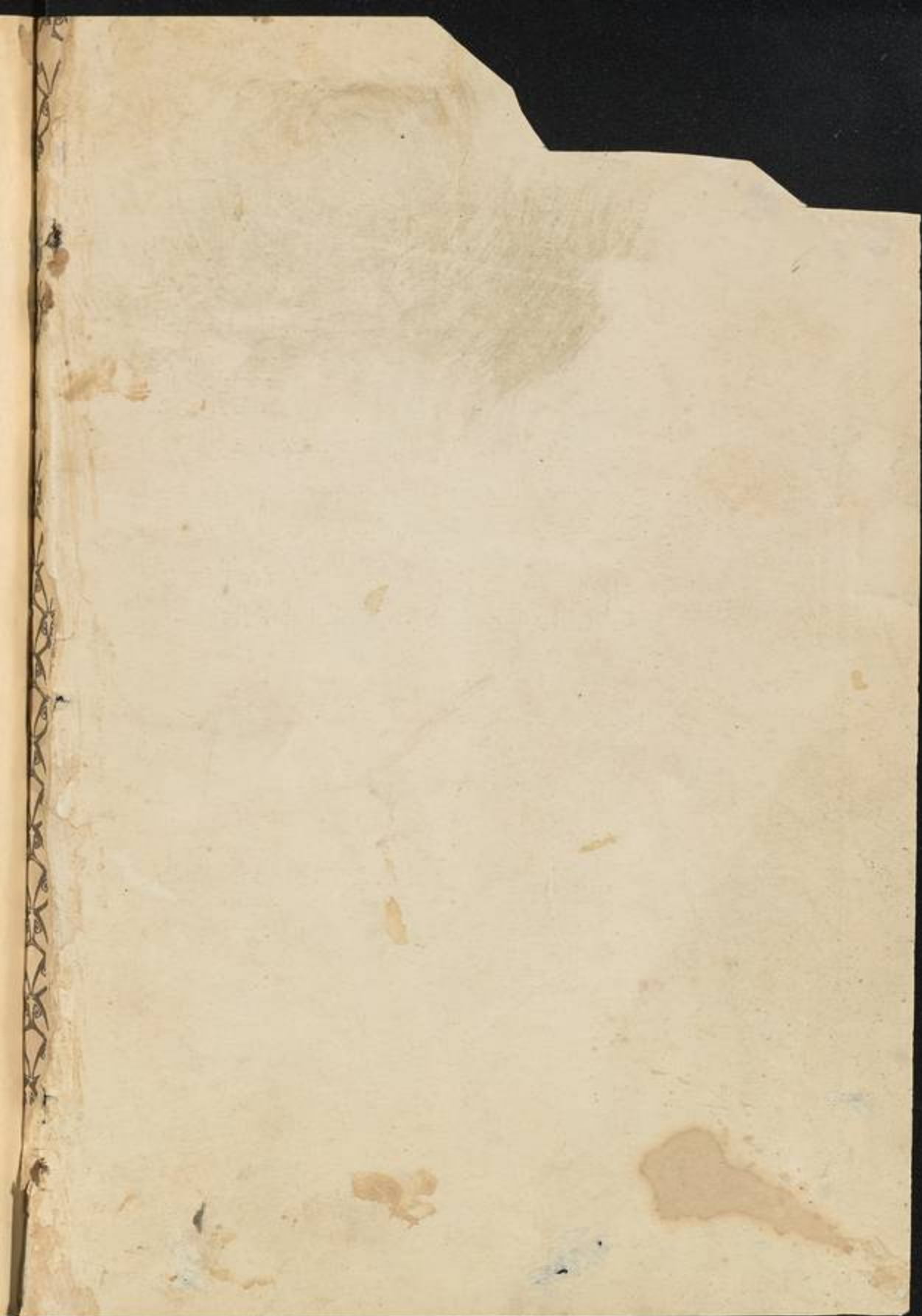
كلمة اجمالية . دواوين الدولة والادارة المدنية . إيرادات الدولة القضاء والزراعة والصناعة والتجارة . الحالة الاجتماعية والعلمية . اضمحلال الدولة العباسية وسقوطها

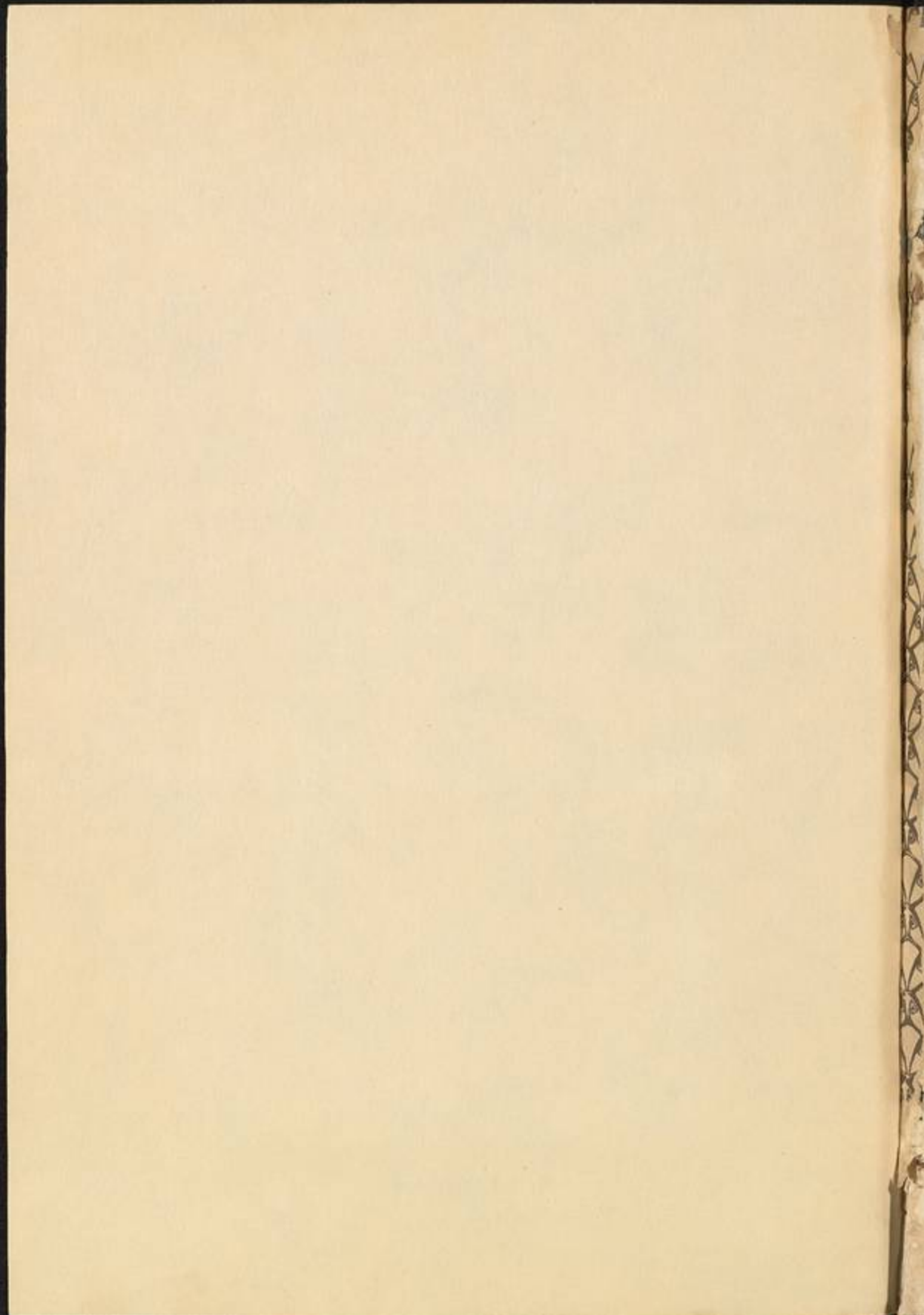
ملحق

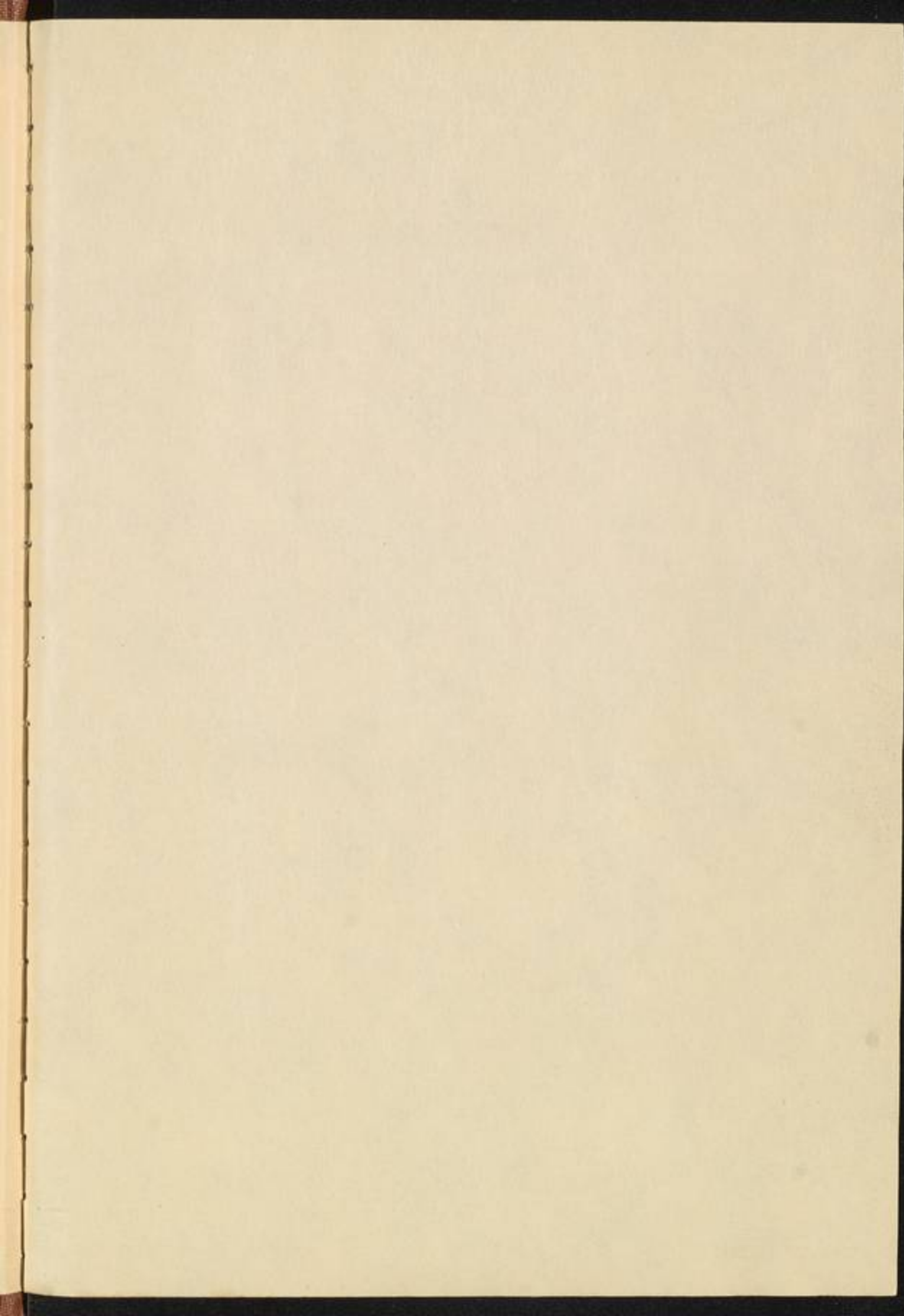
٢٨١—٢٥٩ نظرة عامة في حال الاغريق الاجتماعية في عهد عظمة أثينا
واسبرطة وأثر ذلك في المدينة العرية . عظمة أثينا وعصر كيمون .
حلف ديلوس . اسبرطة وأثينا . عصيان الجند في اسبرطة . اشتداد
ساعد الديموقراطية . سقوط كيمون . عصر بركليز . سياسته الداخلية .
تقدم الديموقراطية في عهده . دستور سولون . سياسته الخارجية .
الفنون والآداب في عهده . بعض عظماء الرجال المعاصرين له . قوة
الامبراطورية الآثينية وضعفها . الحروب البلوبوزينية . الحرب
وموت بركليز . حملة صقلية . الدور الأخير من الحرب . الكفاح
الآخر بين الولايات الاغريقية . سقوط اسبرطة وزعامة طيبة .
نتائج هذه الحروب وانحلال الديموقراطية .

حضارة الاغريق وانتقال العلوم والاداب من الغرب الى الشرق









893.79
K5265

APR 24 1967

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58870709

893.79 K5265

Dawlah al-Abbasiyah